

قضايا ثقافية



الطبعة الثالثة

2020

المحاضرات والندوات التي أقيمت بنادي الجسرة الثقافي الاجتماعي

خلال الموسم الثقافي
1986 /1987



قضايا ثقافية



الطبعة الثالثة

2020

فعاليات نادي الجسرة الثقافي الاجتماعي

خلال الموسم الثقافي 1987 / 1986


بسم الله الرحمن الرحيم
﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾
صدق الله العظيم

كلمة النادي



مـع إشراقـة شـمس الثقافـة والمعرفـة في بلدنـا الحبيـب، لنـا عظيـم الـشرف أن نشـارك، ولـو بقبـس منهـا، في إضفـاء وإنمـاء النهضـة الثقافيـة الكـبرى التـي راحـت تظلـل سـماء حياتنـا.

يطيـب لنـا أبنـاء هـذا الوطـن؛ أبنـاء نـادي الجـسرة الثقـافي الاجتماعـي، أن نشـارك في التظاهـرة الثقافيـة، بمجموعـة مـن المحـاضرات التـي ألقاهـا نخبـة مختـارة مـن محـاضري هـذا العـصر وساسـته ومفكريـه وأدبائـه، مـن شـتى أقطـار وطننـا العـربي.

فـكان أن اتجـه الـرأي في إدراج المحـاضرة السياسـية والثقافيـة والدينيـة والعلميـة، والنـدوة الأدبيـة والفكريـة والفنيـة. وقـد رأينـا أن نجمعهـا في كتـاب يكـون مرجعـاً لـكل باحـث في أغـوار ثقافاتنـا وآدابنـا العربيـة المعـاصرة.

وهـذا الكتـاب سـيصدر دومـاً بـإذن اللـه مـع نهايـة كل موسـم ثقـافي لهـذا النـادي الثقـافي.

إننـا نطمـح لتلبيـة حاجـات المسـتمع والقـارىء الكريـم، إلقـاء المزيـد مـن المحاضرات في شـتى مجـالات الثقافـة والأدب والمعرفـة، وذلـك بالسـعي المسـتمر وراء كل صاحـب قلـم صـادق، وكل رائـد فكـر هـادف، وكل ذي رأي مسـتنير لنضيـف خطـوة عـلى طريـق مسـيرتنا الثقافيـة الواعيـة في هـذا الوطـن الحبيـب.

والله ولي التوفيق

يوسف محمد درويش

رئيس مجلس إدارة نادى الجسرة الثقافي الاجتماعي

خلال الفترة (١٩٨٦ - ٢٠٠٠)

كلمة النادي



قضايا الجسرة والذاكرة الثقافية

إن المتأمل للنوادي الثقافية الخليجية والعربية، يجد أن نادي الجسرة الثقافي الاجتماعي بدولة قطر، ليس نادياً ثقافياً بالمفهوم التقليدي لهذه الكلمة، لكنه تاريخ ثقافي وفكري وحضاري واجتماعي يجسد الحركة الثقافية العربية، لأكثر من ستة عقود متتابعة، شهد فيها النادي حراكاً ثقافياً قل أن يوجد في نظرائه على المستوى المحلي أو الخليجي.

فقد حمل هذا النادي العريق على عاتقه عبء الثقافة العربية بكل آمالها وآلامها التي مرت بها خلال العقود الماضية وحتى الآن. من خلال استضافته لعدد كبير من رموز الثقافة العربية في حقول الفن والأدب والاجتماع والسياسة والاقتصاد والتاريخ والحضارة وغيرها، وكانت هذه الشخصيات منارات تشع وميضها الفكري للأجيال العربية في الحاضر والمستقبل.

فقد أثار النادي عبر محاضراته وندواته المتعاقبة قضايا فكرية تناولها كبار المفكرين والمثقفين والكتاب عربياً ودولياً، وجسدت عمق الفكر الإنساني بكل صوره وأشكاله، وعبرت عن الصورة الواقعية التي تعيشها الثقافة العربية، بل وعن الواقع العربي نفسه، وأدت إلى تشكيل جيل من المثقفين واعياً بقضايا عصره، ومتطلعا لواقع مرجو أكثر رحابة وإشراقاً. ولم يلجأ النادي يوما لثقافة

احتفالية تعنى بقشور الثقافة السطحية، بغية الدعاية الإعلامية البراقة الشبيهة بفقاعات الماء في عمق البحر سرعان ما تختفي آثارها. بل لجأ النادي لتكريس الثقافة العربية العريقة عبر تاريخها، على الرغم من المتغيرات والصعوبات التي تواجه مثل هذ الثقافة النوعية. لأسباب عديدة يضيق المقام بذكرها. وفي وسط هذا المفترق الثقافي عربياً ودولياً وقف النادي كالطود الشامخ محافظاً على القيم والأعراف الثقافية والإنسانية النبيلة ومعبراً عن جسور الثقافة الإنسانية الرفيعة.

ومن هذا المنطلق حرصنا على عدم ضياع هذا التراث الثقافي والفكري أشد الحرص وقمنا بتوثيق هذه المحاضرات والندوات القيمة، التي تشكل جزءاً كبيراً من تراث النادي وتاريخه الثقافي بل جزءاً من تاريخ الثقافة العربية منذ الستينيات من القرن الماضي وحتى الآن.

ومن هنا تأتي هذه الطبعة الثالثة من القضايا الثقافية التي جسدتها الندوات والمحاضرات واللقاءات، التي أقامها النادي عبر عقوده الأخيرة، بعد أن نفدت الطبعات السابقة أو كادت، وذلك لقناعتنا بأهمية التوثيق العلمي لهذه الحقول المعرفية المتنوعة، التي تعد ذاكرة النادي الثقافية للأجيال العربية، وغيرها في الحاضر والمستقبل. ونود أن نكون بهذا العمل قد قدمنا زاداً معرفياً وثقافياً وفكرياً، ليس للقارئ فحسب ولكن للتاريخ الثقافي العربي.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل

رئيس مجلس الإدارة

إبراهيم خليل الجيدة

الدوحة في ١٥-١١-٢٠٢٠

عنوان المحاضرة:

«الشباب والطلاق في المجتمع القطري»

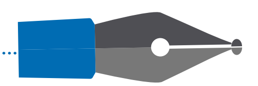
١٩٨٦/١٠/٨



فضيلة الشيخ

عبد القادر محمد العماري

القاضي بالمحكمة الشرعية



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

موضوعنا اليوم خطير جداً، ولن تكفيه محاضرة واحدة، وإن شاء الله نوفَّق في الإلمام بجانب كبير منه.

الأسرة في الإسلام

أحاط الإسلام الأسرة برعاية فائقة، ونلحظ ذلك في سور شتى من القرآن الكريم، وأحاديث الرسول ﷺ، وقد طهرها من فوضى الجاهلية، وحماها بسياج من الأحكام الربانية. ولا غرابة في ذلك، فالنظام الاجتماعي في الإسلام إنما هو نظامُ أسرةٍ ونظام رباني للإنسان، لوحظت فيه كل خصال الفطرة الإنسانية التي تنبثق من قاعدة التكوين الأولى للأحياء، قال تعالى: (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون)، وقال: (سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون)، وقال: (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إن الله كان عليكم رقيبا)، وقال تعالى: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم).

فالأسرة في الإسلام تلبي حاجات الفطرة، لذلك كان نظام الأسرة في الإسلام هو النظام الطبيعي، الذي ينسجم مع التكوين الإنساني، بل مع تكون الأشياء كلها في الكون، وأن يضبط النظام الذي يقيمه للإنسان في النظام الذي أقامه الله للكون كله، ولا ينظر الإسلام إلى اجتماع الجنسين بالنسبة للإنسان كنظرته لاجتماع الذكور والإناث في العجماوات، ولكن ينظر إلى هدف إقامة الأسرة، قال تعالى: (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)، وقال: (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن، نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا لله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين)، وقال: (والله جعل لكم من بيوتكم سكناً).

فالإسلام يسعى لإقامة أسرة هادئة مستقرة يربي فيها الإنسان، فدوره أعظم الأدوار وأضخمها في الحياة، لذلك كانت طفولة الإنسان أطول طفولة مقارنة بأي مخلوق من الأحياء، فمرحلة طفولته هي فترة إعداد وتدريب لتحمل المسؤولية، لذلك امتدت فترة طفولته ليحسن إعداده وتدريبه للمستقبل، فكانت حاجته لملازمة أبوية أشد

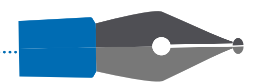


مـن حاجـة أي طفـل في الكائنـات الأخـرى. وقـد حاولـت بعـض المذاهـب أن توجـد بديـلاً لـلأسرة، مـن خـلال إقامـة نظـام المحاضـن الجماعيـة، ولكـن ثبـت أن هـذا النظـام فاشـل، وأنـه نظـام تعسـفي ضـد الفطـرة؛ إذ أرادوا أن يكـون الإنسـان كقطيـع الحيـوان. فالـدول الأوروبيـة أقامـت ملاجـىء للأطفـال الذيـن فقـدوا أهليهـم في الحـروب، كـما أقيمـت أيضـاً دور الحضانـة بسـبب ذهـاب الأمهـات للعمـل تحـت تأثـير تصـورات خاطئـة، فحرمـوا الأطفـال حنـان الأمهـات ورعايـة الأسرة، فامتـلأت نفوسـهم بالعقـد والاضطرابـات، وضحـوا بذلـك بأغـلى شيء عـلى وجـه الأرض. ولا يخفـى عـلى أحـد أن عصابـات الإجـرام والمشردين إنمـا تتكـون مـن هـذا النـوع مـن النـاس، فكانـت هـذه الأجهـزة المصطنعـة هـي التـي توفـر المـأوى لاسـتمرار عصابـات الإجـرام.

حكمة الزواج

لا تسـتقيم حـال الإنسـان ولا تطمـئن حياتـه، إلا باسـتقرار حياتـه المعيشـية والمنزليـة وانتظـام أحوالـه، ولا يتحقـق ذلـك إلا بوجـود شريكـة لـه في الحيـاة عـن طريـق الـزواج، الـذي هـو اقـتران الرجـل بالمـرأة عـلى سـبيل الـدوام والاسـتمرار. إنـه عهـد وميثـاق بـين الزوجـين مبنـي عـلى المـودة والرحمـة.

فالـزواج نظـام إلهـيٌّ شرعـه اللـه لخـير الإنسـانية، ولمصلحـة المجتمـع البـشري في إقامـة دعائـم الأسرة التـي هـي عـماد الأمـة. قـال تعـالى: (واللـه جعـل لكـم مـن أنفسـكم أزواجـاً وجعـل لكـم مـن أزواجكـم بنـين وحفـدة ورزقكـم مـن الطيبـات)، فالـزواج شركـة بـين الزوجـين، تخفـره الأخـلاق والشـعور بالمسـؤولية الملقـاة عـلى عاتقيهـما: (فكلكـم راع وكلكـم مسـؤول



عـن رعيتـه)، الرجـل راعٍ ومسـؤول عـن رعيتـه، والمـرأة راعيـة في بيـت زوجهـا ومسـؤولة عـن رعيتهـا. غـير أن هـذه الشركـة لا بـد أن يكـون لهـا رئيـس، والرئيـس المناسـب هـو الرجـل: (الرجـال قوّامـون عـلى النسـاء بمـا فضـل اللـه بعضهـم عـلى بعـض وبمـا أنفقـوا مـن أموالهـم)، (ولهـن مثـل الـذي عليهـن بالمعـروف وللرجـال عليهـن درجـة).

فالقوامـة ضرورة اجتماعيـة، والإنفـاق ليـس وحـده السـبب في جعـل القوامـة للرجـل، فهنـاك خصوصيـة ذكرهـا اللـه في قولـه: (بمـا فضـل اللـه بعضهـم عـلى بعـض)، فهـذه الخصوصيـة ليسـت مكتسـبة، بـل هـي راجعـة لأسـباب خَلْقيَّـة، فالمـرأة خلقهـا اللـه للأمومـة ومـا يتعلـق بهـا مـن حيـض وحمـل وولادة ورضاعـة، وذلـك مـا يجعـل حظهـا مـن العاطفـة يختلـف عـن حـظ الرجـل. وقـد جـاء في دائـرة معـارف (روسي): « نتيجـة لضعـف دم المـرأة ونمـو مجموعهـا العصبـي تـرى تركيبهـا أقـل مقاومـة، لأن تأديتهـا لوظائـف الحمـل والأمومـة والرضاعـة يسـبب لهـا أحـوالاً مرضيـة قليلـة أو كثـيرة الخطـر»...

ولا تتعـارض هـذه الطبائـع مـع مبـدأ المسـاواة، وقـد جعلهـا الإسـلام في دائـرة تبـادل الحقـوق والواجبـات التـي تـوزع وفقـاً لأعبـاء كل منهـما ومقوماتـه، فالقوامـة إذاً تكليـف وعـبء، فهـي مَغـرم لا مَغنـم، ومـن هنـا كان الرجـل هـو المكلـف بالسـعي في الأرض، وتحمـل المشـاق في سـبيل كفالـة الأسرة. وقـد أشـار اللـه تعـالى إلى اختصـاص الرجـل بذلـك في قولـه: (فقلنـا يـا آدم إن هـذا عـدو لـك ولزوجـك فـلا يخرجنكـما مـن الجنـة فتشـقى)، فجعـل نتيجـة خـروج آدم وحـواء مـن الجنـة أن يشـقى آدم وحـده، فلهـذا نـرى أن الرجـل هـو الـذي يشـقى منـذ ذلـك اليـوم.

لقـد حـث الإسـلام عـلى الـزواج، مـن أجـل تلـك المعـاني النبيلـة التـي ذكرناهـا، وهـي تكويـن أسرة تمـد الحيـاة بالأفـراد الصالحـين، الذيـن يحققـون إرادة اللـه في عـمارة هـذا الكـون إلى مـا شـاء اللـه. وقـد رفـع الإسـلام دوافـع الفطـرة عـلى المسـتوى الحيـواني ورقّاهـا، فهـو لا يسـتقذر تلـك الدوافـع، وإنمـا ينظفهـا ويقيـم العلاقـة الجنسـية عـلى أسـاس مـن المشـاعر الإنسـانية الراقيـة. وقـد اعتـبر الـزواج وسـيلة لذلـك التطـور والرقـي، فدعـا الأمـة المسـلمة لتزويـج أبنائهـا وبناتهـا، وأوجـب أن لا يكـون المـال عقبـة دون تحقيـق هـذه الوسـيلة الضرويـة لإقامـة الحيـاة الطاهـرة، قـال تعـالى: (وانكحـوا الأيامـى منكـم والصالحـين مـن عبادكـم وإمائكـم إن يكونـوا فقـراء يغنهـم اللـه مـن فضلـه واللـه واسـع عليـم)، (وليسـتعفف الذيـن لا يجـدون نكاحـاً حتـى يغنيهـم اللـه مـن فضلـه). وقـد سـمى اللـه الـزواج إحصانـاً، أي: وقايـة وحصانـة. فالـذي يبقـى دون زواج لا ينـال رضى اللـه، ولذلـك سـارع الإمـام عـلى بـن أبي طالـب

(رضى الله عنه) بعد وفاة زوجته فاطمة (رضى الله عنها) إلى الزواج قائلاً: (لقد خشيت أن ألقى الله وأنا أعزب).

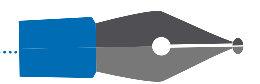
الزواج يسر لا عسر

وتيسير أمر الزواج مسؤولية عامة على عاتق المجتمع. ويخطىء بعض أولياء أمور الزوجات في عدِّ فخامة المهر وفخامة تكاليف الزواج من المكارم، فقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: (لو كان مكرمةً كان أحق بها رسول الله ﷺ. وعن عائشة رضى الله عنها: أن أقلهن مهراً أكثرهن بركة.

وقد علّمنا الإسلام أن خير الأمور أوسطها: (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط)، وقال تعالى أيضاً: (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) فيجب اعتماد أوسط الأمور: (حب التناهي شطط؛ خير الأمور الوسط)، لذا يجب مساعدة الرجل الفقير على أعباء الزواج، وهذا واجب على الأمة والدولة، التي عليها القيام بواجبها في مساعدة الفقراء على الزواج)، كما تقوم بمساعدة المرأة المطلقة بإعانة شهرية، لمساعدتها على تكاليف الحياة. ولكن الجشع المادي عند بعض الناس الذين صاروا يتخذون من الزواج والطلاق - وهما من آيات الله وأحكامه - وسيلة للكسب غير الوجيه، وفي ذلك استخفاف بهذه الأحكام وتلاعب بها؛إذ يعقدون زواجاً صورياً أو طلاقاً صورياً، ظناً من بعضهم أن مثل هذا العمل ليس فيه خطورة على الأسرة، وكل ما في الأمر الوصول إلى نيل مساعدات لا يستحقونها. والواقع أن هذا العمل أشد فساداً إذا استشرى في المجتمع، ففيه خطورة على أخلاقياته. فعقود الزواج والطلاق على هذا النحو المخالف للواقع والحقيقة واتساع نطاقه، يجعلنا لا نفرِّق بين الجد والهزل، والصحيح والباطل، والمقدَّس والمهان؛ إن لذلك أسوأ العواقب على سلوكات الشعب كله، ومن الأفضل أن يعطي الإنسان ما يبقى، لكن ليس تحت ستار زائف. ويجب التحري في هذا الشأن وعدم الاكتفاء بالوثائق الصادرة بناء على اتفاق الطرفين أو شهادة شاهدين، فذلك كفيل بالحد من هذه الأعمال.

أسباب الطلاق

لا ريب أن أي شاب يتمنى العيش في أسرة يسودها الحب والوئام مع شريكة تقاسمه الآمال والآلام، وترفرف عليها رايات السعادة والحب. ولعدم خبرة الشاب في أمور الحياة،



أو لأمور تتعلق بتربيته أو سلوكه، أو غير ذلك من أمور، فإنه يفشل في حياته الزوجية. وما ينطبق على الشاب ينطبق على الشابة. وإذا أردنا أن نحدد المسؤولية في هدم عش الزوجية: هل هي مسؤولية الرجل أم المرأة؟ نجد -بحكم وقوفنا على بعض أسباب الطلاق - أن المسؤولية موزعة، فتارة تكون على الرجل، وتارة تكون على المرأة، ومرة على أهل الرجل، ومرة على أهل المرأة، وقد يرجع الأمر إلى عدم رؤية الشاب للفتاة، فيفاجأ أنها ليست على ما كان يتصوره من الجمال والشخصية. لذلك ينبغي رؤية الفتاة قبل خطبتها، وقد أجمع علماء الشريعة على أنه يجوز للخاطب أن يرى بنفسه من يرغب في الزواج منها، قال ﷺ:(إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر فيها ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل).

روي أن المغيرة بن شعبه خطب امرأة، فقال له رسول الله ﷺ : (أنظرت إليها؟) قال: لا. فقال له رسول الله ﷺ: (اذهب فانظر إليها فإنه أحرى أن يدام بينكما)، ولا تجوز الخلوة بها إلا إذا كان معها محرم. يقول بعض الناس من الذين يرون أنفسهم متقدمين أو متحضرين: إن من حق المرأة الحديثة أن تجرب وأن تحب وأن تفشل مرات ومرات، ولكن العلاج الوحيد كما يدّعون هو المزيد من الحرية، وأن الحب للحب مفهوم لا يصلح للعصر، وهؤلاء مفتونون بالحضارة الغربية. فالأصحاء فكرياً من الغربيين أنفسهم قد انتقدوا هذه الأفكار، فالرجل لا يحب جسماً وإنما يحب مجموعة من الصفات؛ يحب الشخصية. إن التجربة عندنا معاشر الرجال بالنسبة للمرأة معناها أنها عرفت الكثير من الرجال، نحن نحمد الله أنه لم يعد في مجتمعنا من يدعو إلى ذلك، وإن كانوا قد ظهروا في الستينات، ولكن الله أذهبهم مع ظهور الصحوة الإسلامية بحمد الله تعالى.

ولذلك ندعهم في حالهم ولا نطيل الحديث عنهم. وإذا كان كل من الرجل والمرأة يقدِّسان الحياة الزوجية وعندهما من الوعي والإدراك ما يجعلهما يحافظان على استمرار الحياة الزوجية، فيصونان عشهما من السقوط، فهذان هما الزوجان الناجحان، فإذا لاحظنا أن أهلهما أو أهل أحدهما لا يتمتعون بالوعي الكافي فإنهم يتدخلون في كل صغيرة وكبيرة مما تجري العادة به في كل أسرة، فعليهما تلافي هذا الأمر، ويتفقان على خطة لمعالجة هذا التدخل، مع مراعاة حسن العلاقة بين الأسرتين. ومن الواجب أن لا يبوح كل طرف بأسرار الطرف الآخر، ولا يشكو من كل صغيرة وكبيرة. وقلَّ أن

تجد زوجين متقاربين في الثقافة يحدث بينهما الخلاف الذي يؤدي إلى الطلاق، فهما يستطيعان أن يتغلبا على كل المشكلات التي تعترض حياتهما الزوجية، ولذلك فنحن ننصح أن لا يتزوج الشاب المتعلم إلا شابة متعلمة، ولا تتزوج المتعلمة إلا متعلماً.

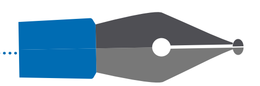
ونلاحظ في هذا المجال أن كثيراً من الشباب في قطر والخليج قد عجزوا عن إكمال تعليمهم، فخرجوا من الإعدادي والثانوي، والابتدائي، وعملوا في وظائف صغيرة لا تفي مرتباتهم بمتطلبات الحياة الزوجية، فهؤلاء يعانون من ناحيتين:

أولاً: أنهم لا يجدون بسهولة الزوجة التي تماثلهم في المستوى التعليمي، وإن وجدت فهي تصر على مواصلة تعليمها بعد الزواج، ويضطر الزوج للخضوع لذلك، ثم تعترضهم مشكلات كذهابها إلى المدرسة أو قيامها بأمور المنزل، وقلَّة دخله لا تمكِّنه من توفير أجر الخادم وأقساط السيارة، وغير ذلك من مستلزمات المنزل الأخرى.

ثانياً: إذا ارتفع مستواها التعليمي شعر هو بالنقص وشعرت هي بأنه لم يعد في مستواها، وتزيد المشكلات مع وجود الأولاد، ومآل هذا الزواج إلى الطلاق.

وإذا وُفِّق الرجل في العثور على زوجة مناسبة تجده يحافظ على ارتباطه بأصدقائه (الرَّبع) فيقضي الليل في السهر معهم ويترك زوجته تتقلب في فراشها تعاني من همومها، وإذا جاء بعد منتصف الليل رمى بنفسه على الفراش بجانبها أو في غرفة مجاورة كأنه ليس له زوجة، وتدعو زوجته الله أن يخلصها من هذه الكتلة من اللحم، ومثل هذا الرجل لا إحساس له ولا شعور عنده، وقد يأتيها كالثور الهائج من شدة السكر فيقلب المنزل رأساً على عقب، وإذا كان هناك أطفال قاموا مذعورين يشاهدون المعركة التي تنشب بين أمهم وأبيهم كلما جنَّ الليل، وهذه الحالة تؤدي إلى الطلاق إذا نفد صبر المرأة، ولها الحق أن تطلب الطلاق في مثل هذه الحالة.

وإليكم بعض الإحصائيات. نلاحظ أن الشباب المتخرجين من الإعدادي والثانوي والابتدائي هم الكثرة الغالبة للزواج، وبذلك فهم الكثرة الغالبة في الطلاق، لأن الواحد منهم لا يستطيع أن يقوم بالأسرة كما ينبغي، وتبين الإحصائيات أنه يوجد بين الشباب من سن 20 – 29، 108 حالات طلاق من 293 حالة زواج، أما المتسربون من المدارس والشابات من سن 15 - 24 فيوجد بينهم73 حالة طلاق من 190 حالة زواج، فما هو الحل الصحيح؟ هو أن تحول بين تسرب الطلاب وعدم إكمال دراستهم، ويبلغ عدد المتزوجين في الابتدائي 83 والإعدادي 159 والثانوي 250 وما دون الجامعة 12 والجامعيون



71 فالمجموع 756، ويبلغ عدد المطلقين في الابتدائي 32 والإعدادي 41 والثانوي 15 ودون الجامعة 4 والجامعة 8 فالمجموع 190 مع 24 غير مصنفين. ونلاحظ من خلال ذلك أن الشبان الأقل حظاً في التعليم هم الذين يكثر فيهم الطلاق، ولذلك يجب علينا وعلى كل المسؤولين والأجهزة أن تتكاتف وتتكامل من أجل إيقاف هذا السيل من الشباب الذين لا يكملون تعليمهم، ويجب أن يكون بين الزوجين في المنزل معاملة أساسها الاحترام المتبادل، خاصة إذا كان عندهم أطفال، فلا يتنازعان حتى لا يتأثر الأطفال بما يجري بين الزوجين فتفسد تربيتهم، وبعد ذلك يتمردون على سلطان الأبوين، إضافة إلى ما يجري من نزاع ومضاعفات بين الأسر عامة. فيسيء بعضهم استعمال الحق الذي له على زوجته في تأديبها، فيدعي أن القرآن قد أجاز له ضربها. ولتوضيح هذا الأمر نقول: إن الحالات التي يباح فيها ضرب الزوجة هي الحالات المنافية للأخلاق، مثل السماح للرجال بدخول المنزل بغير إذن الزوج، كما يدخل في ذلك شبهة الخيانة الزوجية عندما توجد الزوجة مع أجنبي ولكن لا يوجد دليل شرعي على الزنا، فهنا إما أن يطلقها الزوج أو أن يقبل باستمرار الحياة الزوجية، وله أن يضربها على هذا التصرف، وقد جاء في السنة وهي التي تفسر القرآن قوله ﷺ في حجة الوداع: (استوصوا بالنساء خيراً، فإنما هن عوان عندكم لا تملكون منهن شيئاً غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح، فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إلا أن يوطئن فروشكم من تكرهون،أو يأذنَّ في بيوتكم لمن تكرهون).

وهذا حديث صحيح ورد في صحيح مسلم وغيره من كتب السنة. والفاحشة كما قال الطبري هي المعصية. وقد نهى رسول ﷺ عن ضرب النساء في أكثر من حديث، فقال: (لا تضربوا إماء الله) و (أيضرب أحدكم امرأته كما يضرب العبد؟ !). وليس معنى ذلك أنَّه رخَّص ضرب العبد، لأنه في أحاديث أخرى نهى عن ضرب العبد والخادم.

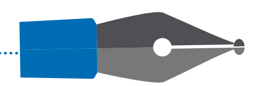
وإذا كان الإسلام قد ألغى الضرب فقد ظل سائدا في أوروبا إلى وقت قريب، فقد روى التاريخ أن الملك شارلمان انقضَّ على أخته أثناء نقاش معها، وضربها ضرباً شديداً وكسر بقفازه الحديدي ثلاثاً من أسنانها. فنطاق الضرب في الشرع إذاً محصور بين حالتين: الفاحشة المبينة أو إدخال الغير في بيت الزوجية، وفي هذا يقول الإمام

الشوكاني في (نيل الأوطار) ظاهر الحديث أنه لا يجوز الهجر في المضجع والضرب، إلا إذا آتين بفاحشة مبينة لا بسبب غير ذلك. وقد روى النسائي عن عائشة: ما ضرب رسول الله ﷺ امرأة ولا خادماً قط، فالأحاديث النبوية التي وردت في الضرب قد لخصت عموم القرآن. والضرب المرخص فيه قد وصفه النبي: « ضرباً غير مبرح » ؛أي لا يترك أثراً، كما يجب ألا يكون في الوجه، كما جاء في حديث آخر، فالصحابة رضوان الله عليهم إذا ضربوا كانوا يضربون بالسواك.

ويقول ابن كثير: (إن في القرآن تهذيباً للرجال إذا اعتدوا على النساء بغير سبب، فإن الله العليَّ الكبير وليهنَّ وينتقم ممن ظلمهنَّ وطغى عليهنَّ (فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيرا)، وقد جاء في المحلّى للإمام ابن حزم: (إذا تجاوز الزوج حد الضرب المشروع كان للزوجة حق طلب التطليق وطلب تعزير الزوج)؛ أي طلب ضربه وتأديبه بمعرفة القاضي. وقال الشيخ الدردير من فقهاء المالكية: (لا يجوز الضرب المبرح ولو علم أنها لا تترك النشوز إلا به، فإن وقع فلها التطليق عليه والقصاص).

.. والقصاص؛ أي طلب القصاص منه، وهو الوارد في قوله تعالى: (العين بالعين والسن بالسن)، قال الجصاص في أحكام القرآن: (والضرب غير المبرح بالسياط ونحوه فما عداه فهو ممنوع شرعاً)، ومن أسباب الطلاق: المظاهر والتنافس فيها. وهذه في الواقع نتيجة التخلف الفكري عند بعض الناس، وكل واحد ينظر إلى من فوقه في الثروة، ولا ينظر إلى من دونه، ويعتقد أنه يرفع من مكانته إذا تشبه بالطبقة العليا في المجتمع، فالمرأة تريد أن يكون لها من الذهب ما لا يكون عند غيرها من نظائرها، ولا تراعي حالة زوجها المادية، وتريد أثاث المنزل من أرقى المحلات، حتى تغرق زوجها في الديون، بل يجاريها الزوج في ذلك، ولكن عندما لا يجد سبيلاً لتحقيق ما اعتادت منه الزوجة يدب بينهما الخلاف ويتطور، حتى ينتهي إلى الطلاق.

ويجب أن تدرك المرأة المتعلمة أنه لا بد من التواضع مع الزوج، فلا تغتر بثقافتها حفاظاً على العلاقة الطيبة مع زوجها، وتقول الكاتبة «جارمين روبي» في كتابها (مشاكل المرأة): (كلما تحضرت المرأة اعتقدت أنها أصبحت راقية لا تستسلم في محيط الزوجية بالإذعان للزوج إلا بعد مناقشة طويلة في كل الأمور، وهذا ليس من النضج العقلي، وهو السبب في تصدع الأسرة).



ومـن المؤسـف أنـه لا يوجـد في مجتمعاتنـا اليـوم الرجـال الصالحـون الذيـن يتدخلـون لإزالـة الشـقاق، وهـو بعـث الحكـم المذكـور بقولـه تعـالى :(وإن خفتـم شـقاق بينهـما فابعثـوا حكـماً مـن أهلـه وحكـماً مـن أهلهـا إن يريـدا إصلاحـاً يوفـق اللـه بينهـما، إنَّ اللـه كان عليـماً خبـيرا).

فـلا نـرى اليـوم إلا الذيـن يؤيـدون الفتنـة، وإذا حصـل نـزاع بـين الزوجـين انقسـم الأهـل إلى طرفـين متحاربـين يزيـدون النـار اشـتعالاً، وينتـصر كل طـرف للجانـب الآخـر بالحـق وبالباطـل، ولـو اتبـع النـاس المنهـج الإلهـي الإسـلامي في معالجـة الخلافـات، مـا كانـت لتتطـور إلى النهايـة المؤسـفة التـي تحطـم البيـوت وتـشرد الأطفـال.

إن كثـيراً مـن الأحـداث الذيـن يُتَّهمـون بحـوادث السرقـة وغيرهـا مـن الجرائـم، تجدهـم أبنـاء مطلقـات وقـد حرمـوا الرعايـة والتربيـة، فوالدهـم قـد ارتبـط بزوجـة أخـرى، ووالدتهـم ارتبطـت بـزوج آخـر، وبقـي الأولاد تـارة هنـا وتـارة هنـاك، ولم يجـدوا اهتمامـاً لا مـن الأب ولا مـن الأم، وضاعـوا مـع الضائعـين الذيـن يرتكبـون جرائـم السرقـات والمخـدرات والمسـكرات.

وقـد رأيـت في الكويـت مبـادرة جديـر بنـا أن نحـذو حذوهـا، فقـد رأوا أنـه لا يوجـد الرجـال الذيـن يصلحـون محكمـين، فأقامـوا مكتبـاً للبحـث الاجتماعـي في المحكمـة يسـاعد عـلى حـل القضايـا الزوجيـة، يتعـاون مـع القـاضي عـلى حلهـا، ونجـح هـذا المكتـب، ونأمـل أن يطبـق هـذا الأمـر عندنـا.

ويـرى بعـض النـاس أن العيـب في نظـام الطـلاق نفسـه، إذ إنَّ الرجـل بمجـرد كلمـة يفـارق زوجتـه ولا يجـد سـبيلاً إلى إرجاعهـا، وبعضهـم يقـول إن منـع الطـلاق عنـد غـير المسـلمين هـو الأصـح، ولـو يقلـد المسـلمون غيرهـم في ذلـك لـكان خـيراً لهـم. وللـرد عـلى ذلـك نقـول: إن هنـاك قاعـدة في الإسـلام يمكـن أن نسـميها القاعـدة الذهبيـة للعلاقـات الأسريـة، وهـي الـواردة في قولـه تعـالى: (فإمسـاك بمعـروف أو تسريـح بإحسـان).

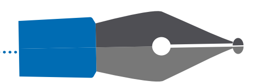
ليـس هنـاك قـسر ولا إكـراه في الإسـلام، بـل هنـاك مـودة ومعـروف، فهـو يهتـف بالرجـل أولاً ويرشـده إلى التريـث والتـأني والمصابـرة في حالـة الكراهيـة، قـال تعالى:(وعاشروهـن بالمعـروف فـإن كرهتموهـن فعـسى أن تكرهـوا شـيئاً ويجعـل اللـه فيـه خـيراً كثـيرا). إنـه يسـتثير الوجـدان ويـروض الفكـرة، واذا أراد أن يطلـق فليـس في كل لحظـة يجـوز لـه الطـلاق، والحـل الـذي يجـب أن يصـار إليـه أنـه لا عـبرة إلا بالطـلاق الشرعـي، وهـو أن كل طـلاق يصـدره الرجـل بمفـرده بعـد دخولـه بالمـرأة لا يكـون إلا رجعيـاً مـا دام في المـرة الأولى

أو في الثانيـة، وأن يكـون حـدوث الطـلاق في حـال طهـر الزوجـة لا في حـال حيضهـا، وأن يكـون هـذا الطهـر لم يدخـل بهـا فيـه، فهـذا هـو الطـلاق المـشروع الـذي جـاء بـه القـرآن وجـاءت بـه السـنة النبويـة المطهـرة.

فـلا يصـح طـلاق لم يشرعـه اللـه ولم يـأذن بـه. وإذا أردنـا أن نعـرف وجـه الحـق في هـذه المسـألة فعلينـا أن نتأمـل آيـات الطـلاق في القـرآن ونتأمـل الأحاديـث التـي جـاءت في الطـلاق، بعيـداً عـن أي تأثـر بالتقليـد الأعمـى الـذي درجنـا عليـه، وأن نضـع نصـب أعيننـا حكمـة التشريـع الإلهـي في أحـكام الـزواج والطـلاق والعـدة، ولا ننسـاق وراء مـا يقـرره الفقهـاء مـن إعطـاء الألفـاظ المجـردة أحكامـاً بعيـدة عـن حكمـة التشريـع، ممـا يمكـن أن يعتـبره كل عاقـل تلاعبـاً واسـتهزاءً بآيـات اللـه، فاللـه سـبحانه وتعـالى قـد جعـل للطـلاق عـدة، وجعـل العـدة بـراءة للرحـم وفرصـة لعـودَة الزوجـين إلى تـلافي الأمـر، ليدفـع الـضرر الـذي يترتـب عـلى الطـلاق ومـا يجـره للزوجـين مـن مشـكلات في مسـتقبل حياتهـما، وقـد يتجاوزهـما هـذا الـضرر إلى أطفـال صغـار لا حـول لهـم ولا قـوة.

إذاً لا يكـون الطـلاق إلا بعـد تفكـير ورويـة، فيصـدر عـن سـبب صحيـح، فالآيـات القرآنيـة صريحـة في أن الطـلاق يجـب فيـه التـأني، وأن المطلقـة يجـب أن تعتـدَّ في بيـت الزوجيـة ولا تخـرج منـه، لأنـه قـد يعـود الصفـاء بـين الزوجـين (لاتـدري لعـل اللـه يحـدث بعـد ذلـك أمـرا)، فـاذا انتهـت العـدة فإمـا أن يمسـك الرجـل مطلقتـه؛ أي يعيدهـا إليـه كزوجـة، وإمـا أن يفارقهـا، يقـول اللـه تعـالى: (الطـلاق مرتـان فإمسـاك بمعـروف أو تسريـح بإحسـان)، ثـم يقـول بعـد ذلـك (فـإن طلقهـا) أي المرحلـة الثالثـة (فـلا تحـل لـه مـن بعـد حتـى تنكـح زوجـاً غـيره).

الطـلاق لا يكـون إلا عـلى مراحـل، ويقـول تعـالى: (يأيهـا النبـي إذا طلقتـم النسـاء فطلقوهـن لعدتهـن وأحصـوا العـدة واتقـوا اللـه ربكـم لا تخرجوهـن مـن بيوتهـن ولا يخرجـن إلا أن يأتـين بفاحشـة مبينـة وتلـك حـدود اللـه ومـن يتعـدَّ حـدود اللـه فقـد ظلـم نفسـه لا تـدري لعـل اللـه يحـدث بعـد ذلـك أمـرا). فمـن لم يتمسـك بهـذه الحـدود فقـد ظلـم نفسـه وعرضهـا لعقـاب اللـه. وأريـد أن تتابعـوا معـي آيـات الطـلاق، فاللـه سـبحانه وتعـالى جعـل في القـرآن سـورة اسـمها الطـلاق، وأحـكام الطـلاق شـملت آيـات أخـرى في القـرآن، ومـا ذلـك إلا لأهميـة هـذا الحكـم الـذي اسـتخف بـه النـاس اليـوم. لاحِظـوا في موضـع الطـلاق قولـه تعـالى: (لعـل اللـه يحـدث بعـد ذلـك أمـرا)، وقـد قـال: (فـإذا بلغـن



أجلهـن فأمسـكوهن بمعـروف أو فارقوهـن بمعـروف وأشـهدوا ذوي عـدل منكـم وأقيمـوا الشـهادة للـه ذلكـم يوعـظ بـه مـن كان يؤمـن باللـه واليـوم الآخـر ومـن يتـق اللـه يجعـل لـه مخرجـا).

فمـن يتـق اللـه في الطـلاق، يتـق اللـه في الـزواج وفي كل شيء يبـاشره، وفي كل تـصرف يعملـه، ثـم يقـول تعـالى: (ويرزقـه مـن حيـث لا يحتسـب ومـن يتـوكل عـلى اللـه فهـو حسـبه إن اللـه بالـغ أمـره قـد جعـل اللـه لـكل شيء قـدرا)، هـذا مـا يـورده اللـه بمناسـبة الطـلاق، لأنـه أمـر مهـم جـداً. ويقـول تعـالى: (واللائى يئسـن مـن المحيـض مـن نسـائكم إن ارتبتـم فعدتهـن ثلاثـة أشـهر واللائى لم يحضـن وأولات الأحـمال أجلهـن أن يضعـن حملهـن ومـن يتـق اللـه يجعـل لـه مـن أمـره يـسرا).

فليفكـر المؤمـن في هـذه الآيـات التـي يقـول فيهـا تعـالى أيضـاً: (ذلـك أمـر اللـه أنزلـه إليكـم ومـن يتـق اللـه يكفـر عنـه سـيئاته ويعظـم لـه أجـراً، أسـكنوهن مـن حيـث سـكنتم مـن وجدكـم ولا تضاروهـن لتضيقـوا عليهـن وإن كـن أولات حمـل فأنفقـوا عليهـن حتـى يضعـن حملهـن فـإن أرضعـن لكـم فآتوهـن أجورهـن وأتمـروا بينكـم بمعـروف وإن تعاسرتـم فسـترضع لـه أخـرى لينفـق ذو سـعة مـن سـعته ومـن قـدر عليـه رزقـه فلينفـق مـما آتـاه اللـه لا يكلـف اللـه نفسـاً إلا مـا آتاهـا سـيجعل اللـه بعـد عـسر يـسرا). ثـم عقـب تعـالى عـلى آيـات الطـلاق فقـال: (وكأيـن مـن قريـة عتـت عـن أمـر ربهـا ورسـله فحاسـبناها حسـاباً شـديداً وعذبناهـا عذابـاً نكـراً فذاقـت وبـال أمرهـا وكان عاقبـة أمرهـا خـسرا).

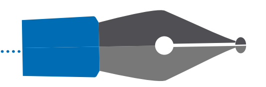
هــذه آيـات عامـة وردت بعـد آيـات الطـلاق التــي هــي مـن أمـر اللــه، فمـن خالفهـا فهـو عـادٍ وهـو عـاصٍ ومجـرم، وإني أقـول بـكل فخـر واعتـزاز إن القضـاء الشرعـي في قطـر قـد أنهـى الجـدل الفقهـي العقيـم الـذي لا زال قائمـاً في أكـثر البـلاد الإسـلامية، وألغـى الطـلاق البدعـي، ولم يعـد يعـترف إلا بالطـلاق الشرعـي المسـتند إلى الكتـاب والسـنة، واتخـذ الإجـراءات الإداريـة التـي تعطـي الفرصـة لأن تعـود الأمـور إلى مجـال الحيـاة الزوجيـة بـين الرجـل والمـرأة، فلـم يعـد الطـلاق ماثـلاً في مجـرد كلمـة يقولهـا الرجـل الـذي لم يعـد يسـتطيع إجـراءه كـما شـاء، بـل يجـب أن يكـون حسـب مـا أمـر بـه اللـه وأمـر بـه الرسـول ﷺ ،فـلا يقـع الطـلاق الثـلاث بلفـظ واحـد، ولا يقـع الطـلاق أثنـاء الحيـض. ونحـن في ذلـك متبعـون لا مبتدعـون، متبعـون لكتـاب اللـه وسـنة محمـد بـن عبـد اللـه ﷺ أمـا أخطـاء النـاس وعيوبهـم وانحرافاتهـم



فتلك مسؤولية كل الأجهزة التي عليها أن تتعاون لدراسة كل العلل والمشكلات ووضع الحلول المناسبة لها.

الطلاق في أوروبا:

أما الذين يقولون بمنع الطلاق نهائياً كالمسيحيين، الذين لا يجوز الطلاق عندهم، والمقصود هنا بعض الناس الذين يعيبون الطلاق في الإسلام، ويطعنون فيه ويشيدون بالطلاق في المسيحية التي لا تجيز الطلاق إلا في حالة الخيانة الزوجية، اعتماداً على ماجاء في الإنجيل: أن المسيح سئل: هل للرجل أن يطلق امرأته لكل سبب؟ فأجاب: إن الذي جمعه الله لا يفرقه الإنسان. وقد تعالت الأصوات في الغرب لتعديل نظام الطلاق والمطالبة بالسماح به. وبعد صدور قانون في إيطاليا يبيح الطلاق في حالات معينة، تقدم مليون شخص يطلبون الطلاق بالرغم من كل التعقيدات التي رافقت التعديل، ومن ذلك جواز الطلاق إذا عاش الزوجان خمس سنوات منفصلين واتفقا على الطلاق، وإذا حكم على أحد الزوجين بالسجن مدة خمس عشرة سنة. ومن نوادر الطلاق في إيطاليا، أن شخصاً تقدم إلى إحدى المحاكم طالباً الطلاق، وقد ألزمته زوجته بذلك، وجاء في مذكرتهما أنهما لم يتبادلا الحديث منذ عشر سنوات مع أنهما يعيشان في بيت واحد. وقالا إنهما لا يحتملان الصمت أكثر من ذلك، فرفضت المحكمة



الطلاق، لأن السبب لا ينص عليه القانون. فعلقت الصحف البريطانية على ذلك بأن المحكمة أصدرت حكماً بالشقاء المؤبد، وكان على الزوجة أن تفعل مثل الإنجليزيات حيث تصطحب الواحدة شاباً إلى إحدى غرف الفنادق ويخلعان ملابسهما، ويبلِّغ الزوج وكالة المخبرين الخصوصيين لضبط حالة تلبس بالخيانة الزوجية، لتقدم إلى المحكمة كدليل على الحق في الطلاق، وإذا رفضت الزوجة هذا الاسلوب فقد حكم عليها بالشقاء المؤبد.

وفي جريدة الأخبار المصرية بتاريخ 20/5/56 حكمت محكمة ابتدائية في قضية طلاق، طلب الزوج فيها أن يطلق زوجته لأنها تركته منذ سبع سنوات، وأخذت معها الأولاد، وأهانته واعتدت عليه، وبالتالي لا جدوى من الحياة معها، لأن الكراهية استبدت بها، وبما أن الزوج مسيحي فقد كان حكم المحكمة رفض الطلاق، لأن أحكام الإنجيل لا تنص على مثل هذه الحالة، ولا اجتهاد مع نص صريح.

وجاء في الأهرام بتاريخ 1/3/56 أنَّ زوجة طلبت الطلاق من زوجها ولم تتمكن من تنفيذ حكم النفقةِ عليه؛ إذ ليس أمامها أموال ظاهرة له، وهي تخشى الزنا، فكان حكم المحكمة أن إنجيل متى (16-13) يقضي بأن ما جمعه الله لا يفرقه انسان، وعليه فلا يجب الحكم بالطلاق، لا نفقة ولا طلاق.

وقصة (إدوارد الثالث) مشهورة في التاريخ، فعندما أراد أن يتزوج صديقته بعد أن طلقها زوجها اعترضت الكنيسة، لأنه يريد الزواج من مطلقة، والمطلقة لا يجوز الزواج منها حسب تعاليم الكنيسة. وكذلك الأميرة (مارغريت) وقصتها مشهورة، رفضت الكنيسة رغبتها في الزواج من حبيبها لأنه مطلق، فالكنيسة تحرم على المطلق والمطلقة الزواج، وهم يعتقدون أن المطلق يزني، وقد خالفوا الإنجيل وكل الأديان.

أما الإسلام فقد أعطى كلاً من الرجل والمرأة حقه في الطلاق، وعلى الرجل شرعاً عدم إفشاء سر المرأة، ففي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: (أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته.. وتفضي إليه ثم يفشي سرها).

خاتمة:

وبعد، فإن المجتمع القطري ليس فيه شيء غير عادي، ولا يختلف عن المجتمعات الخليجية من حيث تعرضه للتحول الاقتصادي والثقافي السريع مع الثروة البترولية. وطبيعة هذه التحولات تكون فيها السلبيات والتغيرات، ثم تستقر بعد ذلك الأحوال على وضع معين، إما صحيح إما غير صحيح، وهذا يتوقف على مدى اهتمام المسؤولين وحرصهم على التوجيه في اتخاذ القرار، حتى ترسو السفينة على بر الأمان، وحتى يكون الطلاق على أسس ثابتة وسليمة.

لذلك، فإن هذه الفترة صعبة في حياة هذه الشعوب. ومن ناحية تصرف الأسر وزيادة الطلاق وانحراف الشباب، فيجب تكاتف الجهود لوضع خطط سليمة للمستقبل والقضاء على السلبيات، فيجب أن تكون هناك خطط لحفظ الأسر من التصدع، والشباب من الانحراف؛ خطط لحفظ الأخلاق، يشترك فيها كل أهل الاختصاص، ولا تنفرد بها جهة واحدة، وتكون هذه الخطط مثل تخطيط الدول للاقتصاد والثقافة والعمران، وبهذا نستطيع أن نتغلب على كل المشكلات ونحفظ الأوطان من السقوط.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

محاضرة

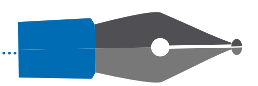
شبابنا والنشاط الثقافي



للدكتور:

عبد العزيـز المغيصيب

أ. مساعد بجامعـة قطر



بسم الله الرحمن الرحيم

وصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، القائل :

« اللَّهُمَّ انْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَعَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا إِلَى عِلْمِنَا».

لا يسعني في بداية حديثي إلا أن اتوجه بالشكر للإخوه المسؤولين في المجلس الأعلى لرعاية الشباب على هذه الدعوة الكريمة للمشاركة في نشاط المجلس الثقافي، وأيضاً للمشاركة في العام الدولي للشباب، ولنادي الجسرة الثقافي الاجتماعي، وما يقدمه من الإمكانيات والتسهيلات لإنجاح هذه المجهودات الثقافية. وهذه لفتة كريمة، تحمل معاني في نفسي وتحمل معاني في نفس كثير من الإخوان القطريين، وأخص بالذكر من يتطلع إليهم في هذا المجتمع، وأقصد من يتولون أعمال الريادة والقيادة.

واسمحوا لي أن أوجه كلمة للأخ الذي وجه الدعوة إلى أعضاء هيئة التدريس القطريين في الجامعة، فهذا الأخ وجه دعوة وتساءل: لماذا لا يشارك أعضاء هيئة التدريس في النشاطات؟ ولماذا لا يساهمون بالكتابه أو غير ذلك من النشاطات التي من المفروض أن يشاركوا فيها؟ وكان حديثه موضع نقاش، ووجدت من قبل جميع الاخوان أن الاستعداد موجود، ولكن قد لا يكون الحماس موجوداً لأسباب وأسباب، ومع هذا فإننا نعد باسمي وباسم جميع الإخوان أعضاء هيئة التدريس القطريين، أننا مستعدون للمشاركة في أي جهد، وفي أي نشاط يطلب منا في أي وقت، وفي أي مكان، وبقدر المستطاع وبقدر الوقت المتاح.

كانت دعوة كريمة من الإخوان لمناقشة بعض شؤون الشباب، واقترح الإخوان أنْ نناقش موضوعاً جديراً بالمناقشه، وهو موضوع الشباب والأنشطة الثقافية. وقضية النشاط الثقافي قضية مزمنة مستمرة، ليس في قطر فحسب، ولكن في جميع البلاد العربية، ولا أدري لماذا تكنُّ هذه الأجيال بالذات هذا العداء لشيء اسمه الثقافة. بل لقد سمعنا قبل سنة تقريباً ما جرى لمن دعا ليتثقف الناس وكتب مقالة بعنوان :» أهمية أن يتثقف الناس « فلاقى من الهجوم من المسؤولين ما لاقى. هذا لم يحدث في قطر ولكن في بلد عربي، وقد سمعت أنَّ هذا الشخص سيحضر ويلقي محاضرة في قطر خلال أسبوعين إن شاء الله، وهو الدكتور يوسف إدريس.

قبل أن أبدأ أقول: لماذا الشباب؟ ولماذا هذا الاهتمام بالشباب؟ ولماذا اختير عام الشباب؟ ولماذا نحتفل بالشباب؟ ولماذا نريد من الشباب أن يقوموا بكذا وكذا؟ والإجابة عن هذه الأسئلة ليست صعبة، ذلك أن الشباب هم شريان الأمة المتدفق وهذا واقع، وهم الطاقة التي لا تنضب، وهم المعتمد الأساسي الذي تعتمد عليه الأمة في صنع الغد



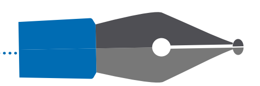
المشرق، وهم أمل اليوم ومعالم الغد، وهم أفضل الأسلحة في صراعنا المصيري من أجل الخروج من كهوف الجهل، والتخلف، لصنع المستقبل الخلاق.

إنَّ الدول النامية خاصة، صغيرها وكبيرها تعطي للشباب ما عندها، ليجئ اليوم الذي يعطي فيه الشباب بالمقابل لأمته وللإنسانية كلها طاقات عمله وفكره. ويوم يتحقق هذا البذل من الشباب عن وعي وصدق وفهم للأمور والأوضاع بداخل بلاده وخارجها، فإن البلاد لا بد وأن تجني ثمرة طيبة وشهية، فالأمة بشبابها، وهذا مصدر اهتمامنا بالشباب، فنحن كمجتمعات وبلاد نامية في نهضتنا اليوم إنما نعتمد على وثبة الشباب المؤمن والمنتج والواعي والمسؤول، ولكن إذا صُرِف هذا الشباب على واجباته وتلهّى بالمظاهر السطحية للمدنية، فكما يقول الدكتور / طه حسين « الويل لهذا الشباب، والويل لأمة لا يهتم شبابها إلا بالمعيشة والرفاهية ضارباً عرض الحائط بما تقتضيه الحضارة الإنسانية الصحيحة من جهة، وتضحية وإيثار وشجاعة ».

إن مرحلة الشباب لها تعريف يحددها بأنها الفترة بين الخمس عشرة سنة وخمس وعشرين سنة، وذلك انسجاماً مع المفهوم الدولي المتفق عليه في هذا الشأن.

ولكني أرى أن الشباب هو الحياة المتجددة، والموقف الإيجابي من الناس والمجتمع والوطن والإنسانية جمعاء. الشباب كما أعتقد هو العطاء المستمر والحيوية المتدفقة، وما دام الإنسان قادراً على الإنتاج والعطاء فهو شاب ولا يزال في قمة شبابه وحيويته.

إنَّ مرحلة الشباب هي مرحلة البلوغ العقلي والهدوء النفسي ومرحلة الإعداد لتحمل المسؤولية للجيل الجديد، والحفاظ على استمرارية حياة المجتمع. وعليه فإنَّ الجيل الحاضر هو المسؤول عن جيل الشباب القادم؛ هذا الجيل الذي سيواجه القرن



الواحـد والعشريـن بـكل مـا يحملـه مـن تحديـات كبـيرة. وإذا كان هــذا دور الشــباب دور البـذل والعطـاء ودور دفـع عجلـة التقـدم والتطـور والتنميـة إلى الأمـام، ودور المحافظـة عـلى اسـتمرارية الحيـاة في المجتمـع، فـإن البحـث الدائـم فيـما يواجـه الشـباب مـن مشـكلات، والبحـث عـن أفضـل الطـرق لرعايتهـم وإعدادهـم، يعتـبر مـن أهـم الأمـور، خاصـة في بلـدان العـالم الناميـة. إن جيـل الشـباب يعـاني ولا شـك حالـة مـن التخلـف العلمـي والثقـافي في عـصر يتميـز بالانفجـار الهائـل، والمعرفـة المسـتمرة، ويعيـش في حالـة مـن التخبـط والعشـوائية والتذبـذب مـن دون أن يتحصـن بمبـادىء أو فلسـفه ثابتـه يحصـن بهـا نفسـه، ويسـعى عـن طريـق منهـج سـليم سـويٍّ إلى تحقيقهـا.

ومـن المعـروف أن المبـادىء النـيرة القويمـة تسـاعد الفـرد عـلى ثبـوت سـلوكه واسـتقراره واتجاهـه نحـو تحقيـق الأهـداف المرجـوة.

إن مشـكلة شـبابنا مـع الإمكانيـات الكثـيرة التـي وضعـت في خدمتـه، تكمـن في طريقـة تربيتـه وتثقيفـه، وإنَّ خلـق الشـخصية المتكاملـة جسـمياً ونفسـياً وخلقيـاً وعقليـاً وروحيـاً ومهنيـاً لا يمكـن أن يوجـد إلا مـن خـلال إيجـاد نـوع مـن التـوازن بـين مـا يتعلمـه الفـرد في حياتـه، والناحيـة التطبيقيـة؛ أي أن يتعلـم ليطبـق مـا تعلمـه، وهـذه هـي الحلقـة المفقـودة تقريبـاً في تعليـم شـبابنا.

فإعـداد الشـخصية المثقفـة المنتجـة أصبـح الهـدف الرئيـس للتربيـة الحديثـة. وأهـم ركائـز الشـخصية المنتجـة المثقفـة هـو مـا يعـرف في التربيـة الحديثـة بالفطـام التعليمـي، وهـي كلمـة قـد تبـدو غريبـة للبعـض منكـم، والمقصـود بالفطـام التعليمـي، أن نعلِّـم الفـرد وأن نتيـح لـه قـدراً مـن الاسـتقلال الـكافي ليطبـق مـا تعلمـه، فيرسـخ هـذا الـشيء في ذهنـه وينتفـع منـه في حياتـه.

ومـن هنـا فـإنَّ التربيـة الحديثـة تعمـل عـلى دفـع النـشء للاسـتفادة مـن وقـت الفـراغ في التثقيـف الحـر الهـادف، البعيـد عـن قيـود المدرسـة وضوابطهـا، بـل ويعتـبر بعـض المربـين أنَّ هـذا النـوع مـن التثقيف،الـذي يطلـق عليـه التثقيـف الـذاتي، أجـدى في كثـير مـن الأحيـان مـن حيـث رسـوخه في نفـس الفـرد وتمثلـه بـه.

ومـن هنـا رأينـا المـدارس والمؤسسـات العلميـة المختلفـة في كثـير مـن الـدول المتقدمـة والمتحـضرة تعمـل بقـدر الإمـكان عـلى مـد الجسـور مـع الأنديـة والمؤسسـات الرياضيـة والعلميـة والاجتماعيـة الأخـرى في المجتمـع، لتضمـن لشـبابها وطلابهـا أقـصى مـا تسـتطيع مـن فـرص الاسـتفاده مـن أوقـات الفـراغ، واسـتثمار ذلـك فيـما يعـود عـلى الفـرد والمجتمـع بشـكل عـام بالفائـدة المرجـوة.

إنَّ الشـخص المثقـف وليـس المتعلـم أصبـح الهـدف الرئيـسي والمقصـد الأسـاسي مـن عمليـة

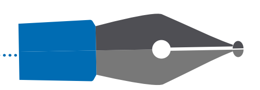
التربية في المجتمعات المتحضرة. والفرق بين المعنيين كبير، وإنْ كان لا يبدو كذلك للبعض، خاصة وأن المجتمعات النامية لا تهتم بالقدرات والمواهب بقدر اهتمامها بالشهادات الدراسية. فالشخص المتعلم هو الشخص غير الأمي، أو الشخص القادر على فك الخط، أو من حصل على شهادة تعليمية. أما الشخص المثقف فمفهومه أوسع وأشمل؛ إنه الشخص الذي تعلم وعرف كيف يستفيد مما تعلم من التوافق مع نفسه ومجتمعه ومحيطه، وهذا هو الفرق بين الاثنين. فالشخص المثقف، يعتبر إنساناً عالمياً. ويعرف الإنسان العالمي بأنه الشخص المتكامل - والكمال لله طبعاً - الشخص الذي تتعدد وجوه نمائه وتتكامل ويتوحد لديه العمل واللهو والتعلم، كما يندمج أيضاً عمل اليد وعمل الفكر لديه، وتتآلف لديه كذلك قوى التنفيذ والتجريب والابتكار عنده، فهو إنسان حر نسيج وحدة نفسية، وعضو في الجماعة يستقي حريته من انتفاء الأهواء والمصالح الفردية الضيقة في علاقاته الاجتماعية والإنتاجية، ومن إدراكه الكامل لهذه العلاقات وإسهامه في تحقيق أغراضها، ومن وقوفه على قدم المساواة الكاملة مع غيره من بني البشر على الصعيد الاجتماعي.

مفهوم الثقافة

تعرف الثقافة بأنها المعايير والقيم وشتى أنواع الثقافة والاتجاهات المرغوب فيها، التي تنقلها الأجيال من جيل إلى آخر. كما أصبح للثقافة مفهوم آخر؛ هو الخبرة التي تؤهل الإنسان ليحيا حياة إنسانية حقيقية، تحرره وتجعله قادراً على تغيير الإطار الاجتماعي الذي يعيش فيه.

وتمتد وسائل الثقافة وتنتشر لتشمل بعداً أكبر لما يتعلمه الفرد في المدرسة، فالقراءة الحرة وسيلة ثقافة، والبرنامج التعليمي وسيلة ثقافة، والسمر المفيد وسيلة ثقافة، وحضور المناقشات والندوات في الأندية والمساجد وغير ذلك وسائل ثقافة، فأين الشباب من ذلك؟ وكم من شبابنا يحضر الندوات والمحاضرات؟ وكم من شبابنا يزور مصنعاً أو متحفاً إذا سافر إلى بلد ما؟ وكم عدد البرامج الثقافية والعلمية التي يشاهدها الشباب إذا قورن بما يشاهده بعدد الأفلام والمسرحيات والمسلسلات؟ ولماذا لا يقرأ الشباب، وإذا قرأ فلماذا لا يستفيد مما قرأ؟

إنَّ الشباب متهم بالفراغ العلمي وبضحالة التفكير، وهي تهمة قد نتفق عليها جميعاً، ولكن قبل أن نعرف موطن الداء والأسباب التي أدت إلى أن يتخذ شبابنا هذا الموقف السلبي وغير المبالي من الثقافة، والأسباب متعددة وكثيرة، في اعتقادي أنَّ المجتمع يتحمل الجزء الأكبر من هذه التهمة، بينما يتحمل الشباب فقط الجزء البسيط.



أسباب عزوف الشباب عن الثقافة

أقول لكم ما هي أسباب عزوف الشباب عن المشاركة في الثقافة أو في النشاطات الثقافية، وأنا أركز على هذه الأسباب، لأنه إذا عرف الداء وصف الدواء. السبب الرئيس في اعتقادي هو عدم معرفة المجتمع نفسه لقيمة الثقافة الحقيقية ودورها الكبير في إعداد الفرد، وبهذا أكتفي بأن أسوق إليكم ما ذكره الدكتور علي الراعي في أحد أعداد مجلة الأمة التي تصدر في قطر، يقول الدكتور الراعي:

(ما تزال الثقافة في مجتمعنا تقبع في وضع ذليل، وتتوالى عليها المواقف الضارة واحداً بعد الآخر، فالبعض ينظر إليها على أنها ترف وتزين يمكن الاستغناء عنهما، وبعضهم يراها سلعة بائرة لا تعطي إيراداً مقابل ما يبذل لها من مال، وبالرغم من أنَّ البعض يعرّفُها على حقيقتها صانعة للروح، ومبدعة للعقل، وحافظة للرغبة في سبيل التغيير، إلا أنهم يقفون منها موقفاً عدائياً، ويحاربون أصحابها بشتى السبل تحت شعار عُقد المثقفين، وأحياناً أخرى بأن أبناء المجتمع العربي المعاصر يحتاجون إلى الأمن قبل الرأي، ومن ثم ارتفع شعار أهل الثقة وليس أهل الخبرة، هذا الشعار قد حجب عن المجتمع العربي خيرة العقول، ودفع بها إلى الهجرة وإلى السفر والتغرب).

ويضيف الراعي:

(أما ثاني العوامل فيأتي من الأسرة؛ أي أن السبب الثاني هو عدم تشجيع الأسرة للنشء وتعويده منذ نعومة أظافره على الإقبال على روافد المعرفة وحب الاطلاع والثقافة. كما نعلم جميعاً إذا شجع الفرد على ارتياد مناهلها منذ الصغر، شعر بعد ذلك بالغبطة والمتعة في تتبع كل جديد فيها مستقبلاً).

وفي هذا يقول أحمد أمين في كتابه المعروف (حياتي): (المادة لا تفنى، وكذلك المعاني والعواطف والمشاعر والأفكار والأخيلة، إنها تبقى أبداً تعمل عملها، فكل ما يلقاه الإنسان من يوم ولادته، وكل ما يلقاه في حياته يستقر في قرارة نفسه ويسكن في أعماق حسه، سواء في ذلك ما ذكر وما نسي، وما لذ له وما آلم، فهجرة الأب والأم يتلقاها، وأحداث السرور والألم تتعاقب عليه، كل ذلك يتراكم ويتجمّع ويختلط ويمتزج ويتفاعل، ثم يكون هذا المزج وهذا التفاعل أساساً لكل ما يصدر عن هذا الإنسان من أعمال نبيلة أو خسيسة).

إذن فنوعية ما تلقاه من ثقافه مهم جداً في تكوين شخصية الفرد وفي سلوكه في المستقبل. يقول أحمد أمين متمماً:

« وكل ذلك أيضاً هو السبب في أنْ يكون الرجل عظيماً أو حقيراً، قيماً أو تافهاً، فكل

ما يحيط بنا من أحداث في الحياة وكل خبراتنا وتجاربنا، وكل ما تتلقاه حواسنا يدور في خلدنا ويكوّن شخصياتنا ».

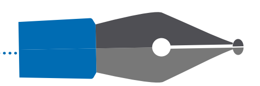
ثالثاً: التغرب وعدم وضوح الهوية، والشك في أصالة الثقافة العربية عند الشباب.

وهذا أيضاً سبب من أسباب الابتعاد أو النفور من كل ما له علاقة بالثقافة من قبل الشباب، وقد ساهمت في نفور شبابنا من ثقافتنا، وهذا شيء لا بد من أنْ نعترف به. لقد ساهمت في كل ذلك ظروف الركود الطويلة التي مرت بها أمتنا، والتي كانت نتيجتها فقدان الحضارة العربية لميزاتها الإبداعية الخلاقة، فأصبحت مجتمعاتنا مجتمعات مقلدة غير مبدعة، ليس لها خصائص تتطور مع الزمن، وتواكب التاريخ لتوجد المجتمع الحديث الواعي المدرك لمسؤولياته تجاه نفسه وتجاه مجتمعه، والمتصل اتصالاً وثيقاً ومباشراً بمعتقداته الدينية وتراثه الحضاري. وعندما بدأنا النهوض، واجهتنا التحديات العالمية، وعملت على تمزيقنا وتشتيتنا، فأصبحنا فرقاً وشيعاً وانقسم الفرد على ذاته، فهو مقسم بين نفسه وبين غيره، وهو في جزء من نفسه مع نفسه ومع بعضها ضد نفسه، وانعكس كل ذلك على أوضاعنا الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، الأمر الذي انعكس بدوره على فكر الشباب، فأصبح في حيرة من أمره. يدخل مدرسته أو مسجده فيسمع الآية الكريمة تقول: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا)، وينظر حوله فيجد دولة إسلامية تقاتل دولة إسلامية من دون أسباب واضحة أو حتى مذكورة، يذهب لمدرسته ليتعلم فضائل الأدب والعلم ويعود إلى بيته ويفتح الفيديو فيرى شيئاً مناقضاً تماماً وبرضاء أهله، يسمع بالحديث الشريف: (إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه)، ويسمع مع ذلك بمن يطلب مئات الآلاف من الريالات كمهر وتكاليف للزواج.

جملة من المتناقضات يعيشها شبابنا، زرعها غيرنا بقصد القضاء على شخصيتنا الثقافية والروحية وعلى حضارتنا، وقُمنا بتبنيها بغير قصد، ولم ندرك أن الهدف من ذلك هو تفريق المواطن العربي وتغريبه عن ثقافته، وبالتالي القضاء على وحدة الأمة بالكامل.

المدرسة

إننا في مناهجنا وطرق تدريسنا لم نمزج أبداً بين التعليم والثقافة، مما أدى إلى تخرج كم كبير متعلم ولكنه غير مثقف. فالثقافة كما قلت أوسع من التعليم، وليس كل متعلم مثقف بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة. إنما الرجل المثقف هو الذي يهَيء طبعه وعقله لصقل المعرفة، ويعمل على تطبيق كل ما تعلمه.



ولقد أدى فصل الثقافة عن التعليم إلى تخلف اجتماعي وإلى بطء في الإنتاج، وإلى تعثر كبير نحو التقدم، وإلا فكيف نفسر هذا العبث بالنظافة من قبل طلاب المدارس، من قبل المعلمين، ومن قبل المثقفين إن جاز لنا أن نطلق على هؤلاء المتعلمين لفظ مثقفين؟ وكيف لنا أن نفسر تجاهل لوائح النظام والمرور وغير ذلك بالرغم من أن في اتباعها ما هو في صالحنا وصالح المجتمع؟ هذا كله يعني أننا نتعلم شيئاً ونطبق شيئاً؛ أي لا نربط أبداً بين ما نتعلم وبين ما نطبق.

ولقد أصبح طلابنا نتيجة هذا الفصل بين التعليم والثقافة ليس لهم من هدف سوى النجاح والحصول على الشهادة المطلوبة. أما ما حصلوا عليه من معلومات فيتبخر بعد أيام من انتهاء الامتحانات ويفقد فحواه.

الإعلام

وأنا اعتبره من العوامل المساعدة في التردي الثقافي لدى الشباب، وهنا أخص الإعلام المرئي،الذي يعتبر أكثر تأثيراً من غيره من وسائل الإعلام المختلفة في نفسية الشخص. ولو أحصينا عدد الساعات المخصصة للبرامج الثقافية لوجدنا أننا في حاجة إلى زيادة عددها ولو في الكم وفي المحتويات، لوجدنا أننا في حاجة إلى تحسين أكبر في نوعية ما يعرض على شبابنا.

إن الفراغ الثقافي والفكري الذي يعاني منه الشباب ليس مسؤولية الشباب بمفرده، ولكنه مسؤولية المجتمع بأجهزته المختلفة. فنشر الوعي بين أفراد المجتمع وتعريفههم بأهمية الثقافة ودورها في تكوين المجتمع ينبغي أن تقوم به أجهزة المجتمع بوجه عام، وتعمل الأسرة من خلال عملية الإعداد الاجتماعي للفرد في بذر حب المعرفة وحب الاطلاع في مدارسها، فتقدم لطفلها الكتب والقصص ومجلات الأطفال كهدايا، وتشجعه على مشاهدة وسماع كل ما يفيد من أجهزة الإعلام المختلفة.

وهنا تحضرني قصة أرددها دائماً، فقد حضر إليّ زميل يشتكي، فقال لي: دعيت يوماً إلى حفل عيد ميلاد أحد الأطفال، وهو شخص ليس من قطر فلا يعرف طباعنا، فذهب إلى إحدى المكتبات واشترى مجموعة من كتب الأطفال ليقدمها هدية لهذا الطفل في عيد ميلاده. وقدمت الهدايا الواحدة تلو الأخرى، فيقول هذا الزميل: وجدت من يقدم فستاناً وآخر يقدم لعبة والكل يصفق، وعندما قدمت هديتي وهي مجموعة من الكتب لم أجد من يصفق أو يهتف، بل إن البعض لم يخجل فقابل هذه الهدية بكلمات ازدراء. مجموعة كتب أصبحت هدية شاذة في مجتمع لا يعترف بالثقافة.

وللمدرسة أيضاً دور في تثقيف الشباب، فتجديد المناهج عن طريق إعطاء دور أكبر

للشباب في اختيار المحتويات لكي يتلاءم ما يدرسه مع ميوله أمر مهم، وتشجيع القراءة الحرة وأساليب البحث واستقصاء المعلومات من الأمور المهمة التي نرى وجوباً أن توضع في الاعتبار عند وضع المناهج. كما أن تنوير الشباب وتثقيفة بتراث وثقافة أمته عن طريق ربط الأصالة بالمعاصرة يعتبر من الأمور المهمة في تثقيف الشباب وتعريفه بماضي حضارته وما يجب عليه تجاه مجتمعه.

وبمعنى آخر فإن التربية العربية مدعوة إلى أن تغير ذاتها وطرقها وأساليبها في إعداد شبابها؛ إذ عليها أن تهجر حشو أذهانهم بمعارف جامدة، وأن تركز على أساسيات المعرفة وأصول العلوم، وتعنى بالأسس السليمة ليقوم عليها بناء الأجيال، وذلك حتى يوجد العمق والاصالة الثقافيين في أولادنا وأحفادنا، فنبني جسوراً أصيلة تربط ماضينا بحاضرنا بمستقبلنا القريب ومستقبل الأجيال.

وللإعلام أيضاً دور في تثقيف الشباب عن طريق اهتمامه بتقديم البرامج والمسابقات الثقافية الحديثة التي تساير روح العصر، من ناحية الشكل والمحتوى، والابتعاد عن روح الجمود التي تتميز بها بعض الأفلام العلمية والتثقيفية. كما أن لدور الإعلام والنشر المختلفة أثراً كبيراً في المساهمة في تثقيف الشباب ورفع مستواه العلمي، عن طريق نشر الكتب الهادفة المبسطة والميسرة بأسعار معتدلة ومعقولة، ويا حبذا لو تبنت وزارة الاعلام إصدار سلسلة كتب شهرية شعبية تقدم نماذج من كتابات الشباب.

ويبقى بعد ذلك دور الأندية، فمما لا شك فيه أن الأندية بما أتيح لها من إمكانيات مادية وبشرية لها القدرة على إثراء حياتنا الثقافية. فعن طريق الأنشطة الثقافية في هذه الأندية، وعن طريق مكافأة المبدعين في هذه الأنشطة وتقديم الجوائز والحوافز لهم ومساواتهم في ذلك مع المتفوقين في الأنشطة الرياضية، وعن طريق عرض هذه الانشطة على الجمهور من خلال وسائل الإعلام المختلفة، تصبح هذه الأندية عامل (بناء) مهم في تأصيل حب النشاط الثقافي في نفوس الشباب، وهذا لا يتأتى طبعاً إلا اذا وجدنا تفهماً ووعياً أكثر من المجتمع لدور النادي وأهميته، إذا مدت جسور التعاون بطريقة وبشكل كبير بين أجهزة المجتمع المختلفة وبين الأندية.

طرحت الأسباب وطرحت بعض الوسائل إلى ما قد يضيء واقعنا ومجتمعنا الثقافي، وما يصلح بعض الفراغ الذي يعاني منه شبابنا في حياته، بهدف الوصول إلى الشخصية الواعية بحق وحقيقه.

وأنا أنهي، أرجو للشباب كل تقدم وازدهار، شاكراً لكم حسن استماعكم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

محاضرة

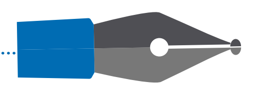
دور الشباب في بناء المجتمع



الدكتور:

علي السالوس

أستاذ الفقـه وأصـول الدين
بكلية الشريعة جامعة قطر



نص المحاضرة

أيها الإخوة الكرام، أحييكم بتحية الإسلام، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

نحمده تعالى ونستعينه ونستهديه، حمداً طيباً مباركاً فيه، كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، ونصلي ونسلم على رسول الله خير البشر، وعلى أهله وصحبه ومن اهتدى بهديه وتبع سنته إلى يوم الدين..

وبعد أيها الإخوة المسلمون، فإن الحديث عن أي شيء يتصل بالشباب حديث حبيب إلى القلب، ذلك أن أي دولة لا تستطيع أن تنهض أو تقوم أو ترتفع إلا بأيدي شبابها.

عندما قام سيدنا محمد ﷺ بدعوته، وكان رحمة مهداة إلى العالمين، اعتمد كثيراً على الشباب. وما أحوجنا اليوم إلى شباب عصرنا، وما أحوجنا إلى رعايتهم وإلى عملهم، وإلى أن نساعدهم.

وحديث اليوم عن دور الشباب في بناء المجتمع ليس في بناء المجتمع بصفة عامة، ذلك أن الحديث عن البناء الاقتصادي والبناء العسكري والبناء في مختلف المجالات لا يمكن أن يُستوعب في محاضرة. لذلك اتفقنا على أن يكون الحديث في هذه المحاضرة عن جانب واحد،هو الجانب الاقتصادي.

وكنت أحب في لقائي مع الشباب أن يكون اللقاء حواراً، ذلك أن الشباب أسئلتهم كثيرة لا تنتهي، وهم بحاجة فعلاً إلى أن يستمعوا إلى إجابات عنها. وأذكر أنه في العام الماضي كنا قد اتفقنا على أن نجتمع لنجيب عن الأسئلة، وحددنا وقتاً واجتمعنا مع الشباب، ثم انتهى الوقت المحدد ولم تنته الإجابات عن الأسئلة، فحددنا وقتا آخر. وهكذا ظللنا أسبوعاً بعد أسبوع إلى أن انتهى الفصل الدراسي الأول وقلنا نكمل في الفصل الثاني، وانتقلنا إلى الفصل الثاني، وانتهى الفصل الثاني ولم تنته الإجاجات.

هذا يوضّح أن الأسئلة كثيرة، وأنَّ الإجابات يجب أن تكون واقعية، وأن تكون مقنعة، لهذا اتفقت مع الإخوة على أن نجعل المحاضرة عبارة عن توضيح سريع في هذا المفهوم، ثم بعد هذا نستمع إلى الأسئلة. نحن نتحدث عن دور الشباب في البناء الاقتصادي للدولة الإسلامية، ولذا فليس ثمة بناء اقتصادي شيوعي أو بناء اقتصادي رأسمالي.

البناء الاقتصادي الرأسمالي له عيوبه الكثيرة، وكان نتيجة لتلك العيوب أن ظهرت الشيوعية، فظهرت لها هي الأخرى عيوب، أكثر ذلك أن هؤلاء أو أولئك ضلوا السبيل لأنهم يستمدون البناء من العقول البشرية، أما نحن فبفضل الله ونعمته اقتصادنا رباني المصدر، لأن اقتصادنا يعتمد أساساً على الكتاب والسنة، وما يستنبط في ضوء الكتاب

والسنة فهو نابع من الوحي، ولذلك إذا كنا نريد من شبابنا أن يقوم بالبناء، فإنَّ أول ما نقوله لهم أنْ يبحثوا عن البناء الاقتصادي الإسلامي. ذلك أن أمتنا عندما هزمت سياسياً واستعمرت، كانت هناك هزيمة أخرى لا تقل عن الهزيمة السياسية، وهي الهزيمة الاقتصادية، لذلك وجدنا أن المجتمعات الإسلامية يقوم اقتصادها على أسس غير إسلامية.

مفهوم العمل في الإسلام

أول شيء نريده من الشباب حتى يقوموا بدورهم في البناء الاقتصادي هو العمل. والعمل له مفهوم خاص في الإسلام، فكل عمل يدوي أو عقلي أو يدوي عقلي، فيه نفع للناس في الدنيا أو في الآخرة، فهو عمل إسلامي. وكلمة عامل تطلق على الكل، على أحط الدرجات، وعلى أعلاها، فتطلق كلمة عامل في المجتمع الإسلامي على كل من يعمل، وينتج عن هذا أنَّ كل العاملين في الدولة من رئيس الدولة إلى أقل موظف فيها سواء، لا فضل لعامل على آخر إلا بعمله وبإتقانه لعمله وبإحسانه له، ليس لأحد أن يمن عن الآخر. وينتج عن هذا الفهم الإسلامي للعمل أنه ما دام الجميع عمالاً فلا توجد طبقة تسمى طبقة عمال، ولا يوجد هناك صراع طبقي بين العمال وبين أصحاب رؤوس الأموال مثلاً، فالكل عامل. بعد هذا نجد أنه ما دام المجتمع كله يتكون من طبقة واحدة، وليس طبقات بينها صراع، هي طبقة العمال وأن العمل لا بد منه، لذلك فالإسلام يوجب العمل على المسلمين. وإذا نظرنا في كتاب الله تعالى ونظرنا في سنة رسوله ﷺ نجد كثيراً من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي تدعو وتأمر بالعمل:

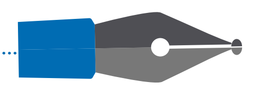
(وقل اعملوا) و(لكلٍ درجاتٍ مما عملوا)، (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره). وسئل الرسول عليه الصلاة والسلام عن أفضل ما يقوم به الإنسان فقال:

(كسب الرجل بيده).

الكسب باليد، لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب... إلى آخر الحديث.

إذن هنا في الكتاب والسنة أمر بالعمل، ولكن بأي عمل؟ لا شك أنه العمل الذي ينفع المجتمع الإسلامي، والذي ينفع المسلم في ذاته، وينفع باقي المسلمين، ولا يضر أحداً.

ونذكر هنا أنَّ بعض الصحابة وجدوا شاباً جلداً قوياً يعمل، فقالوا: لو كان هذا الرجل يعمل في سبيل الله. فعلَّمهم الرسول عليه الصلاة والسلام مفهوم العمل الذي يكون في سبيل الله، فبين لهم أنَّ من خرج يسعى على أولاده صغاراً فهو في سبيل الله، ويسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، ويسعى على رزقه ليعف نفسه



فهو في سبيل الله، أما من خرج رياءً ونفاقاً فهو في سبيل الشيطان.

إذن ما دام قد خرج لعمل نافع فهو في سبيل الله.

فأول شيء يطلب من شبابنا لبناء الصرح الاقتصادي لوطننا هو العمل، والعمل النافع.

نظام العمل في الإسلام

العمل في الإسلام فيه حرية للعامل، بمعنى أن يختار ما يشاء من العمل، ولكن ليس هكذا بغير قيود مطلقاً. فلو نظرنا للعامل في النظام الرأسمالي فإننا نجد أنَّ له أنْ يختار ما يشاء من العمل، والدولة عادة لا تجبره إلا في حدود أشياء معينة. وبما أن الدولة الرأسمالية تسمَى الدولة الحارسة، أو دولة الدفاع، فما هو ضروري للدفاع يُلزم به الفرد ويجبر عليه، أما غير ذلك فلا يجبر.

ومع أن العامل في الإسلام هو الذي يختار عمله، إلا أنَّ الإسلام أحياناً يجعل نوعاً معيناً من العمل فرض كفاية، وأحياناً يجعله فرض عين، فكيف هذا؟ نحن نعلم أن فرض الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الآخرين، وإذا لم يقم به أحدٌ أثِم الجميع.

فرض العين معناه أنَّ الشخص لا بد أن يقوم بالعمل بنفسه، بكل الأعمال التي تحتاج إليها الدولة المسلمة، سواء كانت تحتاج إلى زراعة أو تجارة أو إلى نساجة أو إلى صناعة، فكل هذه الأعمال هي فرض كفاية، وعلى الدولة أن تهيء من أبنائها من يقوم بهذه الأعمال، وهكذا الدفاع والصناعة.

الفرق بين الدولة في الإسلام والدولة المعاصرة

الفرق أيها الإخوة بين الدولة في الإسلام والدولة المعاصرة، أن الدولة تنشىء القانون، والإنسان في ظل الدولة المعاصرة ينفذ القانون. فإذا كان لا يوجد رقابة من الدولة، أو هو في خارج الدولة يستطيع ألا ينفذ القانون. أما الدولة في الإسلام فهي وليدة القانون، ليست هي التي تنشىء القانون إنما القانون هو الذي أنشأ الدولة.

والكتاب والسنة كانا في مكة قبل أن توجد الدولة الإسلامية، فلما قامت الدولة الإسلامية في المدينة، كان الكتاب والسنة هما الأساس لهذه الدولة. وثمة فرق آخر بين الدولة الإسلامية والدولة المعاصرة، وهو أن الفرد في الدولة الإسلامية مكلف بتطبيق هذا القانون، سواء وجد في الدولة أو لم يوجد فيها، كلّف من الدولة أو لم يكلّف، ولذلك إذا لم تقم الدولة بالتكليف ورأت مجموعة من الناس أو مجموعة من الشباب أن دولتهم بحاجة إلى كذا والدولة لم تكلفهم، فعليهم من أنفسهم أن يقوموا بهذا العمل.

وإذا لم نجد في الدولة من يقوم بهذا العمل أثم الجميع. ولو فهمنا هذا أيها الإخوة



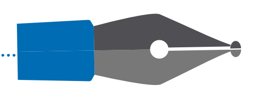
المسلمون فكيف سيكون وضع الاقتصاد الإسلامي؟ ووضع الدولة الإسلامية بالصورة التي نحن عليها الآن! لأننا الآن في كثير من الأشياء نعتمد على الكفار، سواء كانوا كفاراً صليبيين أو كفاراً شيوعيين ملحدين.

وقد نصَّ الفقهاء السابقون على أن كل عمل تحتاج إليه الدولة فهو فرض كفاية، وعلى إمام المسلمين أن يأمر بهذا، ثم قد يصبح هذا العمل فرض عين، مثلاً عمل معين لا يحسنه إلا شخص أو أشخاص معينون فقط وغيرهم لا يحسن هذا العمل، والدولة بحاجة إلى هذا العمل، هنا يصبح العمل فرض عين على هذا الشخص أو على هؤلاء الأشخاص بالذات.

فلو فرضنا أن هذا العمل الذي أصبح فرض عين على الشخص، أو على أشخاص معينين، والدولة لم تجبرهم، وهم لم يقوموا بهذا أثموا، تركوا فرض عين، كمن ترك الصلاة، وكمن ترك الصيام، وكمن ترك الزكاة، وكمن ترك الحج، لأن العمل إذا أصبح فرض عين فمعناه أن الشخص ملزم بأن يقوم به، وإن لم يقم به أثم.

مثال: قرية ليس بها إلا طبيب واحد، وليس لهذا الطبيب أن يغالي أو يمتنع عن العمل وإنما يصبح هذا فرض عين عليه. وكذلك ناحية فنية أجادها فلان من الناس ولم يُجِدها غيره، والدولة بحاجة إليه، فالأمر أصبح فرض عين عليه.

إذن العمل بالحرية المقيدة وليست الحرية المطلقة، وليست عبودية كالنظام الشيوعي، ففي النظام الشيوعي لا رأي للشاب، ولا يختار العمل ولا يختار السكن ولا يختار المأكل، هو آلة في جهاز يتحرك بتحرك الآلة.



الإسلام لأنه رباني، لأنه من عند الله خالق البشر (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) ، جعل للإنسان حرية، ولكنها حرية مقيدة؛ مقيدة بأنها لا تضر بالمجتمع المسلم. فمتى لزم الشخص أن يقوم بعمل فلا بد أن يقوم به وإلا أثم. هذه هي النقطة الأولى التي أريدها من شبابنا.

المال والملكية

النقطة الثانية تخض المال والملكية، فالمال الذي في أيدي شبابنا كيف لهم أن يسهموا به في بناء الاقتصاد في المجتمع. هناك قاعدة عامة يجب أن نفهمها أيها الإخوة المسلمون، وهي أن المال في النظام الرأسمالي ملك للفرد، فالأساس أنه ملك الفرد ولذلك الفرد يحتكر، ويرابي، ويوصي بتركته كلها لكلبه أو لخادمته فهو حر، لأن المال ملكه الخاص يتصرف فيه كيف يشاء. والمال في النظام الشيوعي ملك للدولة، فليس للفرد أن يمتلك وبذلك الفرد ليس له أن يملك.

المال في الإسلام ملك لله سبحانه وتعالى. والملكية ليست للبشر وإنما الملكية لله سبحانه وتعالى **(وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ)** ومادام المال لله فما وظيفة المسلم؟ **(وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ)** فالإنسان المسلم مستخلف في هذا المال ولذلك يملك المنفعة والتصرف، لكن الملكية الأصلية لله سبحانه وتعالى، والإنسان المسلم له المنفعة والتصرف في حدود ما شرعه الله مالك الملك سبحانه وتعالى.

كيفية كسب المال وإنفاقه في الإسلام

على الإنسان أن يكتسب المال من طريق حلال، وليس له أن يكتسبه عن طريق حرمه الله سبحانه وتعالى، وليس له أن يستحوذ على المال ويكتنزه بطريقة حرمها الله سبحانه وتعالى، ومعنى هذا أننا عندما نملك ما لا يجب أن نتصرف به في الحدود التي شرعها الله سبحانه وتعالى، يقول لنا اكسبوا من كذا نكسب من كذا أنفقوا من كذا ننفق من كذا..

كثير من شبابنا المسلم الآن امتحن وابتُلي بالمال، وامتحان المال أيها الإخوة المسلمون من أصعب الامتحانات، لماذا؟

يقول الله تعالى: **(وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا)**، **(وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ)**، **(إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى* أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى)** لذلك امتحان المال صعب جداً، لا ينجح فيه إلا من أسلم أمره لله وفهم وظيفة المال كما يجب أن تفهم، ومن لم يفهم هذا فإنه يرسب في الامتحان. لذلك على الإنسان أن يكتسب المال من طريق مشروع.

وبعد اكتسابه كيف يتصرف به؟ كيف يستثمره؟ بالطريقة التي شرعها الله عز وجل. والطرق المشروعة كثيرة ومعروفة، حتى إننا لو نظرنا في كتب الفقه الإسلامي وجدنا العبادات والمعاملات، كما نجد الطهارة والصلاة والصيام.. والزكاة والحج.. وهكذا.

وهذه الأحكام في الفقه الإسلامي لا بد منها، ولا بد من معرفتها حتى نتصرف في هذا المال كما أراد الله سبحانه وتعالى وإلا ضللنا.

لذلك لا بد أن ننظر كيف نستطيع أن نسهم في بناء اقتصاد أمتنا الإسلامية عن طريق هذا المال، واستثماره بالطرق الحلال.

فأحد الأشخاص مثلاً يكتنز المال ويضعه في بنوك ربوية في الخارج، لأنها تعطي فائدة كبيرة، والفائدة هذه من الربا المحرم بلا خلاف، وأنت عليك أن تدفع الزكاة، فإذا أردت أن تستثمر مالك عن طريق إيداعه في بنوك ربوية فمعنى ذلك أنك إذا أخذت الفائدة الربوية أكلت حراماً وأذنت بحرب من الله ورسوله. إذا قلت أنا لا آخذ الفائدة الربوية فرأس المال لا بد أن تدفع عليه الزكاة كل عام، إذن هنا تكنزه كنزاً، وأيضاً هذا لا يجوز لأن المال في الإسلام له وظيفة، وما دام المال ملكاً لله فلا بد أن يكون في مصلحة خلق الله.

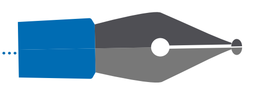
القاعدة العامة أن ما هو ملك لله لا بد أن يكون لمصلحة خلق الله، والإنسان يملك التصرف والمنفعة؛ بمعنى ألا نأخذ منه مالاً رغماً عنه، لكن إذا جاءت حاجة أو ضرورة لأخذ هذه الملكية أخذت، فالملكية الخاصة في الإسلام تُحترم، ولكن إذا تعارضت مع الملكية العامة، يضحي بالخاصة في سبيل الملكية العامة.

وكنز المال محرم. والآية التالية من كتاب الله تعالى، ولننظر كيف أنها جمعت بين جرائم ثلاث:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ)، الجريمة الأولى. (وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) الجريمة الثانية. (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) الجريمة الثالثة.

ثلاث جرائم في آية واحدة والآية التالية تركز على الجريمة الأخيرة **(يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ).**

فكنز المال جُعل مع أكل أموال الناس بالباطل ومع الصد عن سبيل الله. وكنز المال معناه أنك حرمت المجتمع المسلم من الانتفاع بهذا المال، وهذا المال ليس ملكاً لك ولكن ملك لله وأنت مستخلف فيه، فأنت هنا إذا كنت وكيلاً عن شخص وقال لك



هـذا الشـخص افعـل كـذا، فـإذا لم تفعـل فأنـت خنـت الأمانـة وخالفـت الوكالـة، فهنـا أنـت إذا كنـزت المـال منعـت منفعتـه عـن النـاس وذلـك إثـم.

فـإذا جمـع الإنسـان مالـه مـن طريـق حـلال فيجـب أن ينظـر إلى مـا المجتمـع بحاجـة إلى مـاذا؟ وهـو أيضـاً بحاجـة إلى مـاذا؟ فـإذا وجـد أن طريقـه فيهـا مكسـب وطريقـه أيضـاً فيهـا نفـس المكسـب، ولكـن هـذه تنفـع المسـلمين، وهـذه منفعتهـا أقـل، يلجـأ إلى الطريقـة التـي تنفـع المسـلمين أكـثر. أمَّـا الكسـب مـع وجـود ضرر للمسـلمين فيحـرم عليـه أن يلجـأ إلى مثـل هـذا الكسـب.

مطلـوب مـن شـبابنا الذيـن آتاهـم اللـه مـالاً أن يعرفـوا أن هـذا المـال الـذي بـين أيديهـم أمانـة فهـو ملـك للـه سـبحانه وتعـالى، وهـو ابتـلاء وامتحـان؛ ابتـلاء مـن اللـه سـبحانه وتعـالى، وأن عليهـم أن يبنـوا مجتمعهـم ويبنـوا اقتصـاد أمتهـم بهـذه الأمـوال.

فالأمـوال للـه، والإنسـان مسـتخلف فيهـا، فـلا بـد أن تنفـق في حـدود الاسـتخلاف. وهنـا يكـون العمـل بطريقـة مشروعـة والكسـب بطريقـة مشروعـة بـلا ربـا بـلا احتـكار، بـلا أشـياء لا نريـد أن نخـوض فيهـا حتـى لا يطـول الأمـر، ثـم بعـد هـذا اسـتثمار هـذا المـال بطريقـة مشروعـة.

التبذير في إنفاق المال

يجـب عـلى شـبابنا أيضـاً لبنـاء أمتنـا اقتصاديـاً مراعـاة الإنفـاق. ليـس فقـط أن أعمـل أعـمالاً مشروعـة وأن أكسـب بطريقـة مشروعـة ثـم أنفـق كـما أشـاء، لا، لأن الإسـلام حـدد أيضـاً طريقـة الإنفـاق، فجعـل الإنفـاق محـدداً حتـى في الحـلال، وإلا كان تبذيـراً (إِنَّ الْمُبَذِّرِيـنَ كَانُـوا إِخْـوَانَ الشَّـيَاطِينِ) فقـرن اللـه المبذريـن وجعلهـم إخوانـاً للشـياطين، لأن التبذيـر معنـاه أن المـال الـذي هـو ملـك للـه، وجعـل للإنسـان حـق التـصرف والمنفعـة بـه ينفـق فيـما يـضر المجتمـع. لأن الانسـان سـيأخذ حاجتـه منـه ثـم بعـد هـذا عندمـا يرحـل مـن هـذه الحيـاة يصبـح المـال في أيـدي آخريـن مـن المسـلمين.

الملكيـة تبـدأ ملكيـة المنفعـة والتـصرف ثـم تنتقـل إلى الأولاد والآبـاء والإخـوة، والشـخص الـذي معـه مـال وأسرف فيـه يطغـى عـلى مـال كان سـينقل لآخريـن، وحـرم المجتمـع المسـلم الحـالي مـن الانتفـاع بـه، لذلـك فـإن أولئـك الذيـن لا يـدرون كيـف ينفقـون الأمـوال ويبعـثرون هنـا وهنـاك، لا يمكـن أن يكونـوا أعضـاء نافعـين.

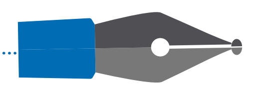
إذن الموضـوع الـذي نريـد أن نركـز عليـه، أن الشـباب بمـا لهـم مـن قـدرة، الشـباب الذيـن بنـوا الدولـة الإسـلامية في السـابق، الشـباب العـصري، نريـد منهـم أن يعملـوا الأعـمال التـي

يريدهـا اللـه عـز وجـل. نريدهـم ان يسـتثمروا أموالهـم بالطريقـة التـي شرعهـا الإسـلام ونريدهـم أن ينفقـوا إنفاقـاً وسـطاً.

(وَلَا تَجْعَـلْ يَـدَكَ مَغْلُولَـةً إِلَىٰ عُنُقِـكَ وَلَا تَبْسُـطْهَا كُلَّ الْبَسْـطِ) لا هـذا ولا ذاك، لا نقـول كونـوا أشـحاء، ولا بخـلاء كذلـك، ولكـن يمكـن للشـباب أن يبنـي.

يبقـى هنـا نقطـة لعلهـا أخـيرة، وهـي خاصـة بأولئـك الذيـن يرعـون الشـباب، فعليهـم أن ينظـروا إلى المشـكلات التـي يصادفهـا الشـباب في هـذا العـصر، حتـى يوفـروا لهـم جـواً ملائمـاً للبنـاء الاقتصـادي، لأن وسـائل الإعـلام كـما نـرى، ونواحـي الـترف والبـذخ والفسـاد والإفسـاد، كل هـذا يجـب أن يقـضى عليـه في المجتمعـات الإسـلامية حتـى ينتـج شـبابنا كـما أنتـج شـباب الأمـس، واللـه سـبحانه وتعـالى هـو الهـادي إلى سـواء السـبيل، وهـو المسـتعان.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



من أسئلة المحاضرة

س: هل الدول العربية تعتبر دولاً رأسمالية في وقتنا هذا؟

ج: كما قلنا، المسلمون عندما هُزموا في المجال الاقتصادي وكانوا مستعمَرين من الدول الرأسمالية الغربية دخل النظام الرأسمالي بلاد الإسلام، ولذلك نجد البنوك يهودية ربوية، لأن وظيفة البنوك الآن جمع المال ثم إقراض المال بالربا، ولذلك فتعريف البنك في الاقتصاد هو المنشأة التي تتاجر بالديون. هذه هي وظيفة البنك فالبنك يقترض بفائدة ربوية، ويُقرض بفائدة ربوية والفرق يمثل الدخل الأساسي للبنك. إذن الدول الإسلامية في ظل الاستعمار أخذت النظام الرأسمالي، وبعد الإستعمار بدأت بعض هذه الدول تتجه للمعسكر الشرقي، وبدأنا نسمع عن الاشتراكية بدلاً من الشيوعية لمجرد التخفيف، لأن المعروف أن الشيوعية أول ما تحاربه هو الأديان، ومعنى هذا أن النظام الاقتصادي في البلاد الإسلامية أصبح خليطاً من النظام الرأسمالي والنظام الشيوعي. ثم وجدنا الصحوة الإسلامية في المجالات المختلفة، ومنها المجال الاقتصادي، ولهذا عندما عقد مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية وجدناهم ينادون بنظام اقتصادي إسلامي. وعندما أقيم مجمع البحوث الإسلامية وجدناه ينادي بنظام اقتصادي إسلامي. والآن وجدنا المصارف الإسلامية.

إذن هنا يوجد نظام رأسمالي ونظام شيوعي، ثم الصحوة الإسلامية، وهذا يلقي على عاتق الشباب مسؤولية كبيرة، لأنه وجد في ظل الصحوة، وعلى الشباب أن يستفيد من هذه الصحوة، وأن يشارك في هذه الصحوة، وأن يسعى حتى يتغير النظام الاقتصادي من رأسمالي أو شيوعي أو مزدوج بين الرأسمالية والشيوعية، وأن يتخلص من كل هذا ليصبح اقتصادنا إسلامياً.

س: هل ظاهرة اتباع الغرب هي الطريق إلى بناء المجتمع؟

ج: ظاهرة اتباع الغرب هي الطريق إلى هدم المجتمع وليس إلى بناء المجتمع، لأننا نتبع الغرب في الملابس والتمثيليات والفمسرحيات وفي الكرة وفي كل شيء ضار غير نافع، هذا هو اتباع الغرب، ولكن هل اتبعنا الغرب في التقدم التكنولوجي، أو هل أخذنا بحكم الإسلام في أن كل عمل لا بد منه للمجتمع فهو فرض كفاية

وقد يصبح فرض عين؟

إذن الآن التقدم العلمي: هذا فرض كفاية أو فرض عين في ظل الإسلام، فيمكن أن نأخذ من الغرب أو من الشرق أي تقدم علمي، أما أن نتبع الشرق أو الغرب ونقلد التقليد الأعمى فيما هو سَيء في ديننا وعاداتنا وتقاليدنا وقيمنا ومثلنا، ونقول إن هذا هو الطريق لبناء المجتمع ! لا،هذا هو الطريق لهدم المجتمع.

س: كيف نستطيع أن نوفق في دعوة الشباب إلى العمل في ظل الرفاهية وارتفاع المستوى الاقتصادي بالنسبة لدخل الفرد وما يتبع هذه الرفاهية من خمول وكسل وقلة إنتاج،في ظل غياب الدعوة الإسلامية قوية الحركة لهذا الشباب؟

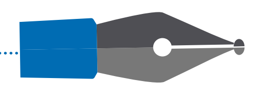
ج: الشباب إذا كان يملك الملايين، إذا عرف ربه وفهم دينه عرفَ أن العمل واجب رغم هذه الملايين، لعرف أن هذه الملايين لا بد أن توجَّه لبناء اقتصاد المجتمع المسلم.

وإذا فهم الشباب المسلم إسلامه عرف أن هذه الأموال ملك لله سبحانه وتعالى، ولا بد أن تسخر لخدمة المجتمع المسلم. ثم هذه الأموال فيها حقوق؛ فيها الزكاة والصدقات، وحق للمجتمع المسلم، وعليه أن يعمل في هذا المال ويستثمر هذا المال.

س: هناك تعاون بين البنوك الإسلامية والبنوك الربوية، وعليه؛ فقد دخل مال حرام على أموال البنك الإسلامي وذلك لعدم قيام البنك الإسلامي بالتعامل حسب الشريعة الإسلامية في كل المعاملات، فما الحكم في هذا؟

ج: أي تجربة إسلامية تقوم لا بد أن نتصور أن اعداء الإسلام لن يتركوها تقوم هكذا، ولا بد أن نتوقع أن هجوماً سيقوم عليها.

ونذكر على سبيل المثال منذ أكثر من عشرين عاماً أنشيء بنك في مدينة تسمى (ميت غمر) في مصر على الطريقة الإسلامية كبنك ادخار، وقف يساعد صغار العمال والفلاحين، وسار بطريقة إسلامية، والنتيجة أول مرة حقق أرباحاً فعلية 7% وارتفع بعد ذلك إلى 10% والبنوك الربوية آنذاك كانت تعطي في حدود 3%. مثل هذا البنك هل نتصور أن أصحاب البنوك الربوية وأعداء التجارب الإسلاميه يمكن أن يتركوه؟ ولذلك حورب حتى تحول إلى بنك ربوي. وقد قام مجمع البحوث الإسلامية بالإفتاء بأن فوائد البنوك من الربا المحرم، ودعا أهل الاقتصاد للبحث



عـن البديـل الإسـلامي.

وقام البديل الإسلامي: وقامت المصارف الإسلامية.

وبـدأت الحـرب، والتعامل مع البنوك الربويـة لابد منه، لماذا؟

مثـلاً في مـصرف إسـلامي أنـت ذهبـت لتفتـح اعتـماداً مسـتنداً عنـده لتسـتورد سـلعة، هـل يسـتطيع أن يسـتورد السـلعة مـا لم يكـن لـه حسـاب في الخـارج؟ وإذا ذهبـت لتحويـل عملـة هـل يسـتطيع البنـك أن يقـوم بالتحويـل مـا لم يكـن لـه حسـاب ورصيـد بالخـارج؟ إذن التعامـل مـع البنـوك الربويـة لا بـد منـه، ولكـن اتفـق عـلى الآتي: أن يكـون التعامـل مـع مجموعـة مـن البنـوك الربويـة متفـق معهـا عـلى أسـاس أن التعامـل أخـذ وعطـاء بغـير فائـدة. والسـحب عـلى المكشـوف يكـون بـدون فائـدة. ويـوم أن تعـم البنـوك الإسـلامية جميـع أنحـاء العـالم، ولا بـد أن تعـم بـإذن اللـه، لأن الإسـلام لا بـد أن يكـون كلمتنـا الأخـيرة إلى النـاس. يـوم أن تعـم لـن يكـون هنـاك تعامـل مـع البنـوك الربويـة، وهـذا مـا يفكـر فيـه الآن لعمـل مـصرف دولي إسـلامي يكـون لـه فـروع في جميـع أنحـاء العـالم.

س: مـا رأيك في الشـباب الـذي يقلِّد المغني؟

ج: كلمـة طيبـة سـمعتها مـن فضيلـة الاسـتاذ الدكتـور حسـن عيـسى عبـد الظاهـر وهـو يتحـدث عـن المسـارح بأنهـا وسـيلة لشـغل النـاس عـن دور العبـادة. فالمسـلم عليـه أن يشـغل نفسـه في دور العبـادة وهـي المسـاجد، فهنـا المسـارح أداة لشـغل المسـلمين عـن دور العبـادة، وهـدف غـير المسـلمين أن يجعلـوا المسـلمين يتركـون إسـلامهم، ولذلـك فالغنـاء والرقـص وغـيره الهـدف منهـا أن يـترك المسـلمون إسـلامهم، لا يقـول للمسـلم اتـرك إسـلامك، ولكـن بمثـل هـذا يـترك المسـلم إسـلامه.

س: بـين الشـباب اليـوم ظاهـرة بـارزة تتمثـل في « الاتكاليـة» مـما يعـوق مسـاهمتهم في بنـاء المجتمـع، والعـبء الأكـبر يقـع عـلى الحكومـة.

ج: عندمـا تحدثنـا عـن البنـوك الربويـة، مثـلاً قالـوا إنَّ الحكومـة هـي السـبب، وأنـا أقـول: الحكومـة عندمـا سـمحت بالبنـوك الربويـة هـل منعـت البنـوك الإسـلامية؟، وعندمـا أنشـأت المصـارف الإسـلامية هـل أجبرتـك الحكومـة أنْ تدخـل البنـوك الربويـة وتـترك البنـوك الإسـلامية، هنـا إذا أردت أن تعمـل هـل تقـول لـك الحكومـة لا تعمـل. إذن هـؤلاء الشـباب هـم الذيـن يُسـألون وليـس الحكومـة، الحكومـة سـوف تُسـال



عن أشياء خاصة بها (**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤول عَنْ رَعِيَّتِهِ**) فإذا قصّرتْ في الرعاية فستحاسب عن ذلك، لكن الشباب أنفسهم سوف يسألون (**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**).

محاضرة

إدارة التنمية في الوطن العربي

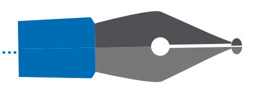
١٩٨٦/١٢/٣٠



الدكتور:

أحمد رشيد

أستاذ الإدارة العامة بكلية الاقتصاد
والعلوم السياسية بجامعة القاهرة



نص المحاضرة

موضـوع إدارة التنميـة في الوطـن العـربي موضـوع متسـع ولـه جوانـب عديـدة، وهـو موضـوع حيـوي وهـام، ولا بـد أن أُركـز بقـدر المسـتطاع في هـذا الموضـوع حتـى نفسـح المجـال لفتـح بـاب المناقشـة، خصوصـاً وأنـا مدعـوٌّ إلى نـادٍ ثقـافي رائـد، لنتعـارف أكـثر ونتبـادل الـرأي ونتناقـش في هـذه الظاهـرة الهامـة التـي تمـس حياتنـا ومصالحنـا في أرجـاء الوطـن العـربي.

ماهيـة إدارة التنمية

لعـل حديثـي سـيتركز عـلى تيـار واحـد أو إطـار واحـد في موضـوع متعـدد الأطـراف والجوانـب. سـأتحدث عـن ماهيـة إدارة التنميـة، فهـي تهـم الأجهـزة المعنيـة بتنفيـذ السياسـات العامـة الإنمائيـة في البلـدان الناميـة. ومـن هنـا نعـرّف هـذه الأجهـزة في هـذه البلـدان بأجهـزة إدارة التنميـة وليسـت أجهـزة إدارة عاديـة، وتسـميتها بأجهـزة إدارة التنميـة هـو مـن بـاب التمييـز لهـا عـن الإدارة العاديـة، سـواء في الـدول المتقدمـة أو في الـدول المتخلفـة. ونحـن سـنركز عـلى أجهـزة الإدارة في الـدول الناميـة لا المتخلفـة ولا المتقدمـة، فهـي ناميـة بمعنـى أنهـا تأخـذ في مواجهـة التخلـف، ولكنهـا لم تصـل بعـد إلى أن تكـون دولاً متقدمـة، ولا داعـي للإطالـة في تعريـف هـذه المصطلحـات، فنحـن نخاطـب مجتمعـاً مثقفـاً عـلى درجـة عاليـة مـن الوعـي الثقـافي.

وضـع إدارة التنميـة في الوطن العربي

وأنتقـل مبـاشرة إلى وضـع إدارة التنميـة في الوطـن العـربي، فـكل دول الوطـن العـربي هـي نمـاذج لإدارة التنميـة بدرجـات متفاوتـة، بمعنـى أننـا لا نجـد في دول الوطـن العـربي دولـة متخلفـة أو دولـة متقدمـة، وإنمـا نجدهـا جميعـاً دولاً آخـذة في النمـو؛ أي إنهـا جميعـاً تمثـل نمـاذج متنوعـة في إدارة التنميـة، وهـذه النـماذج تجمعهـا سـمات عديـدة.ولا نتحـدث هنـا عـن سـمات خاصـة، لأن دول الوطـن العـربي تنقسـم بدورهـا إلى مجموعـات، ولكـن لـكل دولـة بصماتهـا أو سـماتها الخاصـة المتميـزة، فالعموميـة لا يجـب في أي حـال أن تغنـي عـن الخصوصيـة، لأن التعميـم المبالـغ فيـه مـضر بالتنميـة، وهـو وإن كنـا نحتـاج إليـه، لكـن يجـب أن نتذكـر أن هنـاك سـمات خاصـة، فمثـلاً عـلى سـبيل المثـال إذا قلنـا إن دولـة قطـر هـي نمـوذج إدارة تنميـة عـربي، وهـي في ذات الوقـت تنتمـي إلى نمـاذج إدارة التنميـة في بلـدان العـالم النامـي آسـيا وإفريقيـا



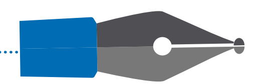
والشرق الأوسط، وأمريكا اللاتينية، ثم هي أيضاً لها سمات خاصة بها، بمعنى أن لها بصماتها الخاصة وسماتها الخاصة في تحليلات إدارة التنمية. وداخل دولة قطر نستطيع أن نميز قطاعات معينة أو مناطق معينة، وكلما اتسعت الدولة كانت السمات الخاصة داخلها أكثر.

فمثلا في جمهورية مصر العربية نجد نموذج إدارة تنمية عربي يتضمن مجموعة نماذج متباينة - شمال إفريقية - نيليه، ويدخل ضمن مجموعة أكبر وهي مجموعة الدول النامية في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، وداخل النموذج المصري يمكن أن نجد كذلك خصوصيات داخلية، بمعنى أن صعيد مصر له سمات غير الدلتا وصحاري مصر، وبادية مصر لها سمات غير حضر مصر وهكذا.

هذه النماذج العربية التي نعنيها بعموميتها أكثر من خصوصيتها في هذا الإطار مضت إدارة التنمية فيها على ثلاث مراحل:

أولاً: مرحلة تصميم نظم إدارة التنمية:

المرحلة الأولى نسميها مرحلة تصميم نظم إدارة التنمية، بمعنى وصول حكومات وطنية إلى السلطة في مراحل مختلفة، في أوقات مختلفة وبدوافع وأسباب مختلفة، معظمها كان خاضعاً للاستعمار المباشر، وبعضها خاضع لاستعمار غير مباشر، فالمهم أن المرحلة الأولى كانت مرحلة مبادرة حكومات وطنية عربية لاكتشاف أن أهم هدف لها يجب أن يكون التصدي لظاهرة التخلف، ومن ثم أصبحت من المكونات



الرئيسية للسياسات العامة في هذه البلدان، ولذلك فإن السياسات العامة للبلدان العربية بعد الاستقلال هي سياسات عامة إنمائية، وهذه الحقيقة الأساسية، أو تنشئة أجهزة إدارة جديدة لتكون إدارة رئيسة للسياسة العامة في تنفيذ وإيصال سياستها العامة الإنمائية، فظهرت أدوار متعددة كثيرة لهذه الإدارة في هذه النماذج العربية، وينطبق عليها مفهوم إدارة التنمية؛ بمعنى أدوات لتنفيذ السياسة العامة.

في هذه المرحلة تعرض الوطن العربي إلى تأثيرات عديدة: التأثير الأول كان تأثير تيارات علمية وسياسية واقتصادية واجتماعية في دول متقدمة سبقت في تصميم نظم للتقدم وللتطور، وبالضرورة أن نتأثر بها ونحن نصمم نظمنا، ولها تأثير سياسي واقتصادي كبير بدرجة أولى، فظهرت تبعاً لذلك صيغ عديدة تحاول أن تفسر هذه المرحلة، وتفسر السياسات الإنمائية في البلاد العربية بأنها ذات شكل معين، فتارة يسمونها الاشتراكية العربية، وتارة يسمونها القومية. وهذه التأثيرات والصيغ كانت رد فعل طبيعياً لنواجه هذه التيارات ونحاول أن نختص بهوية خاصة بهذه النماذج، بحيث لا تخضع تماماً لتأثيرات أجنبية فتنقل الصيغ الخاصة بها نقلاً تاماً.

ومجالات التأثر كثيرة، منها نواحٍ خاصة بالمعلومات، ونواحٍ خاصة بقواعد البيانات والمعلومات كأساس لوضع قرار المدير والإدارة بشكل عام، وأيضاً مبدأ التخطيط وغير ذلك من اتجاهات حديثة مؤثر في تصميم نظمنا الإدارية، فنجد عندنا مزيجاً من التخطيط ومراكز المعلومات، كلها تظهر في صيغ أو نماذج إدارة التنمية في هذه المرحلة، كما أن هناك تأثراً بأساليب السياسات العامة في الدول المتقدمة التي هي متنوعة في تحقيق التقدم والتطور، ولكنها تنحصر في أسلوبين رئيسين؛ الأسلوب المؤكد الذي هو أسلوب الدول الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفيتي، والأسلوب الحر أو المختلط لأنه لا يوجد الآن اقتصاد حر بالمعني التام، وهذا الأسلوب هو المتبع في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية، وقد تأثرت النماذج العربية بهذه الأساليب وصارت فيها درجات، فالبعض مال أكثر إلى التخطيط، والبعض مال أكثر إلى الاقتصاد المختلط، ولكن هذا وذاك أخذ بالاثنين معاً، فبعض النماذج فيها نظام تخطيط متطور جداً ولكن فيها تشجيع للاقتصاد الحر. ولا يمكن أن نجد نموذجاً لم يتأثر بالأسلوبين وإنما هناك اتجاه أكثر إلى أحدهما حسب الظروف، فالنماذج العربية التي ظروفها الاقتصادية أصعب مالت أكثر إلى التخطيط، والنماذج التي ظروفها أسهل مالت إلى الاقتصاد الحر أو المختلط.

ثانياً: مرحلة تشغيل إدارة التنمية:

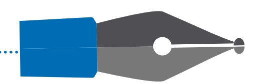
ننتقل إلى مرحلة ثانية - مرحلة تشغيل إدارة التنمية فنحن صممنا نظاماً ويجب أن نشغله، وأثناء ذلك سنواجه مشكلة كبيرة ألا وهي مشكلة التخلف التي تصدت السياسات العامة للدول العربية، لمواجهتها باستخدام الإدارة بطريقة علمية وجادة.

وبابتداء مرحلة التشغيل تظهر مشكلات عديدة لم تكن موجودة من قبل، وهي مشكلات التنمية، فبمجرد أن نبدأ في التنمية تبدأ مجموعة جديدة من التطلعات لم تكن قائمة، ونبدأ بالتالي في مواجهة جديدة لعدد من المشكلات هي مشكلات التقدم، ومشكلات النمو. ثم تظهر مشكلة أخطر، ذلك أن إدارة التنمية ذاتها التي أنشأتها الدولة لتكون أداتها الرئيسية في تحقيق التنمية، هي في حد ذاتها بحاجة ماسة إلى تنمية وتطوير وإصلاح، وخاصة إذا بدأ يظهر عجزها، إذا كانت أداة غير مؤهلة لإدارة التنمية، كأن تكون أداة تقليدية محدودة الأثر، وأعطيناها مسؤوليات كبيرة، فمن الطبيعي أن يظهر عجزها في مواجهة هذه المسؤوليات ومباشرتها. ومن هنا تبرز المشكلة، وهي أن أداتنا الرئيسية التي نستند عليها (عكازنا) غير قادرة على الوفاء بمسؤولياتها بطريقة سليمة.

ثالثاً: مرحلة ترشيد إدارة التنمية وسماتها:

وهذا يدفعنا إلى الدخول في مرحلة الترشيد ؛ ترشيد إدارة التنمية، لأنه من دون هذه المرحلة سنظل نعاني من مشكلة المرحلة السابقة ؛ مرحلة التشغيل، ولن نصل إلى أن ننتج، ونبذّر كثيراً من مواردنا ونضيع أنفسنا.

في مرحلة الترشيد نقف أولاً عند الجهاز التاريخي الذي بدأنا به، لنرى ما هي إفرازاته أو نتائجه، فنقيمه، ومن هذا التقييم نأخذ النظرة المستقبلية، لأن هذا هو المنهاج العلمي السليم في تحليل الثورة الإدارية على هذا المستوى العام والكلي. وأريد أن أركز على بعض السمات الخاصة بإدارة التنمية العربية التي تكاد تكون مشتركة بين كل النماذج، بالنظر إلى بعض النتائج. والسمة الأولى الظاهرة هي أن حجم أجهزة الإدارة في النماذج العربية يزداد ازدياداً كبيراً جداً في جميع هذه الدول. ففي مصر ازداد الجهاز الإداري من حوالي 100 ألف، سنة 1952، إلى ما يقارب 4 ملايين في الوقت الحالي، وفي المملكة العربية السعودية زاد عدد الموظفين الإداريين من 70 ألف سنة 1971، إلى حوالي ربع مليون في الوقت الحالي، وفي الإمارات العربية المتحدة بلغت نسبة الزيادة طوال العشر سنوات الماضية معدلات هائلة. وهكذا في كل البلاد العربية نجد زيادة كبيرة في



العمالة، وبالتالي في مخصصات العنصر البشري الذي نسميه في الميزانية الباب الأول والباب الثاني: المرتبات والأجور والنفقات الإدارية فالمتوسط العام للدول العربية في الباب الأول والباب الثاني من ميزانياتها لا يقل عن 50 %، وهي نسبة عالية جداً، معناها أن كل 100 ريال نستثمر منها 50 ونصرف عليها 50 حتى يتسنى لنا استثمارها. والنسبة المذكورة هي المتوسط، وقد تكون أكثر في بعض النماذج أو أقل، وهذا المتوسط جد مرتفع مقارنة بالمعايير العالمية التي نسير عليها. وسنجد مبررات موضوعية في مرحلة التشغيل لهذه الزيادة الطبيعية لأنها تحتاج إلى تدعيم هذه الأجهزة، ولا بد من تكوينها بشرياً ومادياً، ولكن في حالات كثيرة سنجد أن هناك مفهوماً يظهر تدريجياً في نماذج إدارة التنمية العربية وهو مفهوم خاطئ ومنطلقاته خاطئة، وهو اعتقاد أنَّ الجهاز الإداري وعاء يمكن أن يستوعب كل الأيدي العاملة الراغبة في الانتفاع بمزايا الوظيفة العامة، بغض النظر عما إذا كانت هذه القوى البشرية قادرة على العمل إلى درجة ما حتى تنتفع، فهي راغبة ولكن هل هي قادرة؟. وهذا أمر خطير يحتاج إلى دراسات موضوعية للاحتياجات الفعلية للإدارة، وهو أمر مفقود في كثير من نماذج إدارة التنمية العربية، وإن كان موضوع اهتمام عند المسؤولين على التنمية العربية والمهتمين بمسائل وقضايا إدارة التنمية في العالم العربي. وفي هذا المجال أشير إلى مؤتمر انعقد في الكويت في العام الماضي لمناقشة هذه الظاهرة حيث أثيرت عدة تساؤلات:

1 - إلى أي حد يمكن معاملة إدارة التنمية كوكالة استخدام؟ وهل هذا بالضبط يتفق مع توجيهات إدارة التنمية ذاتها كأداة اقتصادية كاملة؟

2 - إلى متى تتحمل إدارة التنمية العمالة الزائدة والتضخم الموجود الذي له تأثير ملموس على إنتاجية الموظف والمؤسسة الإدارية بشكل عام؟

3 - هل يمكن تحقيق أي تطوير إداري أو إصلاح إداري في ظل هذا التضخم؟

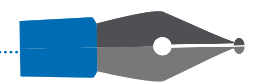
4 - هل تستطيع موارد النماذج العربية أن تتحمل هذا التزايد المستمر الدائم وهذه الأعباء التي ليس لها أي سند اقتصادي واجتماعي؟

الإجابات عن هذه التساؤلات مهمة جداً، لأن القضية ليست قضية موظف زائد بقدر أن هناك مفهوماً خاطئاً مفاده أن الإدارة وعاء يستوعب أي شخص لا يجد عملاً. وهذا خطأ، لأن هناك فرقاً بين حق المواطن في الحصول على عمل، وحقه في التوصل إليه، وهناك فرق شاسع بين هذا وذاك، من حق المواطن على دولته أن تعينه إذا كان لا يستطيع أن يجد عملاً، ولكن ليس من حق المواطن أن يعمل في وظيفة نحن في غير حاجة إليها أو هو غير مؤهل لها.

في الـدول المتقدمـة هنـاك بطالـة ولكـن لا يعالجونهـا بتشـغيل العامـل في غـير مـا هـو مؤهـل لـه وإنمـا يعطونـه إعانـة، فعندمـا يجـد عمـلاً تتوقـف الإعانـة، وإذا انقطـع عـن العمـل تعـاد إليـه الإعانـة. وكل هـذا لأن الإدارة عندهـم أداة اقتصاديـة.

أمـا السـمة الثانيـة التـي تعتـبر سـمة خطـيرة أيضـاً فهـي النمـو الخطـير في مراكـز الدعـم التـي تتـم مـن خـلال إدارة التنميـة العربيـة، لأن الكثـير مـن الخدمـات التـي تقدمهـا إدارة التنميـة يتـم الحصـول عليهـا إمـا مجانـاً أو بأقـل بكثـير جـداً مـن التكلفـة. وقـد كانـت هـذه السـمة الثانيـة إحـدى ضرورات إدارة التنميـة عنـد بـدء ظهورهـا، تعبـيراً عـن توجـه السياسـات العامـة العربيـة إلى إيصـال الخدمـات لمواطـن عـربي ظـل محرومـاً منهـا فـترات طويلـة، وأصبـح يأمـل في الحصـول عليهـا في ظـل حكوماتـه الوطنيـة. ومـع الإقـرار بـأن بعـض تلـك الخدمـات هـي مـن حقـوق المواطـن التـي تكفلهـا لـه الشرائـع والاتجاهـات الاجتماعيـة الحديثـة، إلا أننـا أصبحنـا نواجـه واقعـاً إداريـاً أليمـاً مـرده عـدم وجـود مفهـوم موضوعـي لمـن يقـدم لـه هـذا الدعـم وكيـف وإلي أي حـد؟ وقـد أدى تقديـم هـذا الدعـم للمواطـن مـدة عـشر سـنوات أو أكـثر إلى تطـور إنمـائي هائـل في المجتمعـات العربيـة، سـواء في أجـور الأفـراد في تطلعاتهـم، وبالتـالي فـإن اسـتمرار تقديـم الدعـم بنفـس مفاهيـم بدايـات إدارة التنميـة هـو أمـر خاطـئ فـوق كونـه خطـيراً، فليسـت قضيـة نقـص المـوارد أو زيادتهـا هـي القضيـة، وإنمـا المشـكلة هـي اعتبـار أن إدارة التنميـة هـي في ذات الوقـت أداة للتعليـم، فنحـن نعلّـم المواطـن تعليـماً خاطئـاً عندمـا نعطيـه أشـياء بـلا مقابـل، لأنـه سـيتعود عـلى ذلـك هـو وأولاده. وأنـا أتسـاءل وأخـرج قليـلاً عـن النـص: فمثـلاً في البيـت عندمـا يطلـب ابننـا حاجـة ونرفـض طلبـه، هـل يعنـي ذلـك بالـضرورة أنـه لا مـال عندنـا لتوفيرهـا؟ أو نحـن نعلمـه أنـه عندنـا يطلـب حاجـة يجـب أن يكـون لهـا ضرورة وفي حـدود معقولـة وفي إطـار الإمكانيـات المتوفـرة؟ أنـا لا أريـد أن يتصـور البعـض أن هـذا الانطبـاع يـأتي مـن بعـض نمـاذج إدارة التنميـة، بـل أتكلـم بصفـة عامـة، ولا أفـرق في هـذه السـمة بـين دولـة تتصـور أن مواردهـا كبـيرة ودولـة قليلـة المـوارد، لأن كليهـما متفقـان عـلى أن الدعـم هـو تعليـم خطـير، ففـي بعـض نمـاذج إدارة التنميـة كان المواطـن يعمـل أشـياء كثـيرة في وقـت قريـب كان يـزرع، يصطـاد، يصلـح أرضـه، يبيـع إنتاجـه، فقـد كان عنـده مـن الشـجاعة والقـوة أن يعمـل كل هـذه الحاجـات ويفتخـر بهـا، وأصبـح الآن لا يعمـل حاجـات كثـيرة ويتصـور أن القيمـة الاجتماعيـة في أنـه لا يعمـل شـيئاً، وهـذه سـمة رديئـة وآثارهـا سـيئة.

والسـمة الثالثـة التـي نـود الإشـارة إليهـا هـي عـدم الإفـادة بشـكل كاف في اقتصادنـا



من المؤسسات التعليمية التي نمت نمواً هائلاً في نماذج إدارة التنمية. فعلاوة على ملاحظات كثير من الباحثين حول النمو الكبير في التعليم إلا أنه لم يوازه تطور كيفي، وهناك ملاحظتان كبيرتان يجب إبدؤهما في هذا الموضوع.

1 - عدم الإفادة بقدر كاف من ثقافة المرأة المتعلمة في كثير من الدول العربية، حيث إن أعلى مستوى في نسبة عمل المرأة المتعلمة في الدول العربية أقل بكثير من المستوى في الدول المتقدمة، وقد شاهدت الملك فهد في التلفزيون يخاطب أساتذة جامعة البترول والمعادن مدة ساعة ونصف، وأثير موضوع عمل المرأة، فكان رده أنه لا تعارض بين الشريعة الإسلامية وهذا الموضوع والمجال مفتوح، ويمكن التفكير في كيفية إفساح المجال للمرأة (عمل قسم للمعاملات، توجيه البنات إلى الأعمال التي تتفق مع شرائعنا وتقاليدنا، والمرأة العربية جديرة بالاحترام وجديرة بأن تنال مكانها في المجتمع).

2 - في معظم نماذج إدارة التنمية لم يقع إفراز القدر الكافي من القوى العاملة المؤهلة للعمل في بعض الاختصاصات التي ما زالت إدارة التنمية تعاني من نقص مرير فيها، مثل المعلومات والتخزين والإدارة المكتبية والوظائف الفنية، والملاحظين... وقد أدى ذلك إلى تحمل إدارة التنمية في دول الكثافة السكانية أعباء وزارة معاونة أكبر بكثير من حاجاتنا، لقلة الكفاءات، والمحاولة الخاطئة لعلاج مشكلة النقص الكيفي بالفقر الكمي والنقص في المهارات. فالعلاج الخاطئ يتمثل في أن النقص الكيفي يعالج بالزيادة الكمية في الموظفين، فيكوّن مشكلات للإدارة، مع لجوء نماذج إدارة التنمية نادرة السكان إلى استيراد عمالة أجنبية بشكل متزايد في الاختصاصات الضرورية للإدارة، والتي هي غير متوفرة.

وننتقل إلى سمة رابعة وهي سلبية النظام الاجتماعي والثقافي، وسأشير إلى بعض الظواهر، كظاهرة العزوف عن العمل في بعض الأعمال الإدارية أو الفنية، على أساس أنها غير محترمة، مما يؤدي إلى نقص شديد في هذه الوظائف. وكذلك ظاهرة عدم احترام الوقت والارتباط، وعدم الالتزام بتعليمات الإدارة وتوجيهات الرؤساء، مع سلبية التعاطف بين الموظفين وشيوع مظاهر التنظيم اللارسمي في إدارة التنمية، وظهور قيادات اجتماعية مؤثرة، أو انتشار العلاقات والمنطلقات الشخصية في دوائر العمل، أو تجاوزات الإدارة في التقسيمات الإدارية الرسمية، وغير ذلك من مظاهر تؤثر تأثيرات سلبية عديدة على إدارة التنمية. وقد أردت من خلال هذه السمات أن أبيّن أن المرحلة الأولى والمرحلة الثانية تقدمان تحدياً كبيراً نعتقد أنه من أبرز التحديات التي تواجه حكوماتنا الوطنية في هذه المرحلة. ومع

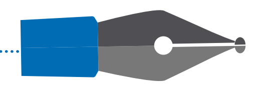
إقرارنا بهذه السلبية أو السمات ذات الجانب السلبي فنحن نعترف بالحقيقة في أن هناك تغييرات إيجابية عديدة، ومن ذلك أننا نحن الآن جالسون نتكلم ونتناقش وتوجد مؤسسات عديدة تكونت، ومشروعات أقيمت ونحن نسعى لإبقاء التطور ونسعى لتدعيمه ونعترف أنه موجود، ولذلك يجب أن نحافظ عليه، لأن الأمر يتعلق بمستقبلنا ومستقبل أولادنا. وإحصائيات البنك الدولي تقول أن معدلات التنمية في البلدان العربية في الستينات وفي منتصف السبعينات زادت ثم بدأت تراجعها بعد ذلك. وعندما نناقش هذا نريد معرفة محاولات النماذج العربية في مواجهة الظواهر المذكورة، فمنذ تصميم نماذج إدارة التنمية ونحن نحس أن هناك مشكلات، ومنها مشكلة خطة سياسة الإدارة نفسها، فما هي مجهوداتنا في ذلك؟

التنمية الإدارية

نلاحظ أن إدارة التنمية تولد عنها نشاط إداري عربي هام، وهو ما يسمي بالتنمية الإدارية، وقد ظهر واضحاً للحكومات العربية وهي تبدأ مسيرة إدارة التنمية أنَّ أجهزتها الإدارية بحاجة ماسة إلى عمليتي إصلاح وتطهير شاملتين قبل أن تتمكن من تحقيق آمال السياسات الإنمائية العامة المعقودة عليها. ولا أريد هنا أن أقول إن مشكلات إدارة التنمية التي ذكرناها هي مشكلات الإدارة، وإنما الإدارة مسؤولة عنها فقط.

التنمية الإدارية تتزامن مع إدارة التنمية وتسير معها خطوة خطوة. وفي الدول العربية هناك اعتراف كامل بأن هذه القضية مهمة، وقد جهزت جدولاً جمعت فيه كل أجهزة إدارة التنمية في العالم العربي مصر، المغرب.. إلخ فكل دولة عربية فيها جهاز أو أكثر مسؤول عن التنمية الإدارية وبذلت جهداً كبيراً في تحقيقها، فكيف نقيم وجود هذه المؤسسات والأجهزة خصوصاً، وقد أعلنا في بداية الثمانينات أننا نعيش حقبة التنمية الإدارية، وهذا إحساس من أساتذة الإدارة ومؤسساتها بأننا نواجه مشكلة إدارية خطيرة نسميها حقبة التنمية الإدارية، وعقدت حولها سلسلة من الندوات والمؤتمرات في مختلف البلدان العربية، وأنا لي بعض الملاحظات تناقش ما إذا كان هناك تنمية إدارية حقيقية:

أولاً: إننا نلاحظ بشكل عام في جميع نماذج إدارة التنمية العربية أن المتحقق من مشروعات التنمية العربية أقل من المستهدف، فلم يحقق أي نموذج عربي إطلاقاً المستهدف من مشروعات الخطة تحقيقاً تاماً بنسبة 100% وأحسن معدل = 85% وهناك حالات تتجاوز 45%.وهذه النتائج تقول إن هناك خطأ في التخطيط



أو في الإدارة أو في كليهـما.

ثانيـاً: لاحظنـا في أواخـر السـبعينات في بعـض نمـاذج التنميـة وفي بدايتهـا في نمـاذج أخـرى لجـوء كثـير مـن النظـم الإداريـة العربيـة إلى التوسـع الخطـير في اسـتخدام نظـم إداريـة أجنبيـة بأسـلوب الإسـناد أو عقـود الإدارة، وهـي ظاهـرة تعـد مـؤشراً عـلى عـدم نجـاح إدارة التنميـة في بعـض القطاعـات، كإدارة المقـاولات، والإدارة الفندقيـة، وخدمـات الصيانـة وبعـض القطاعـات الصناعيـة. وإذا كان مـن المفيـد انفتـاح إدارة التنميـة العربيـة عـلى النظـم والتكنولوجيـا الإداريـة العالميـة، وهـو مـا يحـدث فعـلاً مـن خـلال عـدة قنـوات، إلا أنـه مـن الخطـأ نمـو الإدارة بالاعتـماد عـلى الإدارة الأجنبيـة، وهـذه ظاهـرة تسـتوجب الوقـوف عندهـا والتسـاؤل عـن عـدم توفـر كـوادر إداريـة كافيـة، وأيـن هـي التنميـة الإداريـة التـي بـدأت مـع إدارة التنميـة؟ وأيـن كانـت؟ ومـاذا عملـت؟ ولمـاذا لم توفـر كـوادر؟

هـذه الملاحظـة تعطـي فكـرة عـن المظاهـر التـي أفرزتهـا المرحلـة الأولى والمرحلـة الثانيـة، وقـد أوصلـت هـذه المظاهـر كثـيراً مـن أسـاتذة الإدارة إلى حالـة مـن الإحبـاط، فمثـلاً أحـد الأسـاتذة في كتـاب اسـمه (التنميـة المفقـودة) يـرى أن التنميـة ليسـت إلا سرابـاً، وآخـر يقـول إنـه حـاول العثـور عـلى كتابـة عربيـة واضحـة عـن العمليـة الإداريـة لاسـتخدامها في تدريـب مـدراء الإدارة المتوسـطة فلـم يجـد أي كتـاب واضـح مفهـوم، فـما بالـك بتدريـب مـن لا يعـرف شـيئاً عـن الإدارة (راجـع كتـاب الإدارة-المفاهيـم - الأسـس - المهـام للدكتـور إبراهيـم منـف - دار العلـوم 1980 م).

وكذلـك الدكتـور عبـد المعطـي عسـاف وهـو أحـد الباحثـين النابغـين الذيـن لهـم مسـتقبل كبـير في العـالم العـربي؛ إذ نجـد جميـع كتاباتـه تتسـم بنظـرة تشـاؤمية شـديدة جـداً إزاء إدارة التنميـة العربيـة، وكذلـك د. عامـر الكبيـسي أسـتاذ ورئيـس قسـم الإدارة العـام بجامعـة بغـداد، الـذي تتسـم كتاباتـه بنفـس النزعـة. وعمومـاً فإننـا إذا اتبعنـا مـا جـرى مـن مناقشـات ونـدوات ودورات عـن الإدارة في العـالم العـربي خـلال العـشر سـنوات الأخـيرة، فإننـا نخـرج بنتيجـة غـير سـعيدة، وأنـا اختلـف مـع هـذه الاتجاهـات لأن هـذا الانطبـاع فيـه تشـاؤم ليـس مـن صفاتنـا، ولا يجـب أن يكـون منهـا، وأصحـاب هـذا الانطبـاع لم يبذلـوا جهـداً كافيـاً في دراسـة الأوضـاع العربيـة واقـتراح الحلـول الملائمـة لمشـكلات الإدارة، واكتفـوا في الفـترة التـي أعقبـت تصميـم النظـم وتشـغيلها بأنهـم يأتـون بحاجـات ويطبقونهـا كـما هـي، وقليـل مـن الذيـن تخصصـوا وأنفقـت عليهـم حكوماتهـم وأعـدوا للماجسـتير أو الدكتـوراه قليـل منهـم مـن بـذل جهـداً في دراسـات ميدانيـة في بلـده، بـل إن البعـض اسـتقر بالخـارج ولم يـرض بالرجـوع وقـال:

إن العالم العربي ميؤوس منه وظل في الخارج، وأفراد هذه المجموعة مع كل احترام لتفكيرهم يفترض أنهم عادوا وبينوا لماذا ميؤوس من هذا العالم العربي الذي أنفق عليهم وشاركوا في دفعه إلى الأمام. وهناك مجموعة ثانية اكتفت بالدراسة الأكاديمية وبالتعليم الأكاديمي الذي يتصف بقدر كبير من عدم التعاطف مع حقيقة أن هذه البلدان آخذة في النمو، وتواجه مشكلات خطيرة ويجب أن تتعاون جميع القوى العلمية في علاجها، ولذلك يجب في هذه المحاضرة أن نحاول تغيير التوجه التشاؤمي قدر الإمكان إلى توجه تفاؤلي.

هناك بعض الملاحظات حول كيفية سير الإدارة في الخارج وكيفية سيرها عندنا، والحال أنها تتطور بسرعة، والمشكلة أننا بصدد النمو، والمتقدمون أيضاً مستمرون في نموهم وهم لا ينتظروننا لنسير معهم، فربما نموهم أبطأ ولكنه يمد أكبر، والأساس الذي يستند عليه عائده الاستثماري أكبر، فمثلاً من يستثمر 100 ألف ريال، له 30 %، ومن يستثمر 100 مليون له 300 %، فهذا سيكون تقدمه أكثر. هم مستمرون في التطور ونحن نريد أن لا تتسع الفجوة بيننا وبينهم بل نريد تضييقها. في الولايات المتحدة الأمريكية تضاعفت إنتاجية الفرد ساعة كل 20 سنة بعد ما كانت تتضاعف كل 40 سنة قبل الحرب العالمية الثانية، وذلك يعني أن الإنتاجية تتضاعف كل 20 سنة.

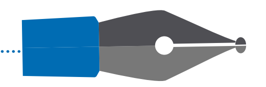
وفي الستينات كان عدد المدن التي يزيد عدد سكانها عن مليون ساكن 42 مدينة في العالم، وأصبح عدد هذه المدن في الثمانينات 150 مدينة يفوق عدد سكانها المليون نسمة، سنة 1930 كان نصاب كل 40 مواطن في العالم ميل مربع من سطح الأرض فصار سنة 1970 عدد السكان في الميل المربع الواحد 63 ومن المتوقع في سنة 2000 أن يصير 142 لكل ميل مربع.

الحكومة الفيدرالية في أمريكا تنفق على البحوث وتطوير التكنولوجيا أكثر من 40 مليون دولار سنوياً، بغض النظر أنه إنفاق حكومات الولايات المتحدة أو كبرى الشركات.

ولقد أصبح قطاع الخدمات التي تعين الإدارات أهم قطاعات الاقتصاد القومي في معظم الدول المتقدمة، فهو بمثابة صناعة.

ويوجد في العالم الآن أكثر من 90 % من العلماء الذين أظهروا منذ بدء الوجود، فقد وقع إحصاء لهم وثبت أن 90 % منهم موجود حالياً في عصرنا الذي هو عصر العلم، فأين مكاننا في كل هذه الإحصاءات؟

الإدارة في الدول المتقدمة تواجه التطور، وتتطور معه بسلسلة من الأنشطة



الإصلاحيـة التـي تبنتهـا أعـلى المسـتويات الحاكمـة في تلـك البلـدان. وفي هـذا المجـال أشـير إلى تشريعـات الإصـلاح المـالي والإداري الأمريـكي لسـنوات 46 - 50 - 70 - 74 - 78، فالرؤسـاء الأمريكيـون عـلى الرغـم مـما يتوفـر عندهـم مـن أجهـزة إصـلاح إداري، فقـد خامرهـم إحسـاس أنـه كل سـبع أو عـشر سـنوات مـن الـضروري أن تحـدث حركـة إصـلاح فوقيـة تكـون فيهـا المبـادرة مـن الرئيـس الأمريـكي نفسـه، ليعـرف أن أجهـزة الإصـلاح تدخـل في مشـكلات كثـيرة يوميـاً، فجهـاز الإصـلاح يصبـح جـزءاً مـن النظـام الإداري. وقـد وجـد الرئيـس الأمريـكي نفسـه محتاجـاً كل مـرة إلى أن يكـوّن لجنـة صغـيرة مـن بعـض الممارسـين الكبـار لتوصلـه إلى الجهـاز الإداري حيـث تقـدم اقتراحـات، وعـلى ضوئهـا تتخـذ قـرارات وتشريعـات، وكذلـك كُوّنـت لجـان مشـابهة في بريطانيـا في أواخـر السـتينات. وبالرغـم مـن توفـر أجهـزة للتطويـر الإداري، إلا أنهـم أرادوا وضـع شيء يحـرك النظـام الإداري. ويمكـن الإشـارة إلى الإصلاحـات الإداريـة الحاليـة لحكومـة المحافظـين بقيـادة مارجريـت تاتـشر، التـي اسـتخدمت مـا يسـمى بالرأسـمالية الشـعبية التـي تعنـي بيـع بعـض وحـدات القطـاع العـام للمواطنـين لتنميـة مـوارد الدولـة وتنشـئة مواطـن الخدمـات، فهـذه قـرارات جريئـة مـن القيـادة تحـرك الجهـاز الإداري، وكذلـك في فرنسـا كانـت الإصلاحـات الإداريـة في مجـال التخطيـط مركزيـة.

النتائج

وأهم نتائج ما سبق ذكره يمكن حصره في نقطتين هامتين:

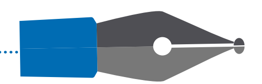
1 - تأكيد دور رئيس متميز للعناصر الاستشارية في الإدارة، فقد أعطيت هذه العناصر من النفوذ ما جعلها قوية فعالة مع أنه ليس لها سلطة وكنها قادرة على اتخاذ القرار ودعمه.

2 - تطوير النظم الكمية أو نظم المعلومات بشكل كبير جداً، وبذلك يتبين أنَّ جميع النظم تتطور تطوراً هائلاً في اتجاهين.

العناصر الاستشارية ونظم المعلومات

يعتبر اتجاه نظم المعلومات اتجاهاً مهماً، لأنه يعد انطلاق التطبيق العلمي للإدارة التي هي أمام خيارين، إما أن تأخذ قراراتها بمعلومات، أو تأخذ باجتهادات. ونحن نريد هذين الأمرين معاً، فالمدير على مكتبه يأخذ القرارات مستنداً إلى معلومات، ويستخدم تقديره الخاص، ونريد أن تكون نسبة استخدام تقديره الخاص محدودة حتى يعتمد أكثر على المعلومات، ليكون عمله في إطار الموضوعية والتجرد والنزاهة، وفي عصرنا صارت قرارات الإدارة قاعدة معلومات، بينما الشخصية والذاتية لا تعتمد على قاعدة المعلومات. ومن المؤسف أنه في جميع نماذج إدارة التنمية العربية تنقصنا الموضوعية، وعلينا أن نطوّر وضعنا ونكون كمّيين في قراراتنا ومعتمدين على المعلومات، فعندما نعيِّن نعتمد على المعلومات، وعندما ننقل أو نرقّي أو نفصل نستند دائماً على المعلومات، وحتى ننصف ولا نظلم أحداً يجب أن نكون كميين حتى نظل علمانيين، وهذا هو المقترح الرئيسي: إن مرحلة الترشيد مرحلة علمانية.

ونجد في هذه المرحلة آراء كثيرة تطلع علينا بأفكار خاطئة غير عملية، كأن نواجه العمالة الزائدة بالخلط بين الموظفين، فكيف يمكن ذلك؟ هل هذا علاج؟ العلاج يكمن في تطوير الموظف، فالموظف نؤهله بطريقة ما لحاجة تلزمنا (تدريب تحويلي) والموظف الذي هو خارج العمل ولا يعمل نبحث له عن فرصة، وإذا لم يكن له مكان فيجب دائماً البحث عن الحلول العملية.



ومـن الآراء التـي يصعـب تنفيذهـا عمليـاً فكـرة الاقتصـاد المتنـوع أو تنويـع الاقتصـاد، فكيـف يمكـن العمـل بـه ونحـن تعثرنـا في الاقتصـاد غـير المتنـوع، ولم نعـرف إدارتـه بمـا فيـه الكفايـة. قبـل التفكـير في التنويـع يجـب أن نحسـن أداءنـا بمـا لدينـا. والحـل هـو اعتـماد مدخـل كمـي بـشري في نفـس الوقـت، لأنـه يفتـح لنـا البـاب أمـام المشروعـات العديـدة، ونحـن إذا طوّرنـا البـشر فسـنهتم بالمدخـل الكمـي، وإذا طوّرنـا المدخـل الكمـي فسيسـاند المتطوريـن، وعندمـا نسـأل عـن عـدم اسـتخدام الكمبيوتـر نجـد أن السـبب عـدم وجـود قـدرٍ كافٍ مـن النـاس المؤمنـين بالمدخـل الكمـي.

والمدخـل الصحيـح أننـا نعمـل مثـلاً مـا يسـمى (اسـتراتيجية الصدمـة) مثلـما حـدث في اليابـان في الحـرب العالميـة الثانيـة، عندمـا صـدر قـرار بفصـل 250 ألـف موظـف مـن الجهـاز الحكومـي، والجهـاز الإداري كان جهـاز حـرب، فانهزمـوا في الحـرب وراحـوا يبحثـون عـن حلـول لمشـكلاتهم، وهـذه الحلـول اسـتثنائية، فالحـل ليـس في الاسـتغناء عـن العمالـة بـل في ترشـيد وتطويـر العنـصر البـشري واسـتخدام المدخـل الكمـي بطريقـة فعالـة وعلميـة.

والجديـر بالذكـر أنـه في المرحلتـين الأولي والثانيـة وحتـى الآن لم تدخـل إدارة التنميـة العربيـة بعـد في المرحلـة العلمانيـة، فـما زالـت في مرحلـة مـا قبـل العلمانيـة، ومـا زالـت ذاتيـة أكـثر منهـا موضوعيـة. وإذا أردنـا أن ندخلهـا مرحلـة الترشـيد يجـب أن نفكـر التفكـير السـليم، لأن القضيـة لا تحـل بالاسـتغناء عـن موظـف أو بإغـلاق خطـة، ولكـن تحـل بالعلمانيـة وبتطويـر العنـصر البـشري ومسـاندته بحيـث يسـتطيع أن يأخـذ القـرارات السـليمة.

في ختـام هـذا اللقـاء أقـترح عـلى نمـاذج إدارة التنميـة العربيـة أن تهيـئ تغيـيراً يحـدث في أحـد النـماذج ويؤثـر عـلى البقيـة منهـا، وهـذا يقتـضي مزيـداً مـن التعـاون بـين البلـدان العربيـة في ميادين البحـث وتبـادل الخـبرات والبحـث عـن حلـول للمشـكلات الإداريـة، وعـلى جامعاتنـا أن تتبنـي مشروعـات الترابـط بـين مـدارس الإدارة العربيـة وتُكْثِر مـن تبادل الأسـاتذة والخـبراء والمهندسـين، لأن في ذلـك حـلاً لكثـير مـن الإشـكالات التـي تعانيهـا إدارة التنميـة العربيـة التـي عليهـا أن تدخـل في مرحلـة تعـاون عـربي في ميـدان القـوى العاملـة، ومعالجـة الخلـل في توزيـع هـذه القـوى.

وقـد اكتسـبت النظـم الإداريـة العربيـة خـبرات فنيـة يمكـن أن تكـون ذات مزايـا في تبـادل المعرفـة الإداريـة. ألم تكتسـب الإدارة السـعودية خـبرة واسـعة في تنظيـم إدارة موسـم الحـج تخطيطـاً وإدارة؟ ألم تسـتخدم في ذلـك إمكانيـات متقدمـة لعنـاصر بشريـة كفـؤة ومـن قطاعـات



عمل مختلفة تتعاون معاً لإدارة موسم الحج بنجاح؟ ألم تكتسب الإدارة التونسية والمغربية والمصرية واللبنانية خبرات واسعة في مجالات الإدارة الفندقية والسياحية؟ ألم تكتسب الإدارة الجزائرية خبرة في مجال إحياء الصحاري وإصلاح الأراضي، ألم تكتسب الإدارة المصرية والعراقية والسورية خبرات في المجالات الصناعية؟ وكذلك الأمر في الإدارة الخارجية. وهكذا نستطيع بمزيد من البحث أن نضع أيدينا على خدمات متطورة في كل النظم العربية، والتساؤل: لماذا لا نتبادل الخبرات مع بعضنا؟ لماذا لا نتعاون أكثر في نقل هذه التجارب لبعضنا؟ إن خطوة ما يشبه النادي أو الملتقى الإداري العربي المشترك كإطار منظم بعيداً عن التعقيدات الرسمية لتبادل الخبرات والمصالح لا بد أن يساعد في تطوير نماذج إدارة التنمية، لأن هذا هو المدخل السريع لتطويع تكنولوجيا الإدارة العامة لمتطلبات العصر، والواقع والدراسات المقارنة المدعومة بتبادل العلاقات والخبرات لا بد أن يساعد على تقليص المشكلات، وتقريب الحلول، ووضع البرامج التنفيذية للعلاج والتطوير الإداريين، وهناك حاجة ملحة لاعتماد المدخل الكمي في هيكل نظم إدارة التنمية العربية، لأنه يقوي النظرة الموضوعية علاوة على كونه متطلباً أساسياً لإدارة التنمية المعاصرة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

محاضرة

الإيدز هذا الخطر الزاحف

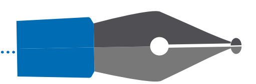
١٩٨٧/٢/١٦



الدكتور:

عبد الله الباكر

رئيس أقسام الجراحة
بمؤسسة حمد الطبية



نص المحاضرة

أيها الإخوة الحاضرون؛ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. يطيب لي قبل أن أبدأ معكم في مشوار هذا المساء أن أتقدم بالشكر الجزيل للمسؤولين بنادي الجسرة الثقافي الذين عودوني على الالتقاء بكم كلما كانت الظروف ملائمة.

منذ عامين كنت ألقي محاضرة هنا بالنادي، وقد سألني أحد الإخوة سؤالاً واحداً عن مرض الإيدز، وكان جوابي لا يتعدى الخمسة أو الستة أسطر، تحتوي على المعلومات المتوفرة في ذلك الوقت. ولو ربطنا هذا السؤال بما هو حادث في العالم عن هذا المرض لوجدنا أنه في أوائل عام 84 وأواخر 85 كان الواقع في أمريكا حيث بدأ المرض يعرف على أنه أحد أمراض الشذوذ الجنسي، وهذا عقاب من الله لهؤلاء الشواذ، فليموتوا وليواجهوا مصيرهم. لكن الأمر بدأ يختلف بعد ذلك، وبدأت تكثر الدراسات والحالات المرضية، وتخطت حالات مرض الإيدز جميع الحدود إلى أن وصل الأمر إلى أن وقف الدكتور (مهلر) السكرتير العام لمنظمة الصحة العالمية يعلن في نهايات عام 86 أن مرض الإيدز وباء عالمي.

بدأ انتشار الوباء في العالم يأخذ الشكل التالي: الشكل المتوطن. وهذه أمراض تحدث في كل بلد على حدة، وإن انتشرت إلى بقعة قريبة. وهناك أيضاً نوع آخر يأخذ شكل الوباء وينتشر إلى رقعة أكبر فيصبح الوباء عالمياً ويسمي Epidemic Global. وحتى الآن فإنَّ 79 بلداً قد أبلغت منظمة الصحة العالمية عن وجود حالات لمرض الإيدز. وكلمة حالات تعني المجموعة المريضة بمرض الإيدز، وكلمة مصابين تعني المجموعة المصابة، وليس معنى ذلك المريضة منها. الحالات التي بُلّغت كمريضة بعد ما استنفدت كثير من الدول جهدها واعترفت أنها عندها مرضى. ونحن من على هذا المنبر نفخر أن دولة قطر لم تكن كالنعامة، فنحن لم نخبئ رؤوسنا في الرمال. فقد أعلناها صراحة أن عندنا حالات من مرض الإيدز. وأعتقد أن الخدمات الصحية الجيدة هي التي تقول الحقيقة لجماهيرها ومواطنيها، نحن عندنا هذا المرض فعليكم أن تنصرفوا لتتقوا هذا المرض وتعالجوا أنفسكم منه، لا يوجد بلد في العالم في الوقت الحاضر يخلو من مرض الإيدز.

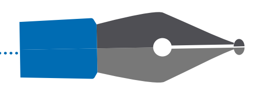
لقد أبلغت الدول الإفريقية عن 378 فقط حتى تاريخ 12/8/ 1986، وتعتقد

منظمة الصحة العالمية في الملحق الذي أصدرته في أوائل شهر ديسمبر 86 أن هناك 50 ألف حالة مرضية في إفريقيا، وأن هناك من 5 إلى 7 ملايين مصاب في البلدان الإفريقية.

في البداية عندما تحدث الأوروبيون والأمريكيون عن محاولة معرفة مصدر هذا المرض، بدأوا يقولون إنه من إفريقيا، وقد عقد مؤتمر في بلجيكا في نوفمبر 85، وقبل بدئه انسحبت الوفود الإفريقية، وعندما سألوهم عن أسباب انسحابهم قالوا إن هذا المؤتمر مسخر من قبل الاستعمار والبيض الأوروبيين لمحاولة ضرب الاقتصاد الإفريقي. وأسباب الانسحاب لم تكن واقعية، لأن كل مؤتمر تطبع فيه كتب مختصرة، ومن ضمن هذه الكتب كتاب يحوي أوراق عمل أعدها الإفريقيون أنفسهم عن الأمراض الإفريقية. ولكن بعد مرور سنة واحدة دعت معظم الدول الإفريقية جميع المنظمات العلمية ومراكز الأبحاث في العالم لتقديم المساعدات للبحث في مرض الإيدز في دولهم.

وقد قال الأوروبيون والأمريكيون في أواخر 84: يا للويل لو أصاب هذا المرض دولة نامية وبالذات الدول الإفريقية.

إذن من أين جاء هذا المرض؟ فبغض النظر إن كان المرض بدأ في إفريقيا أو غيرها.. أنا لا أعتقد أن بداية مرض في مكان ما قد يضر هذا الشعب أو هذا البلد، لأنه في بعض البلدان تتوطن الكوليرا أو الطاعون اللذين أوديا بحياة 25 مليون نسمة في أوروبا في القرن الرابع عشر. هناك من أخذ بعداً أكبر في قضية مصدر المرض، هناك من يقول إن روسيا هي التي تبنت هذا الموضوع وادعت أن هذا الفيروس أصلاً متسرب من معامل الحروب الجرثومية في أمريكا وأوروبا، ولما تسرب لم يتمكن أحد من السيطرة عليه ولا التحذير منه. والرد على هذا الموضوع علمي، فإن الحروب الجرثومية تعتمد أساساً على هندسة الخلية، بفعل مضبوط واكتشاف البناء أو التكوين البروتيني للخلية الذي تكون فيه الكروموزومات والجينات مصفوفة، بينما هذا الميكروب وهذا الفيروس وجد في عينات من الدم في أواخر الخمسينات. ففي دولة زائير أخذت عينات من الدم وحفظت في عام 59، ولما تم فحصها مرة أخرى اتضح أن هذا الفيروس موجود، وأن تكوينات هذا النوع من الفيروسات الذي فيه نوع من الأنزيمات يعيد صياغة الفيروس.



والفيروس بشكل عام بهذا النوع لم يكتشف مضبوطاً، ولم يعرف إلا في أواخر السبعينات، هذا هو الرد العلمي المعقول الذي يجب أن نقبله على أساس أنه لم يكن أصلاً ناتجاً عن تسرب جرثومي من معامل الحرب الجرثومية.

الدراسات التي تمت حتى الآن يلتزم بها كثير من العلماء مع بعض التعديلات، وهي أن هناك فيروساً يحدث في القردة، وهو فيروس الإيدز. ويعتقد أن القرد الأخضر هو الذي يصاب بهذا الفيروس ولكنه لا يؤدي إلى مرضه، وأثناء معايشته للإفريقيين كان يعض بعض الناس فانتقل هذا الفيروس أثناء التحويلات أو بطفرات، وتحول إلى الفيروس الآدمي الحالي. التفكير المساعد لهذا أنه قد يكون الفيروس الآدمي في ذلك الوقت أيضاً موجوداً، ولكنه لم يصل إلى مرحلة أن يهاجم المناعة. وهذا قد يكون صحيحاً، لأن الفيروس الذي يؤدي إلى هذا الوباء العالمي والخطير الذي يخيفنا جميعاً أضعف الفيروسات، وحتى يستطيع أن يهاجم يقوم بتحولات عديدة، ويعتقد أن هذه التحولات تتم إما عن طريق ترابط مع فيروسات أخرى أو تجانس مع فيروسات أخرى بأخذ الجينات الضعيفة وتسليم الجينات القوية إليها، وقد يكون موجوداً في الإنسان إلى أن وصل إلى هذه المرحلة وبرز.

ما هو الفيروس؟

لقد اكتشف الدكتور مونتابي الذي يعمل في معهد (باستور) الفيروس في سنة 83 وسماه Lav.وبعد سنة اكتشفه «فالو» في أمريكا وسماه Htlv3 وهو يحتوي HTLV1 - Htlv2 وهما يعملان أشياء أخرى، حيث إنهما يهاجمان نفس الخلايا، لكن يعملان على إبراز أنواع من السرطانات، فبدلاً من تدمير الخلايا فإنهما يساعدان على إكثار الخلايا وقد أكمل مجموعته، لذلك الفيروس الجديد بنوع جديد أسماه Htlv4 وقد جاء شخص آخر من أمريكا أسمه « لافي » وادعى أنه اكتشف الفيروس وسماه RAV أو ARV وذلك في شهر سبتمبر 1984، لكن اللجنة الدولية لتصنيف الفيروسات أقرت سنة 1986 أن تسمي الفيروس « فيروس نقص المناعة البشرية » وقد ناشدت جميع الهيئات العلمية والإعلامية أن تتبنى هذا الاسم بقدر الإمكان حتى تنهي بقية الأسماء. وقد تم تسميته HAV وهو فيروس نقص المناعة البشري.

ما هي الصور الوبائية لهذا المرض؟

الجميع يعرف أنه خلال جميع القرون كان الإنسان يتعرض لأوبئة مختلفة معروفة مثل الكوليرا والانفلونزا، تأتي في موجات دورية، وتحصد ما لا يقل عن 5 - 10 ملايين نسمة في كل عملية.

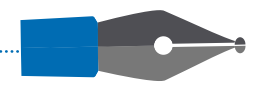
الحالات المرضية لمرض الإيدز التي أبلغت بها منظمة الصحة العالمية حتي يناير 1987 هي 33 ألف حالة، منها 29 ألف حالة في أمريكا، و3500 حالة في أوروبا، وتتقدم الدول الأوروبية فرنسا، وتليها ألمانيا الغربية، ثم إنجلترا، وتأتي بقية الدول الإسكندنافية بعدها، ثم بلجيكا، ويقال إن ثلثي المرضي في بلجيكا من الإفريقيين الذين يعيشون فيها.

يعتقد أن أول حالات مرض الايدز سجلت في أمريكا وهاييتي، وكان ذلك عام 1977 بعد الرجوع إلى فحص الدم، ويعتقد أن المرض انتقل مع السياح إلى هاييتي، حيث إنه نفس نمط المرض الإفريقي. وهايتي تعتبر أصلاً من أحسن المناطق لملتقى الشواذ جنسياً من أمريكا، حيث تعقد فيها مؤتمرات سنوية، ومن خلال هؤلاء انتقل المرض.

يقدّر أن في أمريكا مليون ونصف حالة مصابة، وفي العالم ما يقرب من 85 مليون شخص مصاب، وهؤلاء جميعاً مصابون بالفيروس، ولكن لا تظهر عليهم علامات المرض، هؤلاء المصابون يعدون الناس ولا يعلمون عن إصابتهم بالمرض، ومشوارهم حتى الآن مشوار مظلم وسينتهي بالوفاة.

ماذا يفعل الفيروس؟

الفيروس عبارة عن قطعة بروتينية مكونة من ثلاثة أجزاء، غلاف ولب بروتيني وإنزيم. وخلية جهاز المناعة في الجسم نوعان: نوع عبارة عن جهاز محدود وهو جهاز الخلايا ويقدم وساطته عندما يدخل أي جسم غريب لداخل جسم الإنسان، أو يتكون في داخل جسم الإنسان أي جسم غريب كأي مواد كيماوية غريبة أو خلايا سرطانية، وجهاز المناعة به أجهزة إنذار حساس ومن ضمنها الخلايا البلعمية الضخمة وخلايا (ت) حيث تنبه جهاز المناعة بوجود شيء غريب في الجسم، بعدها



تنقسـم الخليـة « ت » إلى 8 أو 1- 10 خلايـا، حيـث تقـوم كل خليـة بـدور معـين، وتفـرز مـواد مضـادة لقتـل الخلايا السرطانيـة، لكـن ميكـروب أو فـيروس المناعـة يغالـط هـذا الجهـاز. ويعتقـد أن سـبب المغالطـة هـو أن المسـتقبلات في الـرادار في هـذه الخلايا شـبيهة بالمسـتقبلات عـلى خليـة الفـيروس، ويعتبرهـا أنهـا مـن نفـس الصنـف، وليـس غريبـاً عليـه، فيدخـل الفـيروس الخليـة ويتوطـن فيهـا لحـين أن تـأتي ظـروف كاملـة، فيقـوم الأنزيـم ويحـول الفـيروس الـذي لا قيمـة لـه ولا حيـاة لـه إلى شيء حـي يرتبـط بجهـاز الإنتـاج في الخليـة، فبـدلاً مـن أن تكـون الخليـة نفسـها وتتكاثـر، يكـثر الفـيروس. وهنـا تكمـن المشـكلة، حيـث إن الفـيروس قـد ارتبـط بالخليـة. إذاً فـإن أي عـلاج في المسـتقبل لا بـد أن يبـدأ بتدمـير الخليـة حتـى يتمكـن مـن تدمـير الفـيروس، وهـذا في حـد ذاتـه هـو مـا يقـوم بـه الفـيروس نفسـه؛ بمعنـى أن ينهـار جهـاز المناعـة في الجسـم، وبالتـالي يـؤدي إلى ظهـور المشـكلات، ومنهـا فـيروس الإيـدز، ومـرض الإيـدز ومـن ثـم الوفـاة.

كيف يدخل الفيروس الجسم؟

ينتقـل الفـيروس عـن طريـق الاتصـال الجنسـي بمختلـف أشـكاله وأوصافـه وأنواعـه؛ إذ تسـبب هـذا الفـيروس بإصابـة 70 إلى 80 % مـن الشـواذ في أمريـكا، ونسـبة إصابـة الذكـور في أمريـكا 19 مقابـل امـرأة واحـدة، في حـين أن نسـبة إصابـة الذكـور للإنـاث في إفريقيـا وبالـذات في زائـير تعـادل 1 إلى 1.ولقـد بينـت الدراسـات أن غالبيـة العاهـرات في إفريقيـا، وبالـذات في نـيروبي، وزائـير، والسـنغال، كانـت نسـبة 20 إلى 30 % دماؤهـن إيجابيـة، وأكـدت التحاليـل أن نتائجهـن إيجابيـة لفـيروس الإيـدز في عـام 1984.

ارتفعـت تلـك النسـبة إلى 85 % عـام 1985، وهـذا الانتشـار الجنسـي عـن طريـق غـير الشـواذ هـو أحـد مصـادر انتقـال المـرض قـد بـدأ يظهـر وينتـشر أيضـاً في أوروبـا ؛ إذ يمكننـا القـول إن المـرض ينتقـل عـن طريـق المنـي الـذي يحمـل الفـيروس بطريـق الاتصـال الجنسـي.

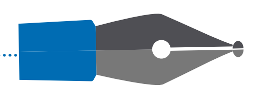
أمـا المصـدر الثـاني للانتقـال فهـو عـن طريـق الـدم ومشـتقاته. وقـد حدثـت بعـض الإصابـات بمـرض الإيـدز في بعـض الـدول التـي تسـتورد الـدم، ففـي أواخـر العـام المـاضي أعلنـت المملكـة العربيـة السـعودية عـن حالتـين، وهنـا في قطـر أعلـن الدكتـور حجـر

أحمد حجر وكيل وزارة الصحة العامة في مؤتمر صحفي أن هناك 8 حالات مرضية توفي منها 5 أشخاص وبقي 3 على قيد الحياة بينهم طفل ما زال في إنجلترا، وامرأة عربية تعالج في المستشفى، أما الشخص الثالث فهو أوروبي يعمل في إحدى الشركات العاملة في قطر. والحل الأمثل لتفادي هذا المرض عن طريق نقل الدم هو الامتناع عن استيراد الدم. وقد بادر عدد كبير من المواطنين في قطر بعد شهرين من المؤتمر الصحفي الذي عقده وكيل وزارة الصحة بالتبرع بالدم. وتوجد لدينا قائمة بالمتبرعين بالدم يمكن الاعتماد عليها، وبذلك نفخر أننا تمكنا من القضاء على أحد الأسباب المهمة التي ينتقل بواسطتها المرض، ولكننا ننصح جميع الأشخاص الذين تم نقل الدم إليهم قبل شهر إبريل 85 أن يبادروا بالكشف على دمهم والتأكد من خلوهم من الفيروس، لأن الفيروس قد يظل في فترة حضانة تصل إلى 7 سنوات، وهو دم غير مكشوف وغير مضمون. ولدى مؤسسة حمد الطبية أجهزة جديدة وحديثة تساعد على الكشف على الدم بكل دقة وتعرف النتيجة خلال 5 أو 6 ساعات. و جميع العينات التي كشفت عن دمها ظهرت نتائجها سلبية، وهذا يبشر بالطمأنينة.

وفي حالة اكتشافنا بطريقة ما أن الشخص مصاب بهذا المرض أو الفيروس، فلا بد من إخباره بأسلوب خاص ويقال له أنت مصاب بالفيروس، لكن هذا لا يعني أن المرض سيصيبك ولا يستطيع أحد أن يعرف حتى الآن إذا كان المرض سيصيبك ومتى سيصيبك؟ وإذا أصابك متى ستشفى، لكن أنت محتمل أن تُعدي الآخرين من خلال اتصالك الجنسي، ومن خلال الدم ومشتقاته، أو من أي من الإفرازات التي من المحتمل تقع أو تلوث الجروح، وعليك بالتالي أن تمتنع عن جميع هذه الأشياء وتبلغ المقربين إليك عنها.

الطريق الثالث للانتقال يكون عن طريق الإبر:

تعتبر الإبر وسيلة لنقل الميكروب والفيروس، خاصة ضمن مدمني المخدرات الذين يتعاطون المخدرات بالإبر، وذلك باستعمالها عدة مرات ومن شخص إلى شخص آخر. تستعمل في مستشفيات حمد الإبر ذات الاستعمال الواحد، ثم وضعها في مكان مأمون استعداداً لإتلافها والتخلص منها.



أيضاً ينتقل المرض عن طريق الأمهات حيث إنه يمكن إصابة الطفل بعد الولادة عن طريق حليب الأم.

الشكل المرضي وأعراضه:

كان الناس في أمريكا يقولون إن من مظاهر المرض أن تظهر على المريض إصابة في الصدر، أو إصابة سرطانية في الأطراف، أو في الجلد، أو الاثنين مجتمعين، ولكن بعد 1986 اتضح أن هناك أشخاصاً مصابين بالمرض ولكن ليست عليهم علاماته، وهناك الذين أصيبوا بالمرض ولكن في دمهم المضادات للأجسام ولا يمكن معرفتهم إلا عن طريق فحصهم بالأجهزة الحديثة، لأنه لا تظهر عليهم أي أعراض. وهناك أشخاص تظهر عليهم الأعراض في الغدد، وغالبية هذه الجماعات في إفريقيا وكندا، وبعض الحالات في فرنسا، أما النوع الآخر من الجماعات المرضية فيظهر عليها أعراض مختلفة منها الإسهال مدة شهر، والحرارة الليلية والعرق الليلي، والاضمحلال أو ضعف الجسم ويسمى بمرض النحافة، واتضح أن فيروس الإيدز يصيب الدماغ والجهاز العصبي وبالذات الجهات العميقة البيضاء والرمادية من أنسجة الدماغ، ويؤدي إلى فقدان الذاكرة. كل هذه الأعراض قد تظهر أو منفصلة عن بعضها. ومن واقع إحصائيات الوفاة بسبب فيروس الإيدز في أمريكا أن المرضى المصابين بالفيروس ظلوا 18 شهراً وتوفي منهم 50 % والذين ظلوا 30 شهراً توفي منهم 76 %.

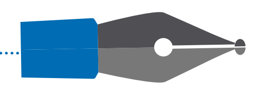
ماذا تفعل وما هو الدواء؟

المطلوب توفير علاج مناسب ودواء يوقف تكاثر الفيروس، ويستطيع أن يعبر حاجز الدم الدماغي، حيث إن الفيروس يدخل في تكوين الخلية وفي إنتاجها، ولكي يتم القضاء على الفيروس يجب القضاء على الخلية، ولكن الخلية هي التي تدافع عن جسدنا، وبهذا فالمطلوب توفير دواء باستطاعته ترميم أو صيانة الخلايا الدفاعية عن الجسم، على أن تكون آثاره الجانبية قليلة على المدى البعيد، وكذلك أن يقوم هذا الدواء بمعالجة، المشكلات والتعقيدات التي يخلقها الفيروس مثل غصابات الأنيميا والسرطانات وغيرها. وللأسف هذا الدواء لم يتوفر حتى الآن، وإنما بدأ العلماء محاولاتهم الحثيثة فركزوا على الدواء الذي يمنع تكاثر الفيروس

ويسمى بالإيزوتي، وأنواع أخرى تحت البحث.. لقد استعملت عدة طرق لتقوية جهاز المناعة ومن جملتها هرمونات Intryouyky،وهو عبارة عن هرمون يقوي إنتاج الخلايا المساعدة كما يسمونها، أو خلايا المناعة، واستعمل هرمون أو خلايا Interphiron المضاد للفيروسات، واستعمل زرع نخاع العظام والغدة التيمومية والخلايا «ت» وذلك من أجل تقوية جهاز المناعة. وهناك دراسات وبحوث وتجارب عديدة تتركز على اكتشاف دواء أو مطعوم يقضي على هذا المرض، ولكن من غير المتوقع أن يُتداول قبل خمس سنوات.

الصورة أمامكم لهذا الوباء الضخم الذي يجتاح العالم، وأملنا أن نمنع وصوله للملايين الباقية، ونحن نقول بملء الفم، إن هذا مرض جنسي ويصيب الممارسين الجنسيين بمختلف أنواعهم وأشكالهم، والطريق الأمثل هو الكف عن الممارسات الجنسية الخاطئة والامتناع عن الرذيلة والتسلح بتعاليم ديننا الحنيف.

والسلام عليكم



المناقشـة

س: عنـد بدايـة انتشـار مـرض الإيـدز ظهـر مصطلـح ورد في وسـائل الإعـلام بكـثرة هـو « الهريـس » فـما علاقـة هـذا بذلـك؟ ثـم ظهـرت عبـارة (نقـص المناعـة المكتسـبة) فـما معنـى مكتسـبة؟ وهـل هنـاك إمكانيـة تصنيـع الفـيروس؟ وهـل صحيـح أن بعـض أنـواع الحبـوب المانعـة للحمـل تدخـل في عـلاج هـذا المـرض؟

ج: (نقـص المناعـة المكتسـبة تسـمية أطلقتهـا (منظمـة الصحـة العالميـة)، فالإيـدز ليـس مرضاً وإنمـا هـو ظاهـرة؛ متلازمـة فيهـا عـدة أمـراض، أمـا الهريـس فليـس هـو الإيـدز وإنمـا هـو فـيروس يصيـب المناطـق الجلديـة والأعصـاب ولـه أسـماء مختلفـة، ويختلـف عـن فـيروس الإيـدز الـذي يتخصـص في إصابـة خلايـا جهـاز المناعـة ومنهـا خلايـا (T) والخلايـا البلعميـة.

وبالنسـبة لتصنيـع الفـيروس نسـتطيع أن نقـول إن كل شيء ممكـن تصنيعـه، لأن تصنيـع أي شيء يحتـاج إلى تفكيكـه ولنعـرف مـما يتركـب، وقـد اسـتطاع العلـماء معرفـة تركيبـة فـيروس الإيـدز وتسلسـله البروتينـي بفضـل تقـدم هندسـة الخليـة، وصـار في الإمـكان أن يصنَّـع.

فيـما يخـص حبـوب منـع الحمـل فقـد تـرددت أخبـار سريعـة تشـوه الحقائـق العلميـة، ويعـود ذلـك إلى تهافـت الصحافـة عـلى السـبق الإعلامـي حتـى قبـل التأكـد مـن صحـة مـا ينـشر، عـلى أن هنـاك جانبـاً مـن الصـواب في هـذا الأمـر، ذلـك أن بعـض موانـع الحمـل غـير الحبـوب، وهـي التـي توضـع في مهبـل المـرأة اتضـح أنهـا تحتـوي مـادة توقـف الميكـروب وتحـد مـن فاعليتـه. ولا توجـد دراسـة علميـة مؤكـدة وإن كانـت التجـارب مسـتمرة.

س: عندما نريد الكشف على أنفسنا في قطر أين نذهب؟ ومتى وماذا نقول؟

ج: يجـب التأكـد مـن وجـود المضـادات في الأجسـام عن طريـق الذهاب إلى مستشـفي حمد (قسـم الـدم) في المختـبر، أو الاتصـال بالعلاقـات العامـة، وكل الأمـور تـتم في السريـة ويحافـظ عليهـا، وتجـري التجربـة وهـي بسـيطة جـداً، وتأخـذ فـترة زمنيـة قصـيرة، ويشـترط عـلى كل شـخص سـليم أن يتـبرع بوحـدة مـن الـدم لمسـاعدة مريـض وإنقـاذه، وأنـا أدعـو باسـتمرار إلى التـبرع بالـدم باعتبـار ذلـك أنجـح وسـيلة لمنـع انتشـار الإيـدز.

س: هـل البعوضـة التـي تلسـع شـخصاً مصابـاً بالفـيروس يمكـن أن تنقـل المرض إلى شـخص سليم ؟

ج: في المـرض المعـدي لا بـد مـن توفـر عنـصر ناقـل وقـد يكـون الناقـل بعوضـة، وفي إفريقيـا ينقـل البعـوض مختلـف الأمـراض. ونتسـاءل عـن الأطفـال المصابين الذين لا يمارسـون جنسـاً ولم ينقـل لهـم دم ولا يأخـذون حقنـاً ورغـم ذلـك أصابهـم المـرض. توجهـت مجموعـة مـن العلـماء مـن معهـد (باسـتور) لإجـراء بحـوث في إفريقيـا، ووجـدوا أن بعـض الحـشرات مصابـة بالفيروس، ولكـن لا يوجـد حتـى الآن دليـل علمـي واحـد يقـول إنـه مـن الممكـن انتشـار المـرض بواسـطة الحـشرات، ولا يعنـي ذلـك اسـتبعاد هـذا الأمـر كليـاً.



س: لماذا لا تتخذ إجراءات صحية في المطارات للوقاية من المرض الذي قد يتسرب من الوافدين من الدول الأجنبية التي ينتشر فيها المرض؟

ج: لا أعتقد بأن هذا الإجراء سليم وضروري ومنظمة الصحة العالمية كمنظمة مسؤولة عن صحة الناس طرحت تساؤلات على نفسها وعلى من يهمهم الأمر، ووجدت أن هناك من يقترح الاستظهار بشهادات، ولكن المنظمة لم تنصح بهذا، لأنه غير مفيد وأمر متعب ومكلف: طوابير وأجهزة وميزانيات.. إلخ

وبالمناسبة فإن تكلفة المريض الواحد في أمريكا 270 ألف دولار، ويتوقع أن تكلفة العلاج لمرضى الإيدز سترتفع سنة 1991 إلى حوالي 4 بليون دولار، دون اعتبار لما ينفق في الدعايات لفائدة مرضى الإيدز التي تكلف حوالي بليوني دولار. وقد بلغ الأمر إلى حد أن أحد العلماء كتب في مجلة علمية ضخمة أنه على أمريكا الاختيار بين ميزانية لحرب الإيدز أو حرب الكون.

ونعود إلى مسألة الاستظهار بشهادة خلو من المرض. فالمعروف أن الفيروس عندما يصيب شخصاً ينتظر أسبوعين لظهور المضادات، وقد يمتد الأمر إلى 6 شهور. ولنفترض أن أحد المسافرين استلم شهادة قبل السفر بيوم أو 3 أيام، وخلال هذا اليوم مارس الجنس أو أخذ إبرة ودخله الفيروس، ثم سافر فلم نستفد شيئاً. ووزارة الصحة نتيجة إلحاح الناس قامت بتوفير قضية الفحص الطبي على الخدام أو المربين الذين يعملون في البيوت، لكي تطمئن النفوس وهو أمر محدود الفائدة، فقد يتسلم شخص شهادة ولا تظهر عليه أعراض المرض إلا بعد ستة شهور. وعموماً فهذا الأمر قامت بدراسته المنظمات المختصة وهو غير نافع.

محاضرة

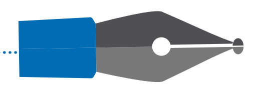
الرقابة على المصنفات الفنية



للسيدة /

نعيمة حمدي

مدير عام الرقابة
على المصنفات الفنية
بجمهورية مصر العربية



نص محاضـرة

بسـم اللـه الرحمـن الرحيـم والصـلاة والسـلام عـلى أشرف المرسـلين سـيدنا محمـد ﷺ ، وبعـد، أتفضـل بالشـكر لنـادي الجـسرة الثقـافي الاجتماعـي إدارة وأعضـاء عـلى هـذه الدعـوة.

لقـد بـدأت العمـل الرقـابي منـذ 1954، وتدربـت عـلى هـذا العمـل عـلى يـد أسـتاذتي السـيدة / اعتـدال ممتـاز، وتقدمـت في المناصـب مـا بـين رقيـب، ووكيـل إدارة، فمديـرة إدارة الأفـلام الأجنبيـة، فنائبـة مديـر عـام الرقابـة عـلى المصنفـات الفنيـة، فمديـر عـام الرقابـة عـلى المصنفـات الفنيـة.

ليـس العمـل الرقـابي مقـص الرقيـب فقـط بـل هـو عمـل فنـي هـام، ولا بـد أن نقـترب مـن عمـل إنسـان وضـع فيـه عصـارة فكـرة، فـلا بـد عنـد التعامـل معـه أن أناقشـه بالحـرص واللـين ولا ألومـه عـلى فكـره، ولكـن نصـل بالتفاهـم إلى المفهـوم الـذي نكـون راضـين عنـه دون مسـاس بأفـكاره. ولكـن قـد يسـتوجب الأمـر بعـض التنـازلات، هـذه هـي الرقابـة: أن يتمتـع الرقيـب بوعـي وفـن وإدراك لـكل مـا يـدور أمامـه مـن أعـمال فنيـة في مجـال السـينما وفي مجـال المـسرح والأغنيـة.

والرقابـة في مـصر بـدأت مـع الحـرب العالميـة الأولى، ولكنهـا كانـت رقابـة سياسـية تخـدم المسـتعمر، ثـم انتقلـت الرقابـة مـن يـد المسـتعمر سـنة 1927 لتتبـع وزارة الداخليـة، وبـدأت تعـرض عليهـا الأفـلام التـي بـدأت تنتـج في مـصر، فهنـاك أفـلام سـينمائية يدخـل فيهـا الطابـع العسـكري والأمنـي إلى حـد مـا، ثـم قامـت ثـورة 23 يوليـو فألحقـت الرقابـة عـلى المصنفـات الفنيـة بـوزارة الثقافـة والإرشـاد. ومـن هنـا نـرى أن الرؤيـا قـد اختلفـت للعمـل الرقـابي مـن عمـل حمايـة للمسـتعمر وعمـل أمنـي إلى رؤيـا ثقافيـة بعيـدة كل البعـد عـن أي موقـف أمنـي وعسـكري.

بـدأ العمـل الرقـابي بمجموعـة مـن الرقبـاء الأجانـب، ولكـن بـدأ تطعيـم هـذه المجموعـة بمجموعـة مـن المصريـين، انضمـت إليهـم السـيدة اعتـدال ممتـاز سـنة 42، وتعتـبر مـن قدامـى الرقبـاء في مـصر، ثـم التحقـت مجموعـات أخـرى بالرقابـة إلى أن أصبـح جهـاز الرقابـة كلـه مـن المصريـين. والرقابـة كـما قلـت هـي فـن وذوق، فـن وثقافـة، فـن وسياسـة، فـن وأمـن، فـن وديـن، فـن وعـادات وتقاليـد. لا يمكـن أن أفصـل الرقابـة عـن الفـن بحـال مـن الأحـوال، لذلـك لا بـد للرقيـب مـن أن يتصـف بـكل هـذه الصفـات، وأن يلـم بالفـن بـكل أنواعـه، وأن يكـون عارفـاً بالديـن، وأن يعلـم سياسـة دولتـه، وأن يعلـم أمـن بـلاده وعاداتـه وتقاليـده، لأنـه حـين يحكـم عـلى عمـل فنـي فمـن منطلـق كل هـذه الأمـور مجتمعـة.

إذن هـي مأموريـة شـاقة جـداً وليسـت (فرجـه) كـما يعتقـد البعـض بـأن الرقيـب يجلـس

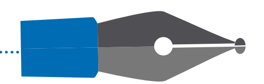
ويشاهد فيلماً، لا، فمن الممكن لمجرد جملة تمنع فيلماً؛ جملة صغيرة قالها مجرد (كومبارس) تمنع شريطاً بكامله، إذا كان العمل الفني كله يقوم عليها، وإذا كان المحور كله يدور حول هذا الموقف. إذن لابد للرقيب بجانب إلمامه بالثقافة المختلفة أن يكون أيضاً متيقظاً، وواعياً للعمل ولا يلتفت إلى غيره من الناس أو يتكلم، حتى لا تضيع عليه كلمة أو جملة أو مشهد.

الرقابة ليست مشهداً خارجاً عن الآداب العامة، فقد تكون كلمة أو مضمون الشريط أخطر بكثير من مشهد مخل بالآداب العامة، إذن أنا حين أحكم على عمل فني فإني أحكم على المضمون الذي يتلاءم مع القيم الاجتماعية لبلدي ولسياسة بلدي ودين بلدي وعاداتي وتقاليدي وقيمي الاجتماعية، هذه هي العلاقة بين الرقيب وبين العمل الفني.

صدر في سنة 55 القانون رقم 430 الذي ينظم أعمال الرقابة على المصنفات الفنية حتى لا تكون هناك فوضى في العمل، ولا يكون هوى في نفس أي شخص حين يرى مصنفاً فنياً، فوضعت ضوابط؛ هذه الضوابط يتحرك من خلالها القائم بالمراقبة، ولكن لا بد أن تكون هناك سعة أفق ومرونة في التطبيق وكياسة في الآراء، ولا أحذف مشهداً يؤثر على سياق الأحداث، فالأفضل أن أمنع الشريط كله بدلاً من أن أحذف مشهداً يجعل الفيلم بدون مضمون، فأيهما أفضل أن أرى عملاً ناقصاً أم أرى عملاً له مضمون وأتعلم منه؟ لأننا اتفقنا أن السينما أصبحت ثقافة في كل الشعوب بل هي مرآة الشعوب اليوم والسفير الثاني، فالفيلم أصبح من ضمن السفراء اليوم، ذلك لأن الفيلم يعكس حياة البلد وعاداته وتقاليده وقيمه، فإذا لم أستطع أن أسافر إلى بلد ما ورأيت شريطاً لهذا البلد فمن الممكن أن ألمَّ بقدر من حياة هذا البلد.

إذن الأفلام نوع من الثقافة، وبعض الأفلام تجنح عن الثقافة وتكون بعيدة كل البعد عنها، ويكون الهدف منها الإثارة وهذا ضد الدين، وكلنا يدين بالإسلام الذي لا يقبل مثل هذه الأمور ونحن نرفضها تماماً. هناك أيضاً الأفلام العنيفة التي لا مبرر لها سوى إبراز العنف بكل أنواعه دون أي مبرر لذلك.

وهذا له تأثير خطير على أبنائنا. فيجب أن آخذ الأفلام التي من هذه النوعية وأبدأ أعيد النظر في مدى أهمية عرضها في مجتمعنا، هل ستعود على مجتمعي بالنفع أم لا؟ ومثال ذلك في مصر أفلام الكاراتيه فقد جاءت لنا موجة من أفلام الكاراتيه رهيبة جداً، فيها واحد يضع أصابعه في عين الآخر ويخرجها، أو واحد يضع يديه في بطن الآخر ويخرج أمعاءه، فما هو الهدف من ذلك؟ هل هذه هي القوة، إن القوة في المصارعة الحرة وفي المبارزة الشريفة. هناك أفلام كاراتيه نتعلم منها فن الكاراتيه ونحن لسنا



ضدها لكن الفيلم العنيف والبعيد عن النواحي الإنسانية غير مقبول.

الأفلام الجنسية التي نراها تجتاح العالم اليوم خاصة في فيلم الفيديو الذي أصبح من أخطر الوسائل التي تتسلل إلى البيوت من وراء الآباء والأمهات، وهو شئ رهيب جداً، ويجب أن أقف له بالمرصاد، وأحدد الأفلام التي تدخل لي وأكون حريصة جداً على كل شريط فيديو يدخل البلد وأراه بمنتهى الحرص والدقة. ولكن للأسف الفيديو منتشر ولا توجد ضوابط له، والضوابط والمعايير في الفيديو لا بد أن تكون حاسمة، ولا بد من تحديد النوعيات التي تدخل من أفلام الفيديو، يعني لا نحجر على الفيديو، لكن هناك أفلام على مستوى رفيع جداً اليوم هجرتنا لأننا هبطنا بالذوق العام في المنطقة كلها، وقد بقي وراء العنف، ووراء الجريمة، ووراء الجنس، فلماذا لا نسمو بأفكارنا ونبحث عن الأفلام الجيدة. وعندنا المجلات السينمائية فيها أنواع الأفلام الممتازة، لماذا لا نبحث عن هذه الأفلام الجيدة ونطلب استيرادها ونلزم العاملين بتجارة الفيديو أن يحضروا مثل هذه النوعية من الأفلام حتى نرتفع بالذوق العام؟

لا بد من الارتقاء بالمستوى الفني والتذوق الفني لدى الرقيب. لقد لاحظت هنا أنه لا يوجد تفرغ للرقيب، فالرقيب هنا لا يعمل كل أنواع الرقابة، أنا عندي رقيب للأغاني، ورقيب للفيلم، وآخر للمسرح، وعندي رقيب للفيلم الأجنبي وهو غير رقيب الفيلم العربي، وعندي مفتش فني يتابع عملية الحركة الفنية بعد إصدار الترخيص. إذن أنا أربط كوادر متخصصة في العمل الرقابي بإقامة دورات تدريبية تخصصية على يد رجال الفكر والفن والأدب. نحن دعونا مخرجين وكتاب قصة وكتاب سيناريو وعاملين في حقل المونتاج وحقل التصوير، كل ذلك يهدف إلى أن أكون ملمة بالفيلم، وملمة بزوايا التصوير وغيرها، وحتى أكون على علم بتحرك الكاميرا.

فلا بد من إعداد الكوادر الفنية لمتابعة ومواكبة البعثات الفنية التي تأتي إلى بلدي لتصوير مشاهد من البلد، فأعرف في أي زاوية توضع الكاميرا، وماذا تصور، فعندما أكون على علم كيف تؤخذ الصور فأنا أضع عيني في الكاميرا وأقول له صوِّرْ، نعم صوِّرْ، لأني تأكدت أن اللقطة المصورة هي المعينة وهي الواردة، ولكن وجدنا بعض المصورين يأتون إلى مصر ويطلبون منا تصنيف بعض السيناريوهات، وينزل معه رقيب ليس عنده فكرة عن التصوير، ويكون التصوير شيئاً غير المطلوب. ولهذا عقدنا الدورات التدريبية، وألحقنا الرقباء بالمعاهد السينمائية عندنا، وأنتم عندكم هنا معهد عالي للموسيقي والفنون المسرحية، وأعتقد أن التصوير من ضمن الأعمال التي يجب أن تدرس، وكذلك قراءة السيناريو، وقراءة القصة، وكيفية عمل مونتاج فيلم، حتى إذا قمت بالحذف فلا آخذ مشهداً على حساب مشهد آخر، لأن هذه كلها مترتبة على بعضها.. مثلاً إذا حذفت

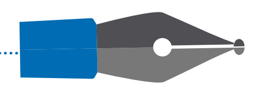
مشهداً فربما آخر جملة موسيقية تتأثر به، أو حركة فنان سيتأثر بها، فلا بد أن تكون عملية المونتاج عملية فنية جداً حتى لا يخرج العمل للجمهور ناقصاً،ويشعر المشاهد أن الرقابة قد تدخلت لأنه لم يتم بطريقة فنية، وضروري ألا يشعر المشاهد أن هناك حذفاً تم في الفيلم، لأن المشاهد يجب أن يشاهد كل شيء كما هو، ودائماً هو تواق إلى الحرية وعلى معرفة كل ما هو جديد، هذا ما هو متبع عندنا في مصر باختصار.

إذن فالرقابة هي أن أرى عملاً متكاملاً، وأن أكتب تقريراً رقابياً كاملاً، ويكتب هذا التقرير من الرقيب الذي قام أو كلف بالعمل، ويعرض على رئيس الملاحظات الرقابية، فيه المشاهد كذا وكذا، ويبرر أسباب الحذف. فعندما نقول إنه يجب حذف المشهد كذا لأنه فيه إثارة أو فيه إساءة للدين، أو إساءة للمجتمع، أو أمنع الفيلم لأنه يتعارض مع القيم الاجتماعية ومع القيم الدينية، كل هذه الأشياء يجب أن يضمنها الرقيب في تقريره بدقة، فإذا كانت هناك نواحٍ دينية خافية عليّ فلا بد من إشراك رجل الدين، لأنه أدرى مني في بعض الأمور. لقد عرض عليّ فيلم (الأنس والجن) وأحسست أن هناك أشياء تمس الدين الإسلامي، وخشيت أنه إذا سمحت بعرض الفيلم بهذه الصورة أن يسيء إلى الدين وأنا لا يمكن أن أسمح بعرض شيء فيه إساءة إلى الدين، فاتصلت بالدكتور عبد المنعم النمر، وطلبت منه الحضور إلى الرقابة. ونحن عندنا مجلس أعلى للرقابة يضم صفوة من الكتاب والمفكرين، وطلبت منه أن يتفضل بالحضور إلى الرقابة لمشاهدة الفيلم، وحضر، ولما شاهد الفيلم قال لي فعلاً أنت على حق، لأن فيه مشهداً يجب أن يحذف وأن يضاف مشهد يؤكد أن هذا العمل خرافة وليس له أي أساس من الصحة.

إذن عندما يلتبس عليّ أمر الدين لا بد أن أستشير صاحب المشورة في هذا الأمر، وكذلك هناك أمر يتعلق بالأمن، وأنا غير ملمة بكل أعمال الأمن، لكنني أعرف الأمن العام فأسأل مسؤولي الأمن، هل هذا العمل سليم ولا يسئ إليكم إذا عرض، وبعض السيناريوهات أبعثها لوزارة الداخلية لإدارة العلاقات العامة وأقول لهم وجهة نظري في بعض المشاهد، وأسألهم عن رأيهم ووجهة نظرهم فيها، فأنا أشركه معي، لكن الرأي النهائي للرقابة، فكل بلد لها أسلوب العمل الخاص وأسلوب التطبيق، وكل بلد تعرف ظروفها وإمكانياتها وظروف المجتمع فيها.

الرقابة في مصر تمر الآن بمرحلة أنا أعتبرها صحوة، لأن الكتاب والحمد لله والفنانين الكبار عادوا تدريجياً إلى السينما، وكلهم اطمئنان، لأنهم تأكدوا أن ما يشاع من أن المتفرج أو الجمهور (عايز كده) تأكدوا أنها أكذوبة، لأن الجمهور لا يمكن أبداً أن يعيش في الغث والرخيص من الفكر.

الكتاب السينمائيون المصريون والفنانون الكبار بدأوا في العمل، لأنه منذ فترة كان



الكاتب مختلفاً والمنتج مختلفاً؛ صار تاجراً وليس فناناً، فأجور الفنانين عندنا أصبحت باهظة جداً جداً، فالفنان الصادق والمنتج الصادق ليس لديه إمكانية لإنتاج أفلام على مستوى، فمن أين له أن يحضر ويدفع كل هذه الأموال، فابتعدوا عن السينما، لكن بعد أن شعروا أن هذا الابن سيضيع منهم وقد تعبوا فيه كثيراً ولاقوا الأمرين إلى أن وصلوا إلى هذا المستوى الرفيع من الفن، بدأوا فعلاً يتقدمون بقصص على مستوى جيد جداً، وإن شاء الله قريباً جداً سيكون هناك إنتاج من الأفلام. وفنانونا الكبار راجعون بكل ثقلهم وبأفكارهم الإنسانية البناءة، فالأستاذ كمال الشيخ ينتج شريطاً عن الخيال العلمي، والأستاذ صلاح أبو سيف ينتج فيلماً أشرف على نهايته، كل هذه أعمال تبشر بالخير والأمل في حياة أفضل للسينما المصرية.

هذا بالنسبة للسينما، أما بالنسبة للمسرح فلدينا هذه الأيام نهضة مسرحية، وعادت مسارح الدولة تعمل بنشاط (اليوبيل الذهبي للمسرح القومي أشرف على البداية، وسيفتتحه الرئيس حسني مبارك بمسرحية مجنون ليلى) وقبل ذلك قدم المسرح مسرحية (إيزيس)، عمل جيد جداً لكرم مطاوع (مخرج المسرحية) وأمكن لفكر توفيق الحكيم أن يتحول إلى عمل استعراضي غنائي راقص. كل هذه الإمكانيات الفنية الموجودة عندنا، مكنت كرم مطاوع من أن يخرج عملاً مبدعاً وضع فيه كل مجهود السنين الماضية.

أيضاً (الوزير العاشق) مسرحية رائعة، ويقال إن المسرح المصري والمسرح القوي منحسر، أنا أرى أننا إذا عملنا عملين أو ثلاثة في السنة على مستوى جيد، أحسن من عشرة أو عشرين عملاً دون المستوى.

أيضاً للارتفاع بالمستوي الفني للفيلم المصري ستنتج مؤسسة السينما فيلمين أو ثلاثة أفلام على مستوى جيد، وسيعلن عن مسابقة للقصص التي تقدم، وإن شاء الله سنجد السينما المصرية بخير.

الدكتور أحمد هيكل وزير الثقافة أشار بتكوين لجنة للنهوض بالأغنية المصرية على رأسها نخبة من الكتاب والشعراء والفنانين من الموسيقيين، وسوف تمارس هذه اللجنة عملها إن شاء الله في بداية شهر أبريل 87، وهذا يعني أن هناك عملاً كبيراً جداً في مصر للخروج إلى طريق النجاح إن شاء الله.

الأسئلـة

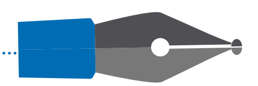
س: هـل يمكـن لنـا أن نسلط بعـض الضـوء عـلى عـدد مـن الأفـلام التـي أثـارت لغطاً في الفـترة الأخـيرة، والتـي أسيء تأويـل تأخيرهـا أو تأجيلهـا، أو عـدم إجازتهـا بمختلـف الآراء، وأذكـر منهـا فيلـم (ملـف في الآداب)، وفيلـم (البـريء)، وفيلـم (العصابـة)، وفيلـم (إنقـاذ مـا يمكـن إنقـاذه)، وأنـت أدرى منـي ببقيـة الأفـلام، فالإخـوان يتشـوقون إلى معرفـة بعـض هـذه الأسـباب التـي أدت إلى هـذا اللغـط؟

ج: الحقيقـة فيلـم (ملـف في الآداب) لم يحـدث حولـه أي نـوع مـن اللغـط، وأجيـز مـن أول عـرض، ولم يحـدث أي شيء، وكان فيـه مشـهد أو مشـهدان خارجـان عـن الآداب العامـة وتـم حذفهـما، ولكـن كموضـوع لم يحدث أي شيء ولم يتحـدث عـن أي شيء، وهناك أقـلام هاويـة تحـب أن تكتـب، لكـن حقيقـة الأمـر أن الترخيـص مـع صاحـب الفيلـم ولا توجـد دار عـرض خاليـة، ومعـروف أن دور العـرض في مـصر مشـغولة، وبالـدور، فـكل فيلـم عندمـا ينتهـي عرضـه يـأتي الفيلـم الـذي يليـه وهـو لم يـأت دوره بعـد للعـرض.

أمـا فيلـم (البـريء) فمنـذ أن عـرض أجيـز، كان الاعـتراض أنـه فيـه مشـهد تـم تخفيفـه، فصاحـب الفيلـم اعـترض عـلى المشـهد فاجتمعـت لجنـة التظلـمات وأجـازت الفيلـم بحـذف نصـف المشـهد، وانتهـت المشـكلة، والفيلـم منتظـر أيضـاً دور العـرض، ومرشـح للذهـاب إلى مهرجـان كان في شـهر مايـو.

أمـا فيلـم (العصابـة) فأنـا شـخصياً منعتـه ولا أخـشى أن أقـول أني منعتـه، لأن مخـرج الفيلـم أضفـى مضمونـاً وفكـراً مخالفـاً لمـا جـاء في السـيناريو المرخـص بـه، فمـن وجهـة نظـري أن هـذا خـروج عـن النـص ويعتـبر مخالفـاً للقانـون رقـم 430 الـذي أعمـل بـه، وهـذه سـلطة ممنوحـة لي فاسـتعملت سـلطاتي، ولـه الحـق في التظلـم، وقـد تظلـم وأجيـز الفيلـم. إذن ليـس هنـاك مشـكلة بالنسـبة لفيلـم العصابـة.

أمـا فيلـم (إنقـاذ مـا يمكـن إنقـاذه) فهـو فيلـم بعيـد كل البعـد عـن أي قيمـة، والحمـد للـه عـلى أنـه أجيـز، وأنـا شـخصياً لـولا أني عرفـت أن الرجـل صرف الكثـير عـلى هـذا الفيلـم مـا كان يجـب أن يخـرج، فهـو فيلـم يـسيء إلى كل امـرأة في مـصر وإلى المجتمـع المـصري، وأنـت نفسـك لـو كنـت شـاهدت الفيلـم بحالـه، لكنـت رفضـت أن يجـاز. فمـن غـير الممكـن أن مـصر تبقـى عبـارة عـن نسـاء سـاقطات وبيـوت دعـارة وتجـار عملـة، وتجـار مخـدرات، وتـدار مـصر بهـذا الأسـلوب، وهـذا ليـس واقـع مـصر عـلى الإطـلاق، مـصر إسـلامية بالدرجـة الأولى، سـيداتها فاضـلات، لا يمكـن أن أسـمح أن تظهـر المـرأة المصريـة بهـذه الصـورة المشـينة، وكـون الفيلـم أجيـز فأنـا أقـول لحضرتـك



أنـه يؤسـفني أني قـد أجزتـه، وسـأظل أقولها طـوال عمـري. الفيلـم ليـس بـه قصـة، أنـا لا أقـول إننـا نمنـع النقـد، انقـد كـما تشـاء ولكـن بجانـب النقـد هنـاك الجيـد، ولا توجـد بلـد كلهـا سـلبيات، أو كلهـا أخطـاء، المخطـئ يبقـى واحـداً أو اثنـين، فأظهـر المجتمـع كلـه مخطئـاً، هـذا غـير معقـول.

القـاضي الـذي يخطـئ يحكـم عليـه قـاض جيـد، والضابـط الـذي يخطـئ يحكـم عليـه ضابـط جيـد، فـلا يمكـن أبـداً أن أسـمح بـأن تعـرض مـصر بهـذه الصـورة، وأنـت كعـربي تحـب مـصر ترفـض هـذا.

أنـا أعتقـد أن فيلـم (إنقـاذ مـا يمكـن إنقـاذه) مـن أسـوأ مـا قدمتـه السـينما المصريـة، وأنـا ضـد هـذا الفيلـم.

س: بمـا أن لسـيادتك خـبرة طويلـة في مجـال الرقابـة، كيـف سـمحت بعـرض الأفـلام الهابطـة مـن جميـع النواحـي التـي أدت بالفعـل لتـدني الـذوق العـربي؟

أولاً: اسـمح لي أن أقـول إني امتـداد لزمـلائي الرقبـاء السـابقين رؤسـاء الرقابـة عـلى المصنفـات الفنيـة، فـإذا الرقابـة أجـازت مصنفـاً مكتـوب السـيناريو وأعطـت لـه التصريـح بـأن يصـور فـلا أسـتطيع أن أمنعـه، فأنـا مشـتركة بالإمضـاء وليـس بالمضمـون.

س: لمـاذا لم تتقـدم الأفـلام العربيـة وبخاصـة الفيلـم المـصري وهـو الآن يمثـل «للخلـف در» عكـس الأفـلام الأجنبية؟

بصراحـة وبصـدق، هـل الرقابـة فعـلاً تجتمـع عـلى أسـاس مـن الديـن؟ في اعتقـادي لا، لأنـه إذا تمـت الرقابـة عـلى أسـاس مـن الديـن ففعـلاً لا تجـد فيـلاً سـليماً لا ديـن ولا أي شيء؟

ج: بالنسـبة للفيلـم المـصري «للخلـف در»، ألا يوجـد الفيلـم الأجنبـي « للخلـف در « كثـير مـن الأفـلام الأجنبيـة ليسـت للخلـف در فقـط ولكـن (اغـرق في البحـر) وحاجـات مؤسـفة وخطـيرة ودون المسـتوى، لكننـا دائمـاً لا ننظـر إلا لعيوبنـا ولا نحـب أن ننظـر لعيـوب غيرنـا.. حتـى نعـرف أننـا بإمكانياتنـا البسـيطة المتاحـة أننـا بخـير والحمـد للـه، أمـا إذا كنـا نتكلـم مـن ناحيـة الديـن والـشرع، فأعتقـد أن الديـن في مـصر في المقـام الأول، وكلنـا مسـلمون والحمـد للـه، وبالمناسـبة فأنـا حاجـة بيـت اللـه الحـرام، وأخـشى اللـه في كل مـا أعمـل، أمـا القيـم الاجتماعيـة والمجتمـع كيـف يسـير، فأنـا لا أسـتطيع أن أغـير نظـام المجتمـع المـصري أبـداً والدولـة هـي التـي تتدخـل.

س: مـن المعـروف أن الأفـلام هـي مـرآة الشـعوب، هـل الأفـلام المصريـة الحاليـة تعكـس الشـارع المـصري في نظـرك؟

ج: مثلـما سـبق وأن قلـت إننـا نعـاني، والمعانـاة جـزء مـن الشـعوب، وإذا كان هنـاك

معاناة في الفيلم، فإنها تعكس جزءاً من حياتنا، وأنا لا أعتبر أن هذا خطأ إذا كان هناك متاعب، فهناك متاعب أيضاً في مصر، بدليل أن الكاتب الجيد والمفكر الجيد قد ابتعدا، وجاء تاجر العملة فكيف يفكر هذا الأخير؟

س: هل هناك رقابة على الموسيقى البحتة ورقابة على الموسيقى الغنائية؟

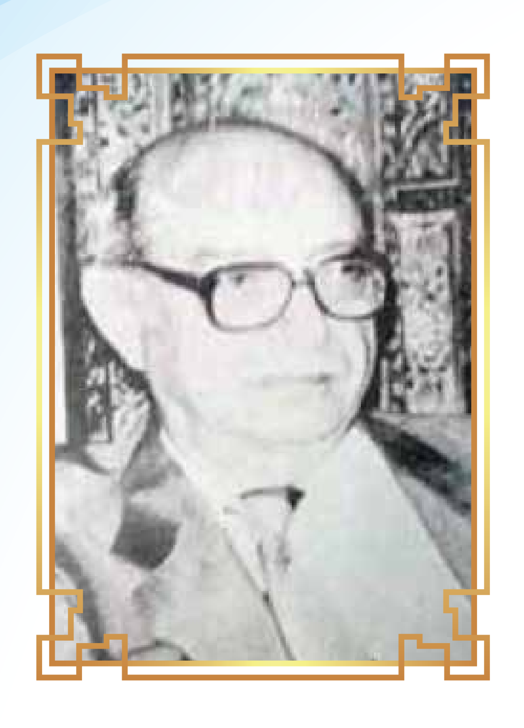
ج: لا، ليست هناك رقابة على الموسيقى لأننا لسنا موسيقيين، لكن في الرقابة جرى العرف أن تمنح الترخيص لتسجيل الشريط الموسيقي ونسمعه ونحتفظ بنسخة من هذا الشريط في مكتبة الرقابة، أما الأغنية فنحن نجيزها كلمة، ثم نسمعها مسجلة ومغناة، فإذا كانت ملائمة للآداب العامة فإنها تجاز، أما إذا كانت غير ذلك فتصادر ويمنع تداولها.

وشكراً...

محاضرة

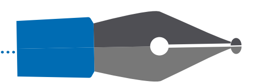
واقع الأمة العربية بين الأمس واليوم

١٩٨٧/٢/٢٢



أ. محـمـود ريـاض

الأمين العام السابق لجامعة الدول العربية



نص المحاضرة

مقدمــة:

أيها الإخـوة، أرجـو في البدايـة أن تسـمحوا لي أن أقـدم خالـص التهـاني بمناسـبة الذكـرى الخامسـة عـشرة لتـولي صاحـب السـمو الشـيخ خليفـة بـن حمـد آل ثـاني مقاليـد الحكـم في قطـر، راجيـاً لـه التوفيـق عـلى الـدوام في قيادتـه الحكيمـة لقطـر، كـما أقـدم خالـص تحيـاتي لسـمو ولي العهـد الأمـين الشـيخ حمـد بـن خليفـة آل ثـاني، وأقـدم خالـص الشـكر لإدارة نـادي الجـسرة الثقـافي والاجتماعـي ورئيسـه الفخـري سـعادة وزيـر الصحـة خالـد المانـع، لإتاحـة الفرصـة لي بحضـور هـذا اللقـاء العـربي الكريـم، وأرجـو مخلصـاً أن تكـون اجتماعاتنـا عـلى الـدوام اجتماعـات ودّ وأخـوة لصالـح أمتنـا العربيـة.

الموضـوع الـذي أتناولـه بالحديـث اليـوم موضـوع كـما تـرون طويـل للغايـة، يمتـد عـلى مـا يقـرب مـن 40 عامـاً، ولذلـك أرجـو المعـذرة إذا اضطـررت بطبيعـة الحـال لضيـق الوقـت إلى الإيجـاز والاختصـار وضرب الأمثلـة، فـإني لا أسـتطيع أن أسرد تاريـخ الأمـة العربيـة خـلال الفـترة الماضيـة التـي عشـناها في محـاضرة، بـل إني سـجلت بعـض مـا عشـته وفي اختصـار شـديد في ثلاثـة كتـب، وبالتـالي تتبينـون المشـكلة التـي أواجههـا كيـف أسـتطيع في زمـن المحـاضرة القصـير أن أوجـز الحديـث عـن هـذه الفـترة الطويلـة.

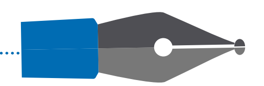
ولا بـد أن يكـون لحديثنـا هـدف ورسـالة أنقلهـا إليكـم، تتمثـل في أننـا نمـر في الوقـت الحـالي بحالـة مـن الـتردي لم يسـبق للأمـة العربيـة أن عاشـتها في عصورهـا الحديثـة، بـل لا أعتقـد أنهـا مـرت بهـا في عـصر مـن العصـور، فهنـاك شـعب فلسـطين طـرده اليهـود فلجـأ إلى الـدول العربيـة المجـاورة حتـى يحصـل عـلى الأمـن والسـلام، ونجـد بعـض معسـكراتنا اليـوم تحـاصره وتطلـق عليـه النـار، فـإن لم يمـت بالنـار يمـوت جوعـاً هـذا بعـض مـا يحـدث بيننـا اليـوم، ومـن هنـا كان مـن الـضروري عـلى الشـباب الـذي لم يعـاصر الأحـداث في الأربعينـات أو الخمسـينات أن يعـرف أن مـا يحـدث الآن ومـا يجـري عـلى السـاحة العربيـة لا يمثـل الوجـه الحقيقـي لهـذه الأمـة العربيـة، لقـد عشـنا فـترات ظَهـر فيهـا دون شـك التضامـن العـربي بقـوة، وهدفنـا أن نعقـد نوعـاً مـن المقارنـة نخـرج منهـا بـأن الأمـر لا يحتـاج إلى معجـزة حتـى نجتـاز الأزمـة التـي تمـر بهـا حاليـاً، ومـع ذلـك إذا نظرنـا إلى العلاقـات الدوليـة بشـكل عـام في مختلـف أنحـاء العـالم، سـنجد أننـا أمـام صفـة مشـتركة، وهـي قيـام خلافـات بـين الـدول



أحياناً تشتد إلى درجة أن يحدث تصادم مسلح بينها، وأحياناً تتفق المصالح فتتكون تكتلات اقتصادية وعسكرية وهو ما يحدث الآن في أوروبا الغربية والشرقية، وما قد يحدث من خلافات داخل هذه التكتلات لا يقع تجاوزها لما يمكن أن يمس بأمن هذه الدول، وقد سمعنا مؤخراً عن الخلافات الاقتصادية الشديدة التي قامت بين الولايات المتحدة زعيمة الكتلة الغربية، وبين المجموعة الأوروبية حول مسائل اقتصادية، وقيل إنه سوف تبدأ حروب اقتصادية بين الولايات المتحدة والمجموعة الأوروبية، ومع ذلك لم يمس هذا الأمر إطلاقاً.

ولكن إذا اتجهنا إلى العالم العربي سنجد أننا نتشابه مع بقية دول العالم في قيام خلافات بين دولنا، بسبب الاختلافات أحياناً في المصالح، وهي خلافات مرحلية في الواقع وليست خلافات جذرية على الإطلاق، إلا أننا اختلفنا عنهم في عدم النجاح في التحكم في خلافاتنا، وتركناها تتجاوز الحد الأدنى الذي يسمح بالتعاون لحماية الأمن العربي. وكان علينا أن نتذكر على الدوام أننا نعيش في عصر التكتلات الدولية، ولذلك فإن الدول العربية في أشد الحاجة إلى إقامة كتلة اقتصادية وتجارية تحت مظلة سياسية موحدة، لمواجهة التكتلات الدولية الأخرى ولحماية أمنها.

والدول العربية عندما تقيم مثل هذه الكتلة فستجد مبررات تمهد الطريق أمامها، فهي تتميز بوحدة التاريخ واللغة والمصير، وأهم من ذلك كله أن الأغلبية الساحقة تجمعها العقيدة الواحدة، ولذلك كنت عندما أتقابل مع أي شخص أجنبي في الداخل



أو في الخارج يخاطبني على أساس أنهم ينظرون إلى العرب جميعاً وكأنهم دولة واحدة، ونحس بالحرج عندما يتكلمون عن الخلافات الموجودة في الصف العربي، وينصحوننا بضرورة اتخاذ المواقف الموحدة، حتى يتمكن أصدقاؤنا من الدول الأجنبية أن يؤازرونا ويساندونا في قضايانا.

التضامن العربي في الأمس:

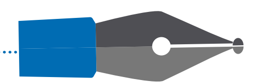
إذا رجعنا إلى الأمس وجدنا أن الكثير من أوضاعنا أفضل من اليوم، كنا في الأمس نتحرك تحت مظلة القومية العربية وكان النداء المحبب إلى قلب كل مواطن عربي هو الوحدة العربية، واليوم لا تسمع هذا النداء، ولا تسمع كلمة قومية عربية. وعندما اجتمع رؤساء الحكومات العربية عام 1944 في الإسكندرية لوضع برتوكول الجامعة العربية ووقعوا في البروتوكول الذي كان مقدمة لتوقيع ميثاق الجامعة في مارس 1955، كانوا يتحركون في ذلك الوقت استجابة لرغبات الشعوب العربية التي كانت تطالب بالوحدة العربية، ومع أن الميثاق جاء قاصراً عن تحقيق أماني الشعوب العربية، إلا أنه كان خطوة سليمة في سبيل إقامة تكتل عربي في جميع الميادين، ولذلك لم يتردد القادة العرب عندما استشعروا تزايد التهديد الصهيوني للأمة العربية عام 1950، فقاموا بإعداد معاهدة الدفاع المشترك ووقعت في تلك السنة.

لقد كان التضامن العربي مطلباً أساسياً وهاماً ومسألة بارزة في العلاقات العربية، وفي هذا المجال لا بد أن نصل إلى أمثلة تؤكد أهمية التضامن العربي، وأبرز الأمثلة هو ما حدث أثناء العدوان على مصر سنة 56، وهو العدوان الثلاثي الذي تعرضت له بعد قرار تأميم قناة السويس، فغضبت إنجلترا وفرنسا لهذا القرار الذي أصدره الرئيس عبد الناصر، وبدأت القوات البريطانية تتجمع في القواعد البريطانية التي بمصر وفي قبرص، وهنا شعرت الأمة العربية بالتهديد الذي يحيط بمصر، فخرجت مظاهرات في معظم العواصم العربية لتأييد مصر وقد حضرت شخصياً إحدى هذه المظاهرات في دمشق، وأعتقد أن عدد الذين اشتركوا في هذه المظاهرة لا يقل عن 100 ألف يرددون هتافاً واحداً « بلد واحد وطن واحد »، وكانت هذه الهتافات تذاع على الهواء في إذاعة دمشق وتستمع إليها كل العواصم العربية، فتخرج الشعوب العربية مؤيدة لمصر وتظهر غضبها ضد أي عدوان يحدث على مصر.

وعقدت الجامعة العربية اجتماعاً طارئاً في أغسطس 56 أعلنت الدول الأعضاء تأييدها ومساندتها لمصر، كما قرر اتحاد العمال العرب الإضراب العام يوم 16 أغسطس، وهذا اليوم هو نفس اليوم الذي دعا فيه (ايدن) عدداً من دول العالم للنظر في إقامة نظام دولي لإدارة القناة منعاً في استمرار تأميمها، واستجاب العمال العرب لهذا النداء الذي دعا إليه اتحاد العمال وتوقف ضخ البترول مدة 24 ساعة، وأوقف العمل السوريون مرور البترول في الأنابيب التي تخترق التراب السوري، وأضرب عمال المطارات، وأغلقت المتاجر، ولم يشهد العالم مظاهرة كبرى كهذه المظاهرة العربية التي حدثت في ذلك اليوم، وعندما بدأ العدوان تحركت الدول العربية، وأبلغ الملك سعود الرئيس عبد الناصر أن المملكة السعودية تضع كافة إمكانياتها الاقتصادية والعسكرية تحت تصرف مصر.

وعندما أعلنت إذاعة صوت العرب عن ضرب الطائرات البريطانية للمدن المصرية، عمت المظاهرات شتى العواصم العربية، واجتاحت العالم العربي موجة من الغضب ضد الدول المعتدية، وهاجمت كثير من الجموع العربية المصالح الفرنسية، والبريطانية في العديد من العواصم العربية، وعرض الملك حسين والرئيس شكري القوتلي معاونة مصر ودخول قواتهما المسلحة المعركة، إلا أن عبد الناصر في ذلك الوقت ألح في عدم دخول القوات السورية أو الأردنية المعركة لخوفه أن تتعرض الأردن أو سوريا لغزو بريطاني فرنسي، وكان من رأيه أن يحتفظ البلدان بقواتهما المسلحة، لأن في ذلك عوناً أفضل محتملاً لمصر في المستقبل، وقد وجدت نفسي في ذلك الوقت في قاعة اجتماعات مجلس الوزراء السوري بناء على رغبة ملحة من الرئيس شكري القوتلي، وقمت بنقل رسالة لإقناع الإخوة السوريين بعدم إصدار قرار بدخول الحرب، وكان من رأي البعض أن دخول سوريا معركة خاسرة (وهذا نقل حرفي لما سمعت)، أكرم وأفضل لها أمام التاريخ من الوقوف موقف المتفرج ومدن مصر تضرب بالطائرات وأرض مصر يجري غزوها، وقامت القوات السورية رغم كل التعليمات بتدمير محطات ضخ البترول في الأنابيب التي تنقل البترول العراقي إلى البحر الأبيض، وكان أحد المصادر الرئيسية لتمويل بريطانيا بالبترول، واجتمع الرؤساء العرب في بيروت أثر ذلك واتخذوا قرارين لمساندة القوات المصرية.

وهكذا نرى أن الأمة العربية في هذه الفترة من التاريخ لم تتردد في التقدم لمصر بكل مساندة عندما تعرضت أرضها للضرب، وتجاوبت الشعوب العربية مع الشعب المصري في مقاومته للعدوان. وإنني لا أنسي آلاف البرقيات التي تلقيتها أثناء وجودي في دمشق



مـن سـوريين وأردنيـين ولبنانيـين وغيرهـم مـن الوطـن العـربي لطلـب التطـوع، للوقـوف بجانب المقاومـة الشـعبية التـي كانـت تكافـح العـدوان البريطـاني والفرنـسي في منطقـة القنـاة. وهكـذا نـرى أن للمسـاندة العربيـة دوراً بـارزاً في إلحـاق الهزيمـة بالعـدوان الثـلاثي عـلى مـصر، الـذي نالـت فيـه بريطانيـا أكـبر حصـة مـن الهزيمـة.

فقـد ألغـت مـصر اتفاقيـة الجـلاء التـي كانـت تتيـح لبريطانيـا الاحتفـاظ بالقاعـدة في قنـاة السـويس، كـما تـم تأميـم البنـوك والـشركات البريطانيـة والفرنسـية، وقـام الملـك حسـين بخطـوة حاسـمة فألغـى أيضـاً الاتفـاق الأردني البريطـاني في 13 مـارس 57، وفي العـام الثـاني قامـت ثـورة العـراق وأنهـت حلـف بغـداد. وباختصـار كانـت هزيمـة بريطانيـا نهايـة لعـصر الإمبراطوريـة وغروبـاً لشمسـها تحـت ضربـات العمـل العـربي في كل مـكان، وكان مـا قامـت بـه الأمـة العربيـة أثنـاء العـدوان الثـلاثي عـلى مـصر يمثـل ملحمـة رائعـة للصمـود العـربي.

ولذلـك يجـب أن يـدرك الشـباب العـربي اليـوم وهـو لم يعـاصر تلـك المرحلـة مـدى قـدرة الأمـة العربيـة عـلى تحقيـق المعجـزات عندمـا يلتـف أبناؤهـا حـول قضاياهـا المصريـة.

في الوقـت الحـالي حـين أعقـد المقارنـة بـين الأمـس واليـوم، أجـد أن الشـلل قـد أصـاب مؤتمـرات القمـة العربيـة، بينـما في المـاضي كانـت القمـة عندمـا تعقـد تسـتطيع فعـلاً أن تنجـز أمـوراً كبـيرة، وفي تصـوري أن مـن أهـم مؤتمـرات القمـة التـي عقـدت تلـك التـي تمـت عـام 1964 م، وكان أولهـا في القاهـرة، وثانيهـا في الإسـكندرية، وقـد دعـا عبـد النـاصر إلى أول قمـة في 13 ينايـر في وقـت كانـت الخلافـات العربيـة تسـود الأمـة، وهنـاك أكـثر مـن مشـكلة، وكانـت مشـكلة اليمـن لا زالـت قائمـة، وكانـت بعـض المشـكلات بـين مـصر والسـعودية وغيرهـا مـن المشـكلات الأخـرى التـي ظلـت آثارهـا قائمـة بعـد الانفصـال الـذي حصـل بـين سـوريا ومـصر. وبغـض النظـر عـن الخلافـات التقليديـة التـي اعتدنـا عليهـا، ورغـم كل ذلـك فقـد لبـى كافـة الرؤسـاء العـرب دعـوة عبـد النـاصر وحـضروا الاجتـماع، وكان الهـدف الرئيـسي المطـروح أمامهـم إنهـاء الخلافـات والتوتـر السـائد في الأجـواء العربيـة، والنظـر إلى مـا يمكـن للأمـة العربيـة أن تفعلـه أمـام إصرار إسرائيـل عـلى تحويـل ميـاه نهـر الأردن إلى النقـب، واسـتقبال المهاجريـن الجـدد وحرمـان أبنـاء فلسـطين مـن حقهـم، وكان في ذلـك تهديـد كبـير للـدول العربيـة المحيطـة بإسرائيـل وأيضـاً تهديـد للشـعب الفلسـطيني.

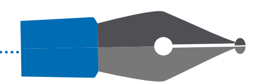
وقـد أدت المشـاورات العربيـة بـين الرؤسـاء في أول مؤتمـر إلى ضرورة إقامـة قيـادة عربيـة موحـدة بـين الرؤسـاء، وكان رأيـي في ذلـك الوقـت، أن هـذا الأمـر هـو أكـبر إنجـاز كان يمكـن أن

نفعله، ذلك أن اتفاقية الدفاع المشترك التي أقرت سنة 1950 بقيت دون أن تكون لديها اليد المنفذة، فلم يكن هناك قائد معين بموجب هذه الاتفاقية، وبالتالي لم يكن هناك قوات مخصصة لتنفيذها - جرت محاولة يناير 1955 عندما دعا عبد الناصر - وكان رئيساً للوزراء - رؤساء الوزارة في الدول العربية وانعقدت 15 جلسة تعمل على تحقيق هدف معين، هو إيجاد قيادة موحدة وتحديد قوات لتنفيذ اتفاقية الدفاع المشترك، إلا أن ذلك لم يتسن في ذلك الوقت بسبب إصرار رئيس وزراء العراق نوري السعيد على التحاق العراق بحلف بغداد. ولكن ما عجزنا عن تحقيقه عام 55 أمكن تحقيقه في النهاية عام 64، وخصصت الأموال من أجل شراء الأسلحة للقوات التي تقرر أن توضع تحت إمرة القائد العام، إلا أن الأمر كان ولا شك يتطلب بعض السنوات حتى تستطيع القيادة العامة أن تصبح قادرة على الدفاع عن حدود الدول العربية لردع أي عدوان مستقبلي. بالنسبة لإسرائيل فقد كان يلزمنا الزمن لإعداد هذه القوات تحت ظل القيادة الموحدة.

في هذه الفترة التي أتحدث عنها أواخر الخمسينات وما قبل 1964، كانت حركة التحرير ماضية في طريقها ونجحت دول المغرب العربي في تحقيق استقلالها بعد نضال مرير، كما حصلت معظم الدول الإفريقية على استقلالها سنة 63 / 64، وفي نفس الوقت نستطيع القول بأن الخط الذي استطاع (ايدن) أن يقف عنده، وهو الذي سمي بخط شرق السويس؛ هذا الخط بدأ في الانهيار بقيام الثورة العراقية وإنهاء حلف بغداد سنة 58، وحصول دول الخليج العربي على استقلالها الواحدة بعد الأخرى، ثم استقلال اليمن الجنوبي بعد حرب طويل وكفاح مسلح طويل عام 1967م.

خلال هذه المرحلة لا بد من الإشارة إلى الولايات المتحدة، فقد كانت بعيدة عن المنطقة طوال عهد الاستعمار الفرنسي البريطاني، إلا أنها كانت ترى أن مصالحها وزعامتها للعالم الغربي تقتضي تعاملها مباشرة مع دول العالم الثالث، وليس عن طريق لندن أو باريس، كما كانت ترى أن مصالحها تقتضي بسط نفوذها على هذه الدول، وكانت الولايات المتحدة ترى أنها دخلت الحرب العالية الأولى والثانية لإنقاذ أوروبا من الغزو الألماني، ولذلك كانت ترى بأنه لا يجوز لأي دولة غربية أن تبدأ حرباً قبل الحصول على موافقة الولايات المتحدة.

ومن هنا كانت بداية الخلاف بين الولايات المتحدة، وإنجلترا وفرنسا خلال العدوان



الثلاثي عندما بادروا بالعدوان دون موافقة، بل أمام معارضة الولايات المتحدة للعدوان الثلاثي؛ إذ كان لها رأي آخر في طريقة معالجة المشكلة، ومن هنا أخذت على عاتقها الضغط الاقتصادي على بريطانيا وفرنسا لإنهاء هذا العدوان حتى يكون ذلك درساً لكافة الدول الغربية لعدم تكرار هذا الأمر ثانية، وقد نجحت في ذلك، ومنذ ذلك الوقت بدأ للولايات المتحدة دور فعال في المنطقة لا يمكن أن نتجاهله، وسنجد أنفسنا مضطرين دوماً إلى الإشارة إلى دور أمريكا ونحن نتحدث عن العالم العربي قديماً أو حديثاً، وقد كانت الولايات المتحدة تريد فعلاً السيطرة على العالم الثالث، وهو ما كانت تفعله عند قيام الأمم المتحدة، ولذلك كانت قادرة على الحصول على ما تريد من الأصوات في أي قرار كما حدث عندما طرحت قرار التقسيم عام 1947، واستطاعت أن تحصل على الأغلبية المطلوبة رغم ما حدث من رفض الدول العربية، وهذا القرار فيه تعد على شعور الدول العربية، بل والدولة المساندة لها، لأن هناك ظلماً يقع على عاتق الشعب الفلسطيني الذي من حقه الحصول على الاستقلال كبقية دول العالم الثالث في آسيا وإفريقيا والعالم العربي.

وبناء على قرار من الدولة التي انتدبت من عصبة الأمم ثم من الأمم المتحدة، وأصدرت سياستها في ما سمي بالكتاب الأبيض الذي صدر في مايو 1939، وفيه إقرار بحق الشعب الفلسطيني بالاستقلال، وحدد أن هذا الاستقلال يجب أن يتم خلال فترة لا تتجاوز عشر سنوات، وفيه نص صريح بأن لا تقوم دولة يهودية مستقلة، وإنما أكثر ما سمحت به أن يكون هناك نوع من القومية اليهودية؛ أي يكون لليهود مدارسهم ولغاتهم في ظل الدولة الفلسطينية المستقلة.

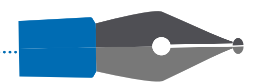
والغريب أن بريطانيا سنة 1947 تجاهلت هذا القرار بعد انتهاء الحرب وبعد هزيمة ألمانيا وخضوعها لمشيئة الولايات المتحدة والصهيونية العالمية، وتنازلت عن موقفها السابق، وبالتالي نجح قرار التقسيم نتيجة سيطرة الولايات المتحدة على الأمم المتحدة، وهو الأمر الذي حرصت عليه دوماً في المنظمة الدولية، ورغم ذلك لم تكن سيطرتها مطلقة، لأننا نجد قرارات تتعلق بالشعب الفلسطيني وحقه في تقرير المصير. صوتت معها 107 دول ولم يصوت ضدها إلا إسرائيل وأمريكا، ويعني ذلك أن الولايات المتحدة عندما كانت تسعى إلى السيطرة على أصوات العالم كانت تعمل هذا في ظل فهمها الحقيقي لواقع السياسة الدولية، ولذلك كانت تعارض كل تكتل داخل العالم الثالث،

فهي تعارض وجود الجامعة العربية، وتعارض منظمة الوحدة الإفريقية، إذا كانت هذه المنظمات تتعرض لأمور سياسية. تلك سياسة أمريكا ولذلك نجد أن إفريقيا قامت بجهود كبيرة لإقامة تكتل لبعض الدول الإفريقية الخاضعة للسيطرة الغربية والأمريكية، حتى نجحت الدول الإفريقية في النهاية في إقامة منظمة الوحدة الإفريقية، التي استطاعت أن تستقل في كثير من أمورها وقراراتها بعيداً عن السيطرة الغربية والأمريكية.

وقد قاومت الولايات المتحدة بشدة مجموعة دول عدم الانحياز، وكل ما سبق ذكره أثار الولايات المتحدة على عبد الناصر بالذات وعلى مصر، لأن عبد الناصر دعا عام 1964 إلى الاجتماع العربي المشار إليه آنفاً، والذي انتهى بقيام تكتل عسكري عربي، وهو ما كانت ترفضه أمريكا، لأن هذا يهدد حليفتها إسرائيل ويعرقل سياستها الدولية. وفي نفس الوقت عام 1964 دعا عبد الناصر إلى قمة إفريقية في القاهرة، وإلى اجتماع عدم الانحياز في القاهرة أيضاً، بحيث حدثت 4 قمم عام 1964، وهو ما لم يحدث في أي عاصمة في العالم، وكانت هناك خطوط عريضة تجمع بين هذه الاجتماعات كلها، وبالتالي أدت إلى إصدار قرارات فيها - الحرية - عدم التدخل - اتباع سياسة عدم الانحياز - إنهاء العنصرية في إفريقيا - مساندة حركات التحرر بالمال والأسلحة.

ولسوء الحظ كان يحكم أمريكا في ذلك الوقت الرئيس جونسون الذي جاء إثر اغتيال كنيدي، والذي قتل كنيدي يهودي وبدوره قتله يهودي آخر، وحتى الآن ورغم كل التحريات والتحقيقات والأبحاث ورغم كل ما نشر لم تظهر نتيجة واضحة عن الجهة التي كانت وراء اغتيال كنيدي. والمهم أن الذي وصل الحكم بعده نائبه جونسون الذي كان عام 1956 عضواً في مجلس الشيوخ، وكان يترأس المجموعة المناصرة لإسرائيل، ولذلك كان أول من وقف ضد الأمم المتحدة الذي صدر في ذلك الوقت لإنهاء العدوان الثلاثي على مصر.

فجونسون نصير إسرائيل وجدناه في الحكم رافضاً لكل هذه الأشياء التي وجد عبد الناصر يدعو لها ولا أقول يتزعمها، بل هو مشارك فيها، وإنما له تأثير أكثر من غيره في بعض المحافل لظروف جغرافية وسياسية، وقد اعتبر (دالاس) وزير خارجية أمريكا في ذلك الوقت أن سياسة عدم الانحياز سياسة غير أخلاقية، لأن دول عدم الانحياز هي من دول العالم الثالث، وأمريكا من حقها أن ترث النفوذ الفرنسي والإنجليزي على تلك الدول في إفريقيا وآسيا، فخروج هذه الدول من النفوذ الغربي خسارة لأمريكا، وبذلك



قد يكون مكسباً للاتحاد السوفيتي، وهو ما لم يخطر على بال أي قائد عربي ولا أي زعيم من زعماء حركة عدم الانحياز.

ورغم ذلك اعتبر جونسون أن عدوه الرئيسي هو مصر أو عبد الناصر بالذات، ولذلك بعد نهاية المؤتمرات التي أشرنا إليها عام 64 قام « الكونجرس « الأمريكي في 26 يناير 1965 بإصدار قرار يقضي بوقف إرسال المعونة إلى مصر، وهي معونة غذائية قيمتها 50 مليون دولار، وكل هذا صدر لا لشيء سوى أنهم يتصورون أن في ذلك عقاباً لمصر على إصرارها في السياسة التحررية للمنطقة العربية والمنطقة الإفريقية وسياسة عدم الانحياز.

وكان على الدول الكبرى أن تعيد النظر في حساباتها الدولية بعد أن ظهرت قوة جديدة تمثلها دول العالم الثالث، وتستطيع أن تؤثر على موازين القوى الدولية، ولم تكتف الولايات المتحدة في ذلك الوقت بوقف المعونة عن مصر، لأن ذلك لم يؤثر على مصر في شيء، لأنها قادرة على مواجهة هذا الموقف، فقامت أمريكا بما هو أسوأ من ذلك، وقد كانت حتى ذلك الوقت لم تسفر عن وجهها تماماً في تزويد إسرائيل بالسلاح، وإنما كانت تكتفي بتمويل شراء الأسلحة الإسرائيلية من الدول الأوروبية، وهذا ما فعلته عام 1964 إلى أن هيأت إسرائيل فعلاً للقيام بالعدوان عام 1967.

بهذا أكون قد ضربت مثلاً واضحاً عن موقف الأمة العربية بالأمس واضطررت إلى التحدث عن الدور الأمريكي والغربي عموماً.

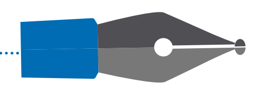
وأنتقل الآن إلى مثل آخر عن التضامن العربي والوقوف العربي في مواجهة العدوان وهو ما حدث في أعقاب حرب 1967 حيث كان لقاء الخرطوم، ورغم أن الخلافات كانت طاغية على الساحة العربية حينئذ إلا أن المؤتمر تم وانتهت الخلافات تماماً، واتخذت قرارات جذرية هامة للغاية في دعم دول المواجهة، حتى تستطيع أن تصمد من أجل معركة التحرير.

ومثال آخر ما حدث في 6 أكتوبر، وقد لمست آثار التضامن العربي من موقعي كأمين عام للجامعة في ذلك الوقت، فقد دعوت مجلس الدفاع في بداية 1973 قبل بدء المعركة، وطلبت من كل دولة عربية أن تحدد على وجه الدقة ما تستطيع أن تقدمه للمعركة، وكانت العادة في السابق أن تتخذ قرارات عامة، حيث تقول كل دولة سوف نضع كل إمكاناتنا ضد العدو، ولكن تبين أنه أسلوب غير نافع فهو نظري أكثر من كونه عملياً، فيجب أن يتغير إلى أسلوب أكثر تنظيماً بأن تحدد كل دولة على وجه الدقة

ما يمكن أن تسهم به فعلياً. وحددنا تاريخاً في مارس 1973، وفعلاً تقدمت كل دولة بما تستطيع المشاركة به من قوات برية أو طيران، حتى أصبح واضحاً أمام القيادة العامة في المعركة. ولعل بعض هذه القوات لم تتمكن من المشاركة لأنها لم تستطع الوصول إلى ساحة القتال، ولكن لا يمكن إلقاء اللوم على الدول العربية لأنها لم تتخلف عن تنفيذ التزاماتها، وكان الكثير من هذه القوات في طريقة فعلاً إلى أرض المعركة، بل إن بعضها نجح في الوصول واشترك في القتال، ولكن موعد القتال جاء في وقت لم تنجح فيه بعض القوات في الوصول إلى الجبهة.

وقد أشرت إلى هذا الأمر للتأكيد على أن التضامن العربي في ذلك الوقت لم يكن مجرد وهم أو تعبيراً بلا مضمون، وإنما حقيقة قائمة، وكانت الدول العربية كلها على أتم استعداد للمشاركة بكل ما تملك، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فاستخدمت الدول البترولية أقوى سلاح، هو سلاح البترول، وقد كان في ذلك مفاجأة ضخمة للغرب جميعاً، مما أرغم الدول الغربية أن تغير من سياستها. فقد التقت المجموعة الأوروبية في 6 نوفمبر 1973 وطالبت إسرائيل بالانسحاب إلى خط يونيو 1967، وكان ذلك تفسيراً واضحاً وصريحاً للقرار 242 الذي صدر عن الأمم المتحدة سنة 1967 م. كانت الدول الغربية تشعر بوطأة هذا السلاح الجديد وكانت ترى أنها يجب أن تقف بجانب الأمة العربية لتثبت أنها بجانب الحق، فتضمن وصول البترول إليها، وفي هذه الحالة فإن كل دولة تعمل على تحقيق مصالحها ولم يقتصر الموقف على أوروبا فحسب بل اشتركت فيه اليابان بشكل أو بآخر، فكل دولة تبحث عن مصالحها، الأمر الذي أدى إلى تشكيل ضغط كبير جداً على الرئيس نيكسون في ذلك الوقت، وتبين أهمية الدور الذي لعبته الأمة العربية وأهمية السلاح المستخدم، وهذا التاريخ وارد ومعروف، وقد كتبت فيه بتفاصيل في كتب، ولكني أريد التركيز على مدى التضامن العربي.

وقد قرر نيكسون تحت ضغوط كيسنجر رجل إسرائيل الأول في البيت الأبيض أن يقدم لإسرائيل مساعدة قدرها ألفا بليون ومائتا مليون دولار، وذلك رغم اجتماع وزراء البترول العرب في الكويت وإصدارهم قراراً بتخفيض إنتاج البترول شهرياً، فلما صدر قرار نيكسون وفي اليوم التالي مباشرة أصدر الملك فيصل قرار بحظر تصدير البترول إلى أمريكا نهائياً وهولندا، وزيادة نسبة تخفيض الإنتاج من 5 إلى 10%،واتخذت كافة الدول المنتجة للبترول نفس الموقف، فكان التضامن العربي ظاهراً أمام العالم كله، حتى شعر



أن المسألة ليست مجرد قرار يوزع على الصحف ولا يقرأ، وأحس كل فرد في الغرب في آسيا وفي اليابان أن البترول نقص، والشتاء زاحف، فكان الإجراء قوياً عملياً يشعر هؤلاء أن هناك فعلاً تضامناً عربياً وأن هذا التضامن حقيقة قائمة لا مجرد سراب، إلا أنه للأسف حصل تطور في الجبهة المصرية أدى إلى حدوث ثغرة وإلى قيام كيسنجر بدوره المعروف، وتراجعت الولايات المتحدة عن سياستها المعلنة بضرورة الحل الشامل، واتبعت ما سمي بسياسة الخطوة خطوة، وكانت أولى الخطوات إخراج مصر من المواجهة العسكرية وتوقيع معاهدة الصلح بين مصر وإسرائيل. وعلى أي حال هذه مسألة ثانية، لقد عرضنا بعض ملامح الموقف العربي في الماضي، وكيف كان التضامن العربي يحدث أثراً قوياً ولما تحدث قمة ويلتقي العرب على قضية واحدة كانوا يستطيعون دائماً أن يكونوا مؤثرين، رغم أن العدو قوي للغاية، فالعدو الذي أمامنا ليس إسرائيل وحدها لأن معها أكبر دولة في العالم «أمريكا» التي تعتبر إسرائيل حليفها الأول، ومؤخراً ضمتها للمجموعة الأوروبية، فالسند سند ضخم للغاية ويحتاج إلى جهود ضخمة جداً لمواجهة تهديده للأمة العربية.

الموقف العربي اليوم

يجب أن نحلله التحليل العلمي السليم، فبعض الأحيان نسمع أن توقيع السادات معاهدة السلام مع إسرائيل هو السبب في الخلافات العربية القائمة. وهذا يبعدنا عن الحقيقة ولا يتيح لنا معالجة أخطائنا. وللأسف فإننا كعرب نحمل عيباً كبيراً، ذلك أنه إذا لحقت بنا هزيمة أو خطأ لا نحاول أن نحلل الموضوع أو ندرس أسباب الهزيمة، يعني منذ سنة 48 لم يحدث إطلاقاً أنني شاهدت دولة عربية واحدة بحثت في أسباب هزيمة، وقد أصبنا بعدة هزائم، فهل تدارسنا أسبابها والعلاج الناجح لها؟

لم يحدث شيء من ذلك، بعكس العدو، فهو يتوقف عند كل هزة، ومن ذلك أنه لما نجحت القوات السورية والمصرية في الأيام الأولى من المعركة، ونجاح القوات المصرية في عبور قناة السويس واكتساح خط بارليف، كان ذلك في نظر العدو مسألة خطيرة للغاية أخذت إسرائيل تبحث فيها بجد، ورأت الأمر تقصيراً منها، وكونت لجنة للبحث ونشرت أعمالها، وحددت أسباب ذلك التقصير منعاً لتكراره، ولو أننا كنا نفعل نفس الشيء في أخطائنا ما كانت أخطاؤنا لتتكرر.

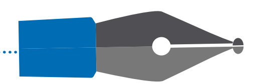
نحن لا ننكر أن توقيع معاهدة الصلح تسببت في زيادة التشتت العربي، لأنها أدت

إلى عزل مصر عن المجموعة العربية وإحداث خلل خطير في التوازن الإستراتيجي العربي - الإسرائيلي، وهذه حقيقة مسلم بها، لكن هذا لا يعفي أطلاقاً عدداً كبيراً من الدول التي اشتركت في قمة بغداد والتي اتخذت قرارين:

1 - قرار التنديد بكامب ديفيد، وهذا موقف سياسي وسليم 100 % لأن الحل المنفرد مرفوض في نظري دائماً، ولكنه يعد قراراً سلبياً، لأن قرار التنديد من القرارات السلبية ؛ إذ تلقي اللوم على شخص وينتهي الأمر عند هذا الحد.

2 - قرار إيجابي وضخم جداً وهو دعم الجبهة الشرقية، وفي ذلك الوقت كان هناك ميثاق قومي عقد بين سوريا والعراق، ورؤساء قمة بغداد أثنوا على هذا الميثاق القومي، واعتبروه قاعدة سليمة في قيادة الجبهة الشرقية التي تتركز على 3 دول: العراق سوريا الأردن، ولو وجدت قواتها تحت قيادة موحدة فهي ستكون فعلاً متفوقة على القوات الإسرائيلية، ومع ذلك لم تكتف الدول العربية بإنشاء الجبهة فقط، ولكن رأت من الضروري دعمها بالسلاح وهو يحتاج إلى المال. ولم تتأخر الدول العربية عن اتخاذ قرار بتقديم 35 بليون دولار على مدى 10 سنوات أي 3.5 بليون دولار سنوياً، وهو أكثر بكثير مما تستطيع هذه الدول الثلاث أن تستوعبه حتى من الأسلحة التي عليها شراؤها لدعم هذه الجبهة. وحتى نعرف أن هذا المبلغ لم يكن بالمبلغ الصغير يمكن مقارنته بما تلقته إسرائيل من أمريكا من دعم في نفس تلك الفترة بالنسبة للسلاح، حيث لم يتجاوز هذا الدعم الأمريكي 12 بليون دولار، ويعني ذلك أن ما كانت ستتلقاه الجبهة الشرقية يصل إلى ثلاثة أضعاف ما وصل إلى إسرائيل من أمريكا.

صدر هذا القرار إذاً وفيه تصور لقيام جبهة شرقية، ولما ستناله من عون ضخم سيؤدي إلى إصلاح الخلل في التوازن الإستراتيجي مع إسرائيل، وإلى دفع أي عدوان إسرائيلي بل إلى إرغام إسرائيل على الانسحاب من الأراضي التي احتلها في 67. ولكن للأسف هذا القرار لم ير النور وهذا يعود بنا ثانية إلى المأساة العربية، وإلى الخلافات التي دبت هذه المرة بين أعضاء الجبهة الشرقية أنفسهم، فقد اختلف العراق مع سوريا التي قطعت البترول الذي يمر من العراق إلى البحر الأحمر، ثم اختلفت الأردن مع سوريا، واختلفت منظمة التحرير مع سوريا، ودبت الخلافات بين الشركاء الأربعة داخل هذه الجبهة الشرقية التي كان عليها مواجهة العدوان الإسرائيلي. وحتى الميثاق القومي الموقع بين العراق وسوريا ضل طريقه واشتدت الخلافات بين الدول الأعضاء، واستغلت إسرائيل



هـذه الخلافـات، لأن أقـوى سـلاح تمتلكـه إسرائيـل هـو الخلافـات العربيـة، ولذلك نجـد إسرائيل تشـن اعتداءاتهـا دائمـاً عندمـا تتفاقـم الخلافـات العربيـة، لأنهـا تجـد المسـرح مهيئـاً لهـا؛ إذ تعلـم أنها عندمـا تعتـدي عـلى دولـة فلـن يتحـرك أحـد لمسـاندة تلـك الدولـة، والـرأي العـام أيضـاً لـن يتحـرك، لأن هنـاك أمـة عربيـة مفككـة، ولهـذا كانـت إسرائيـل تتصيـد باسـتمرار جـو الخلافـات لتوجيـه ضرباتهـا كـما حـدث في غارتهـا عـلى بغـداد لتدمير المفاعـل النـووي، ومـا كانـت تسـتطيع أن تفعـل ذلـك بـدون الطائـرات والأسـلحة الحديثـة التـي حصلـت عليهـا مـن الولايـات المتحـدة، ولم يقـف الأمـر عنـد هـذا الحـد، فقامـت باجتيـاح الجنـوب اللبنـاني بحجـة القضـاء عـلى المقاومـة الفلسـطينية، وكلنـا سـمعنا عـن المذابـح التـي ارتكبتهـا في صـبرا وشـاتيلا، وهاجمـت المواقـع السـورية في لبنـان، لأنهـا وجـدت الوضـع مفـككاً عربيـاً، وبالتـالي تسـتطيع أن تـضرب هنـا وهنـاك. وبهـذا يتبـين أن انهيـار العمـل العـربي الموحد مكسـب ضخـم لإسرائيل، وانتصـار للسياسـة الأمريكيـة التـي ظهـرت واضحـة في المذكـرة التـي قدمهـا السـفير الأمريـكي لرئيـس وزراء سـوريا في فبرايـر1955، ويهمنـا ذكرهـا لـنرى مـدى الاسـتمرارية في سياسـة الـدول الكـبرى، فنحـن نقـرر سياسـة أو نصـدر قـراراً في قمـة عربيـة ثـم ننسـاه في اليـوم التـالي، وننسـي أن عندنـا خطـة وافقنـا عليهـا، وننـسى القـرار نهائيـاً ونأخـذ غـيره، بينـما تضـع الـدول الكـبرى سياسـتها عـلى امتـداد 30 أو 40 سـنة وتسـتمر عليهـا حتـى تحققهـا.

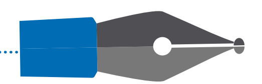
كانـت أمريـكا عـام 51 تسـعى إلى ضـم المنطقـة للأحـلاف، ولكـن الأحـلاف أخـذت أشـكالاً متعـددة، فمـرة تحـت اسـم قيـادة الـشرق الأوسـط وهـو اسـم مقـترح عـلى النحّـاس باشـا سـنة 51،واقـترح عـلى عبـد النـاصر سـنة 53 ورفضـه الاثنـان، ثـم طـرح حلـف بغـداد وقبلـه نـوري السـعيد ورفضتـه الأمـة العربيـة، ثـم رفضـه الشـعب العراقـي نفسـه سـنة 58، ثـم طرحـت مسـميات عديـدة، مـرة تحـت مـا يسـمى قـوة الانتشـار السريـع، ومـرة تحـت اسـم آخـر، وهكـذا إلى أن فرضـت أخـيراً مظلـة الحمايـة عـلى الخليـج بحجـة تهديـد المـوارد البتروليـة، ومـن هنـا أخـذت أمريـكا موقفـاً منفـرداً لكـن هـذا الموقـف المنفـرد شـبيه بمبـدأ (إيزنهـاور) الـذي أصـدره عـام 57، وقـال فيـه إن عـلى الولايـات المتحـدة أن تمـلأ الفـراغ الذي حـدث نتيجة خـروج القـوات الفرنسـية والإنجليزيـة مـن المنطقـة، وفي ذلـك الوقـت ثـارت الشـعوب العربيـة وقالـت إنـه لا يوجـد فـراغ، وإنمـا يوجـد شـعوب عربيـة هـي التـي تمـلأ الفـراغ وليسـت دولـة أجنبيـة أخـرى، وإلا فـإن الاسـتعمار يكـون خـرج مـن البـاب ودخـل مـن النافـذة.

وفي زماننـا هـذا أخـذ الرئيـس ريغـن عـلى عاتقـه أن يعلـن أن الحمايـة يجـب أن تقـع دون

اعتبار ولا موافقة لشعوب ولا لحكومات المنطقة، وهذا جزء من السياسة الأمريكية التي بدأت عام 1951. وقد قالت في مذكرة لها بمنتهى الوضوح في فقرة متعلقة بإسرائيل: إن نمو الترتيبات الدفاعية وتحسين العلاقات العربية الإسرائيلية أمر ضروري للمساهمة الفعالة من قبل الولايات المتحدة في الدفاع عن الشرق الأوسط. والدفاع في وجهة نظرها هل ضد الاتحاد السوفيتي أو ضد إسرائيل؟ وهو في الواقع لا هذا ولا ذاك، إنما في النهاية سيطرة أمريكية على الشرق الأوسط، وذكرت أيضاً أن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تبدد مواردها في دول غير متجانسة داخل المنطقة أو في سباق التسلح بين العرب وإسرائيل، فهي لا تريد أن تصرف وقد نفذت جزءاً من هذا، وهو عدم إعطاء السلاح للدول العربية، وإعطاء السلاح كله لإسرائيل؛ يعني نفذت نصف قرارها. وأما فيما يخص الجامعة العربية فترى أمريكا أن دورها يجب أن يقتصر على العمل في المجالين الاقتصادي والاجتماعي، أما معاهدة الدفاع المشترك فهي ترى أنها لا تفي بحاجة المنطقة، ولا ترى سلفاً إمكانية دعم الاتفاقية أو أي تنظيم يخلفها، ففي هذا الوقت كان صدور الميثاق الثلاثي بين مصر وسوريا والأردن، وتقول أمريكا بصراحة للدول العربية إنها لن تساندها في السلاح الذي تطلبه منها، علماً بأن هذا الموقف سبقه التصريح الذي صدر عام 1950 عن أمريكا وإنجلترا وفرنسا الذي يخص الإشراف على توزيع السلاح في المنطقة وضمان السلام فيها؛ إذ ستقوم هذه الدول الثلاث داخل الأمم المتحدة وخارجها بأي عمل ضد أي دولة معتدية على المنطقة.

ومن يسمع هذا يقول إنه كلام جميل، ولكن هل ستقوم هذه الدول برد إسرائيل وردعها إن هي اعتدت علينا؟ الواقع يبين أن شيئاً من ذلك لم يحصل، فلو قامت إسرائيل بالهجوم فستباركه تلك الدول، أما إذا قام العرب بهجوم فستتذكر تلك الدول بيان سنة 1950 وتتدخل لضرب الدول العربية بدليل ما حدث سنة 1956 أن دولتين من الذين أصدروا هذا التصريح المشار إليه اشتركتا في الاعتداء على مصر بالإضافة إلى إسرائيل، وفي ذلك قضاء على مضمون ذلك التصريح الثلاثي الصادر عام 1950. ويتبين من هذا الرفض الصريح من أمريكا لدور الجامعة العربية كمؤسسة سياسية، كما ترفض قيام أي مؤسسة في نطاق الجامعة للدفاع ضد العدوان الإسرائيلي.

ولذلك لا تستغرب إطلاقاً محاولات الدس والوقيعة التي كانت تقوم بها دائماً بين الدول العربية، خاصة إذا أقدمت على إقامة دفاع مشترك، أو إنشاء قوة موحدة.



وهـذا تاريـخ طويـل يصعـب -إن يسـمح الوقـت- بالخـوض فيـه. وعـلى أي حـال فشـلت بـكل أسـف كل المحـاولات المتتاليـة مـن أجـل إقامـة القيـادة الجماعيـة العسـكرية، وكان آخرهـا الفشـل الـذي حـدث بعـد قمـة بغـداد 78، والخلافـات العربيـة كـما أشرنـا تفتـح شـهية إسرائيـل للاعتـداءات، وقـد أشرت إلى مـا قامـت بـه مـن اعتـداء عـلى العـراق ولبنـان، وإن كان غـزو لبنـان عـام 82 يجـب أن يتضـح أمـام النـاس كـما ورد في المذكـرات والكتـب الأمريكيـة، فقـد تـم بالتواطـؤ مـع وزيـر خارجيـة أمريـكا في ذلـك الوقـت (هيـج).

وليـس غريبـاً في نظـري أن إسرائيـل بعـد نجاحهـا في احتـلال لبنـان واصلـت تنفيـذ خطتهـا في الأراضي الفلسـطينية بإقامـة المسـتعمرات والاسـتمرار فيهـا والعمـل عـلى تفريـغ الضفـة الغربيـة مـن سـكانها تمهيـداً لإعـلان ضـم مزيـد مـن الأراضي الفلسـطينية، وزاد الموقـف سـوءاً الخلافـات الطائفيـة في لبنـان حيـث اندلعـت الحـرب الأهليـة وعجـزت كل الجهـود عـن وقفهـا، وامتـدت الخلافـات للأسـف مـن بـين الـدول العربيـة إلى منظمـة التحريـر، فحـدث الـصراع في قمـة المأسـاة العربيـة التـي نعيشـها، ونحـن نـرى معسـكرات اللاجئـين تحـاصر بواسـطة قـوى لبنانيـة للقضـاء عـلى مـن فيهـا، ولا أعتقـد أن هنـاك شـعباً في العـالم نـال مـن العـذاب مـا نالـه الشـعب الفلسـطيني، فقـد أخـرج مـن ديـاره ولجـأ إلى أرض عربيـة وإذا بأهـل الأرض العربيـة يلاحقونـه للقضـاء عليـه، وهكـذا أصبحـت السـاحة العربيـة مكشـوفة تمامـاً في أيامنـا أمـام العـدو الإسرائيـلي، فالأمـن العـربي لم يعـد لـه مـن يحميـه أو يصونـه.

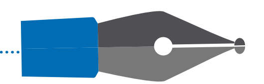
وإذا كنـت أشرت بـشيء مـن التركيـز إلى التهديـد الإسرائيـلي للأمـة العربيـة، فذلـك لأن البـلاء الأكـبر كـما أسـميه،لأنه تهديـد يصـل إلى قلـب الأمـة العربيـة، وهـو تهديـد مـا زال ينمـو ويتوسـع وينتهـز الفـرص لاحتـلال المزيـد مـن أرض العـرب، ولا يمكـن أن نتجاهـل أو نقـف موقـف المتفـرج مـن الحـرب الدائـرة بـين إيـران والعـراق، التـي تهـدد أمـن منطقـة الخليـج العـربي، وهـي حـرب تسـتنزف العـراق وإيـران في نفـس الوقـت؛ حـرب تـدور بـين شـعبين أراد اللـه أن يتجـاوروا وسـيبقي هـذا الجـوار إلى يـوم القيامـة، وهـذه الحـرب يجـب أن تتوقـف لأنهـا سـتجر الخـراب والدمـار ليـس للجيـل الحـاضر وحـده بـل للأجيـال العديـدة مسـتقبلاً، ومـن زار العـراق وقـرأ تاريخهـا يجـد أن التدمـير الـذي أحدثـه التتـار في العـراق ظلـت آثـاره باقيـة إلى سـنوات قليلـة ماضيـة، قبـل أن تبـدأ العـراق في عمـل المنشـأة الزراعيـة الحديثـة، ولذلـك فـإن هـذه الحـرب المدمـرة

سواء في إيران أو العراق لا يتحمل الجيل الحالي فحسب أعباءها، وإنما الأجيال القادمة ستتحمل عبئاً كبيراً جداً نتيجة ما يحدث من استنزاف في البلدين على السواء.

الدور الأمريكي الراهن:

في هذا الجو العربي نرجع ثانية إلى الدور الأمريكي لأنه مطروح على الساحة، ففي الأخبار أن (مرفي) كان موجوداً في المنطقة من أجل قضية السلام ونحن نتساءل أي سلام؟ هل هو مشروع السلام الذي طرحه (ريغن) وأنا لا أرى فيه خطوة أو مشروعاً لأنه يتضمن أفكاراً أمريكية واردة، لقد أعلن الرئيس الأمريكي عن خطته سنة 82 ونحن الآن في سنة 87، وبين هذين التاريخين لم ينفذ حرف واحد مما ورد في الخطة، بل حدث تراجع من (ريغن) عن كافة الأفكار التي أعلنها بسرعة فاقت سرعة تراجع (كارتر) عن تعهداته حول الحل الشامل، بل سارع بتنفيذ ما نادى به، وأبسط مثال لذلك إعلانه أن الولايات المتحدة لن تؤيد استغلال أي أراضي بغرض إقامة مستوطنات إسرائيلية، وطلب من إسرائيل تجميد بناء المستوطنات، وكان ذلك موقف أمريكا، فما هو موقف إسرائيل؟

لقد قامت إسرائيل بعد هذا الإعلان الأمريكي بمصادرة 50 % من أراضي الضفة الغربية وقامت ببناء أكثر من 120 مستعمرة، والمستوطنة ليست قرية من أكشاك خشب بل هي مدن عامرة شامخة البنيان كما يراها بعض الإخوة الأردنيين، وكل هذا حدث بعدما أصر كارتر على توقف إسرائيل عن بناء المستعمرات، وإسرائيل تعتمد في إقامة هذه المستوطنات على هبات (وليست قروضاً) تلك التي قدمها الرئيس الأمريكي لها، وقد عمدت إسرائيل بمجرد سماعها لأفكار ريغن قبل ظهور خطته إلى رفض هذه الأفكار، لسبب بسيط جداً،هو أنه أشار في أفكاره إلى أهمية الانسحاب من قسم من الأراضي الفلسطينية، وأنا تعرضت لهذا الأمر لأنه سيواجهنا باستمرار موقف أمريكي من حين لآخر وزائر أمريكي أو زائر أوروبي، وهو ينادي بتأييد الأمة العربية في موقفها بالنسبة لمؤتمر السلام الدولي، وينسي هذا الزائر أن بلده قالت إن المطلب العربي هو الانسحاب الإسرائيلي، فبدل المطالبة بهذا الانسحاب صار اليوم يقول إنه موافق على مؤشر السلام الدولي الذي هو عنوان غامض لشيء هلامي



قد لا يكون له أي معنى، أو له معنى في ذهن إسرائيل يختلف تماماً عن المعنى الموجود في أذهان القادة العرب، وعن المصلحة العربية، وتتمثل الطريقة الأمريكية في أنهم كلما سمعوا باجتماع لرؤساء عرب يقومون بتقديم مشروع مثلما حدث سنة 1969 في الرباط، حيث تقدموا بمشروع روجرز لمصر والأردن بعد نهاية المؤتمر. وكل هذه المشاريع ينتهي أمرها ولا يتحدثون عنها بعد ذلك. فلما قدم ريغن مشروعه أو أفكاره كانت قمة فاس في طريقها للانعقاد.

وهنا أتطرق إلى الموقف العربي في قمة فاس، حيث قبلت الدول العربية مبدأ السلام مع إسرائيل مقابل انسحابها من الأراضي العربية، والمبدأ الذي كان مطروحاً علينا من يونيو 67 وافقنا عليه في 82، ولأول مرة وفي هذه الخطة التي هي خطة شاملة، فضلاً عن كونها خطة سلام، تنازلت الدول العربية جديداً عن قرار التقسيم، لأنها طالبت إسرائيل بالانسحاب فقط إلى خط 67 وقبلت مبدأ قيام فترة انتقالية للضفة الغربية وقطاع غزة، وهو اقتراح أمريكي سابق.. وفي ذلك دليل على رغبة الدول العربية في تحقيق السلام وهو أمر عملي ومطلوب، وهذا جعلها تتقدم بخطة السلام مقترنة ببعض الأفكار الأمريكية، ولكن كل ذلك رفض بمجرد مطالبة إسرائيل بالانسحاب إلى خط 67، وبعد هذا مباشرة حدث تقدم عربي آخر وتحرك هام وهو الاتفاق الأردني الفلسطيني الذي بيَّن استعداد الطرفين لقيام نوع من الاتحاد بين الشعبين، لكننا نجد أن الموقف الأمريكي دائماً في تراجع أمام المطالب الإسرائيلية، أو أمام الرفض الإسرائيلي، فبدأت تضع شروطاً تعسفية على الدول العربية، لأنها ترفض الاعتراف بمنظمة التحرير، والعالم كله معترف بها، والجامعة العربية ودول عدم الانحياز ومنظمة القمة الإسلامية والمنظمة الإفريقية والأمم المتحدة، فالكل معترف بمنظمة التحرير ما عدا الولايات المتحدة وإسرائيل، فقط لا يعترفان بها ولا يكتفيان بذلك وإنما يطالبان المنظمة بالاعتراف بالقرار 242 دون أي مقابل، رغم أنها أظهرت مرونة في إعلانها قبول كل القرارات المتعلقة بالقضية.

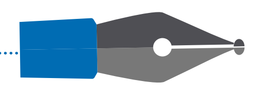
وأستطيع أن أقول إن صيغة السلام الأمريكية التي طرحها ريغن قد انتهت تماماً ولم يبق منها سوى كلمات يطلقها ريغن بين حين وآخر، عندما تسأله الصحف عن الشرق الأوسط وهو نادر الآن، بل إن الصحافة الأمريكية لم تعد تتكلم عن قضية الشرق الأوسط و (مرفي) لما وصل لم يكن يجمل معه أي مشروع إنما كان

قادماً فقط لنوع من الإعلام للرأي العام الداخلي في أمريكا والرأي العام الأوروبي وكأن أمريكا لا زالت مهتمة بالقضية الفلسطينية. يعني باختصار أنه قادم في فسحة وسياحة للدول العربية يأكل ويشرب ثم يعود دون مشروع ولا شيء من ذلك.

في نفس الوقت نجد أن إسرائيل لها مخططاتها فماذا تريد أن تنفذ في هذه المرحلة في صورة انعقاد مؤتمر دولي للسلام؟ يقال إنها تعتبر مؤتمر السلام الدولي عبارة عن حاجة شرفية أو احتفال تحضره بعض الدول، ثم تنصرف وتصير إسرائيل تتفاوض مباشرة مع الدول المعنية، ولكن في ظل ماذا؟ في ظل احتلال إسرائيلي للأراضي العربية، وفي ظل تفوق عسكري إسرائيلي على الأراضي العربية؛ إذن فلن يوجد أمام العرب إلا الرفض أو العودة إلى الوضع الذي هم يعرفونه أو القبول. لماذا؟

لأن طلبات إسرائيل هي بمنتهى البساطة اعتراف رسمي بدولة إسرائيل التي تضم كافة الأراضي الفلسطينية، مع أنها تحصل على حق مرور البضائع والأفراد؛ يعني التعامل التجاري مع الدول العربية وهذا مطلب إسرائيلي قديم جداً من الأربعينات من بعد توقيع اتفاقية الهدنة، وهذا كان مطلباً دائماً لإسرائيل. وملخص القول في موقف إسرائيل أنها تزداد تصلباً، ترفض مبدأ السلام مقابل الأرض، وتهدد باستمرار بالعدوان، وقد صارت الولايات المتحدة حليفاً رسمياً لها تنفذ كل طلباتها في المنطقة، فتقيّد بيع السلاح لمصر والسعودية والأردن ودول الخليج، واختفت مشاريع السلام الأمريكية وحلت محلها مشاريع دعم إسرائيل عسكرياً واقتصادياً، وتقوم أمريكا بشراء الأسلحة من إسرائيل وإشراكها في حرب الكواكب وإقامة منطقة حرة لمعاونة إسرائيل في زيادة صادراتها لأمريكا، وإزاء التشتت العربي وغياب موقف موحد للأمة العربية، بدأت الولايات المتحدة للأسف تدخل مرحلة جديدة.

وأضطر مرة أخرى للعودة إلى دور أمريكا الذي لا ينتهي فهو مستقر ومعشش داخل الأراضي العربية، وقد كانت في الماضي تتستر وراء إسرائيل في الاعتداءات، أما الآن فوجدت أنه لا داعي للتستر، فالعالم العربي مشتت، فلتقم بالضرب مباشرة، ورأيناها بمنتهى البساطة تبعث طيرانها لضرب ليبيا. ومهما كانت المبررات فقد ضربت شعباً فيه نساء وأطفال وشيوخ تعرضوا للقتل؛ أرض عربية قصفت بطيران أمريكي وعدوان أمريكي على أرض عربية، ثم خطف طائرة مصرية، وضرب لبنان



بأسطولها البحري، وحالياً الأسطول السادس يحشد أمام السواحل اللبنانية، وشولتز يهدد بمنتهى البساطة بضرب بيروت.

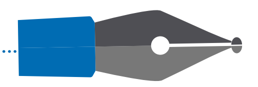
فقد أصبحت الأمة العربية أمام خطر جديد وهو تهديد مسلح من قبل دولة عظمى، ورغم هذه المخاطر ما زالت القمة العربية عاجزة عن الانعقاد بكل أسف، وكان المفروض بعد قمة فاس 82 والإعلان عن خطة السلام أن تقوم الدول العربية بعمل تنظيمي لوضع خطة بعيدة المدى للعمل على تحقيق خطة السلام، إلا أن عدم متابعة الدول العربية لهذه الخطة التي وضعتها أدّى إلى نسيان الرأي العام العالمي لها، بل ونسيها أيضاً الرأي العام العربي، وبدأ البعض يشير إلى غياب خطة عربية وعدم وجود رؤية عربية موحدة ومحددة، فنحن أنفسنا نسينا ما خططناه، ونريد في كل شهر أن نضع خطة جديدة، وكل خطة جديدة تعني تنازلاً جديداً، لذلك فمن الضروري التذكير باستمرار بخطتنا العربية والتمسك بها باعتبارها هدفاً استراتيجياً يحتاج تنفيذها إلى سنين عديدة، ولن تنفذ في يوم وليلة، وذلك أمر يتوقف على إمكانية التضامن العربي وبدونه لن يتحقق شيء ولو بعد مئات السنين، فكلما ازدادت قوة التضامن اختصرت مدة التنفيذ، وهذا ما يدعوني أن أختم حديثي بما يلي:

خاتمة:

أختم حديثي بالتوقف عند دور مصر وغياب هذا الدور، ففي نظري أنه آن الأوان في مثل هذه الظروف الراهنة لأن تقف الدول العربية التي هي مستمرة في مقاطعة مصر وقفة جادة؛ إذ لا يمكن استمرار القطيعة مع أكبر دولة عربية، لأن في ذلك إهدار للقوة العربية وإمكاناتها، وواجب هذه الدول أن تسعى بكل طاقاتها للحفاظ على دور مصر والتمسك به، والمصلحة العربية العليا تقتضي الإسراع بإقامة تعاون مثمر بين مصر وبقية الدول العربية خاصة، بعد أن شهدت مصر تحولاً جذرياً في سياستها الخارجية منذ تولي الرئيس حسني مبارك، فقد اتبع سياسة عربية بناءة واتخذ موقفاً، يعبر فيه تعبيراً صادقاً عن الرأي العام المصري بتأكيده على الدوام أن مصر جزء من الأمة العربية، ولا يمكن التخلي عن دورها بالنسبة للقضايا العربية، ودعا إلى وحدة الكلمة العربية، وهذا ما يدعوني إلى القول بأنه

يجب على الدول العربية أن تعيد حساباتها بعد هذا التطور الحاصل في سياسة مصر، حتى يمكن تصحيح الموقف العربي الحالي المليء بالمتناقضات، وعلينا أن نسعى جادين لوضع أقدامنا على الطريق السوي السليم؛ طريق التضامن العربي، وعلينا تجاوز أزمة الثقة بين الرؤساء العرب، ومن دون ذلك سوف تستمر الأوضاع العربية في تدهورها، وسوف يستمر التصادم العربي العشوائي دون تفكير عقلاني في المستقبل، وإذا نحن نجحنا في تجاوز أزمة الثقة، فإن ذلك سيؤدي إلى رغبة الرؤساء العرب في إلقاء خلافاتهم خلف ظهورهم، لحماية بلادهم وجعل المصلحة القومية نصب أعينهم، ويدركون أن الأمن العربي بشموله السياسي والعسكري والاقتصادي هو مسؤولية جماعية، ويجب أن ندرك دائماً أن الحق إلى جانبنا. وأنا ألح على أن الحق دون قوة تسانده يصبح مجرد ذكرى يرددها الضعفاء والمتقاعسون عن الكفاح لاسترداد حقوقهم.

وشكراً والسلام عليكم،،،



المناقشة

س: أكدت مجلة (المجلة) أن سيادتكم هو المبعوث إلى الشقيقة سوريا الذي عينه الرئيس حسني مبارك قبل لقاء الكويت، للحيلولة دون حدوث مواجهة إعلامية بين البلدين.

ترى ما الذي دار في هذا اللقاء، وما مساعيكم الحميدة حول لقاءات التنسيق لكي تتعاون دول المواجهة لمنع انهيار الموقف العربي المتردي؟

ج: أعتقد أن الإجابة جاءت في حديثي، لأني كنت أتكلم عن التضامن العربي، حيث لا يمكن مواجهة العدوان دون تعاون جدي بين دول المواجهة، وإذا رجعنا إلى التاريخ إلى أيام صلاح الدين وجدنا أن هزيمة الصليبيين لم تتم إلا عندما توحدت القوات الشامية والمصرية، فالعمل العربي المصري السوري الذي نحاوله منذ عام 1955 وبصفة مستمرة، حيث جرت عشرات المحاولات من الاتفاقيات العسكرية بين البلدين، وهذا يجب أن يستمر لمواجهة الموقف الحالي. لا شك أن هناك صعوبة باعتبار توقيع مصر معاهدة الصلح مع العدو، وهذا يشكل عقبة، الموقف فيه تهديد للأمة العربية وهذا يحتاج إلى تفاهم وتراض بين دول المواجهة أو ما أسميه دول المساندة، حيث يجب وجود مجموعة دول عربية متفقة على خطة معينة.

س: لا يختلف اثنان على أن الولايات المتحدة هي مصدر قوة إسرائيل وتفوقها الكبير، في حين أن معظم الدول العربية على علاقة جيدة مع أمريكا، فماذا يمكن أن تفعل هذه الدول مع أمريكا لتحييدها على الأقل؟

ج: لا نستطيع أن نضغط على أمريكا وبيتنا مهلهل مهدم، أولاً ننظم البيت العربي، نصلح من شأننا، نتفق، وعندما يتم ذلك نستطيع أن نشكل ضغطاً، وقد قدمت مثلاً عما حدث من ضغط أيام سلاح النفط، فقد قال نيكسون لكيسنجر إن أزمة البترول طاحنة ولا بد من الضغط على إسرائيل استجابة للائحة مجلس الأمن الصادرة في ذلك الوقت، فقد كان للاتفاق العربي أثره. نحن الآن عندما نتكلم مع أي طرف يقول لنا أنت تتكلم باسم من؟ وعندها عليك أن تخرج قائمة الدول العربية كلها ثم تسرد موقف كل دولة، فهناك تعدد المواقف في قضية واحدة، والمطلوب وحدة الموقف العربي على الأقل في القضايا الرئيسية، حتى يكون لموقفنا تأثير عند الحديث مع أي طرف في أمريكا أو أوروبا.

س: دعوتم إلى عودة مصر إلى العرب كيف يمكن ذلك في ظل استمرار معاهدة الصلح مع إسرائيل؟ وما هي نتائج اتصالاتكم مع الرئيس الأسد لإعادة العلاقات المصرية

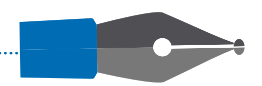
السورية؟ وهل تعتبرون دخول القوات السورية بيروت استكمالاً لقرارات قمة الرياض التي شاركتم فيها عام 1978؟

ج: « عودة مصر إلى العرب» تعبير خاطئ فمصر جزء من الأمة العربية، كل ما في الأمر أن توقيعاً تم من السادات على معاهدة صلح منفرد، بينما كنا جميعاً نطالب بالحل السلمي الشامل. وهنا أشبِّه الأمر بحادث مرور سيارة ضربت شخصاً وكسرت رجله فلابد من علاجه ولا تقدر منع الحادث من الحدوث، يقول البعض الغ الاتفاق، ولكن ذلك غير ممكن لأني بإلغائه أعطي إسرائيل مبرراً لعودة الوضع إلى ما كان عليه وتحتل سيناء ثانية، فهل لدي أنا اليوم قوات لرد إسرائيل عن سيناء وهي منزوعة السلاح، نحن في حاجة إلى مجهود ضخم لإخراجها من سيناء، ونضيع وقتاً وجهداً مرة أخرى في هذا الموضوع.

وطالما أن هناك وضعاً وحكماً في مصر يطالب اليوم بالعمل العربي الموحد فلا بد من لقاء على مستوى سياسي للبحث في أسلوب للتعاون العربي، بصرف النظر عن هذه الاتفاقية، لأنها قامت وباقية، فهل نترك الوضع على ما هو عليه ولا نحاول تصحيحه ونبقى نبكي على اللبن المسكوب، كما جاء في المثل الإنجليزي. يجب أن نتحرك بأسلوب علمي وسياسي حتى نصل إلى نوع من التفاهم، وأما عن زياراتي للدول العربية فهي مستمرة وأزور الزعماء العرب وحافظ الأسد رئيس عربي أزوره كبقية الرؤساء ونتحدث في قومية المعركة وضرورة التضامن العربي، وليس عندي شيء فيه سر، وأعلن أن موقفي واحد لا يتغير منذ بدأت العمل السياسي، أما عن دخول القوات السورية في لبنان فالموقف معقد إلى درجة أني لم أعد أفهمه.

س: ما هو رأيكم في مجلس التعاون الخليجي والدور الذي يقوم به في الساحة العربية؟ وهل ترون قيامه تجزئة للتضامن العربي؟ وهل تؤيدون قيام مجالس مماثلة على غراره بين الدول العربية؟

ج: ميثاق الجامعة لا يحول اطلاقاً دون قيام مثل هذه المجالس، بدليل قيام وحدة بين مصر وسوريا لم تتعارض مع الميثاق، وهناك حديث اليوم حول إقامة تنظيم سياسي بين دول المغرب. لما كنت أميناً عاماً للجامعة كنت في البداية متشككاً ومتخوفاً أن يتهم مجلس التعاون بأنه نوع من التكتل داخل الجامعة، ولكن وجدت في النهاية أنه لا يتعارض مع الميثاق. ثم إن فيه رغبة مجموعة من الشعوب في التعاون مع بعضها وفي ذلك خير ومصلحة. وهذا المجلس يستطيع أن ينجز مزيداً من الوحدة والاتحاد، ولا أعني الوحدة الدستورية وإنما وحدة في القوانين والمصالح الاقتصادية والصناعية.. إلخ، ونتمنى قيام تنظيم مماثل في المغرب الكبير بدل الخلافات القائمة، وكذلك بين اليمن



الشـمالي والجنـوبي، فـكل هـذه الجهـود طالمـا أنهـا تسـير نحـو وحـدة عمـل عـربي فكلهـا محمـودة ويشـجع عليهـا ميثـاق الجامعـة العربيـة..

س: هـل هنـاك ضرورة لوجـود الجامعـة العربيـة الآن عـلى السـاحة في ظـل الخلافـات الرهيبـة بـين العـرب؟ ولمـاذا لم يعـدل ميثـاق الجامعـة؟ ولمـاذا لم يكـن هنـاك تصويـت بالأغلبيـة لا بالإجـماع؟

ج: إلغـاء الجامعـة العربيـة يعتـبر كارثـة عـلى الأمـة العربيـة، وانتهاؤهـا يعنـي أنـه لا لقـاء بـين عـرب ولا قمـة ولا وزراء صحـة ولا وزراء معـارف.. إلـخ

يبـدو أن البعـض يتصـور أن الجامعـة العربيـة هـي مجـرد اختلافـات سياسـية، وينسـون أن هنـاك مؤسسـات ضخمـة قامـت ولا مثيـل لهـا في أي منظمـة أخـرى إقليميـة، الجامعـة نجحـت في إقامـة صنـدوق النقـد العـربي ولا مثيـل لـه إلا صنـدوق النقـد الـدولي، الجامعـة نجحـت في إقامـة القمـر الصناعـي العـربي الـذي لا مثيـل لـه إلا القمـر الـدولي أو أقـمار تمتلكهـا دول معينـة كأمريـكا وروسـيا. إنجـازات ضخمـة تمـت عـن طريـق مـا حـدث مـن لقـاءات بـين وزراء الصحـة ووزراء التربيـة وغيرهـم، ولكـن لم يتـم الإعـلان عنهـا بالقـدر الـكافي، فالمسـائل السياسـية هـي التـي تطغـى وتلفـت الأذهـان، إنـه مـن الظلـم أن نفكـر لحظـة واحـدة في القضـاء عـلى الجامعـة، بـل ندعـو الـدول العربيـة كلهـا إلى مسـاندتها وجعلهـا تقـف عـلى أقدامهـا.

أمـا ميثـاق الجامعـة فقـد طالبـت بتعديلـه سـنة 73،ولكنـي الآن أرفـض أي محاولـة لتعديلـه، لأنـه لا يمكـن تعديـل الميثـاق إلا في جـو خالـص مـن المـودة وجـو تضامـن كامـل، لأننـي لمـا طالبـت بتعديـل الميثـاق أردت مـن ورائـه أن أضمـن لقـاء دوريـاً للرؤسـاء وقيـادة عربيـة موحـدة، ذلـك هـو الهـدف الأسـاسي مـن التعديـل، وإذا لم يكـن الهـدف تحقيـق الأمـن العـربي فـلا داعـي للتعديـل بـل مـن الأفضـل أن نتركـه كـما هـو، واليـوم نحـن في أسـوأ ظـرف للتعديـل. أمـا التصويـت بالأغلبيـة لا بالإجـماع فهـذا خطـأ شـائع لم أقـدر عـلى إخراجـه مـن الأذهـان، وقـد شرحتـه في أكـثر مـن تصريـح، فالميثـاق عبـارة عـن سـبع صفحـات يمكـن لـكل قـارئ الاطـلاع عليـه، وليـت الجرائـد تنـشره لـيرى كل شـخص أنـه لا يوجـد إطلاقـاً في الميثـاق مـا يسـمى بالإجـماع إلا في حالتـين فقـط:

1 - عندمـا تتقـدم دولـة بطلـب طـرد دولـة مـن الجامعـة، وهـذا لم يحـدث في تاريـخ الجامعـة إلا مـرة واحـدة عـام 51 ولم ينجـح لعـدم حصـول إجـماع.

2 - عندمـا تتخـذ الـدول العربيـة تدبـيراً عسـكرياً ضـد دولـة عربيـة بحجـة أنهـا قامـت باعتـداء عـلى دولـة عربيـة ثانيـة وهـذا غـير وارد، فبالتـالي لا يوجـد مـا يسـمى إجـماع. التصويـت في جامعـة الـدول العربيـة يتـم بالأغلبيـة لا بالإجـماع، وأغلبيـة الثلثـين تتطلـب

حالتين فقط: انتخاب الأمين العام أو تعديل الميثاق،وما عدا ذلك كله بالأغلبية، وهذا خطأ شائع إلى درجة أن بعض الرؤساء العرب تناقلوه.

س: هل يعتبر مشروع فاس اعترافاً غير مباشر بإسرائيل من الدول العربية؟ وما رأيكم في مبدأ التفاوض مع إسرائيل لحل المشكلة؟

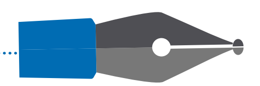
ج: هناك خلط عند بعض الناس بين الاعتراف السياسي والاعتراف بالوجود، وهذه لعبة الصهيونية مع العرب فهم يقصدون الاعتراف بالوجود، لقد هاجت عليّ الدول العربية والصحافة العربية سنة 1968 وقد كنت في كوبا وسئلت هل تعترفون بإسرائيل؟ فقبلت نحن معترفون بالوجود الإسرائيلي بدليل شيء واحد فقد وقعنا على أربع اتفاقيات هدنة مع إسرائيل، أربع دول عربية: سوريا، ومصر، والأردن، ولبنان وقعت وفودها نيابة عن حكوماتها، كما وقع وفد إسرائيل نيابة عن حكومة إسرائيل، وصدقت الأمم المتحدة على ذلك، ومعنى ذلك أن التوقيع تم مع حكومة موجودة نعترف بوجودها لا مع شبح أو وهم، لكن هناك فرق بين هذا الاعتراف والاعتراف الدبلوماسي الذي يؤدي إلى تبادل السفراء، وهذا عمل سياسي من حق الدولة أن ترفضه أو تقبله، ومن حقها أن تقطع علاقتها مع أكبر دولة وإقامة علاقة مع أي دولة، فمشروع فاس ينتهي عملياً إلى تبادل السلام مع الانسحاب، إذا انسحبت وافقنا على السلام وفي ذلك لابد من ورقة تقدم، وكذلك الأمر لو نفذ مؤتمر دولي للسلام فستعرض الخطة العربية التي أقرت في فاس، ولا بد من الناحية العملية أن يقع التوقيع، لأن هناك التزامات يجب أن توقع عليها وهناك اتفاق سيحصل، فماذا سنسميه؟ أما التفاوض المباشر لحل الأزمة فأنا لا أعتقد أنه إذا دخلنا في تفاوض مباشر فمعنى ذلك أننا سنمضي أو نوقع على بياض على مطالب إسرائيل.

س: ما هو دور جامعة الدول العربية من الحرب العراقية الإيرانية؟

ج: أحيل الإجابة عن هذا السؤال إلى قرارات الجامعة التي طالبت بإنهاء الحرب.

س: تحدثتم عن دور الولايات المتحدة في المنطقة ومساعداتها لإسرائيل، فلماذا لم تذكروا دور روسيا سلباً أو إيجاباً؟

ج: ليس هناك شك في أن الاتحاد السوفيتي كان له دور إيجابي، لأن المشكلة الأساسية التي نواجهها هي العدوان، والعدوان معناه أنك بحاجة إلى سلاح لمقاومة هذا العدوان واسترداد الأرض، ونلاحظ أنه عام 73 كان السلاح المستعمل في المعركة التي اشتركت فيها مصر وسوريا سلاحاً سوفيتياً 100% ولم يستخدم سلاح غربي، لأن الغرب لا يعطي سلاحاً، وإذا أعطى سلاحاً يفرض أثماناً خيالية، فقد دفعت مصر في الطائرات الأمريكية 40 مليون دولار في الطائرة الواحدة بفوائد 15% (6 مليون دولار فقط فائدة سنوية) بينما كانت



تدفع في طائرة الميج السوفيتية 3 أو 4 مليون جنيه يعني أقل من مليون دولار تدفع في شكل سلع (برتقال، غزل،... إلخ) والفائدة 2 %، وقد وصلنا في مصر في يوم من الأيام سنة 1968 إلى تصنيع طائرة، فقد بعثت الهند جسم الطائرة واستخدم المحرك الذي صنع في مصر ونجح نجاحاً باهراً ولكن المشروع لم يستمر، لأن التكاليف عالية والموارد قليلة، فقد كنا نحصل على الطائرات الروسية شبه مجاناً حسب الثمن المذكور.

وفي أول اجتماع بين بريجنيف وعبد الناصر تم خصم 50% من المبلغ المطلوب، ولهذا كان قطع العلاقات مع الاتحاد السوفيتي من الأخطاء الشديدة، وكذلك الاستغناء عن السلاح السوفيتي الذي ما زال إلى اليوم مصدر تسليح سوريا، مما جعل الجيش السوري اليوم من أقوى الجيوش العربية والعالمية.

س: ألستم معي في أن الشعارات التي رفعت من بداية الخمسينات حتى الآن (قومية - اشتراكية ديمقراطية... إلخ) لم تستفد منها الأمة العربية، بل كرست التمزق العربي، فهل هناك من أمل في جمع الأمة العربية على كلمة الإسلام وحده؟

ج: العقيدة الإسلامية موجودة في قلب كل مؤمن. وفي رأيي أن الإسلام بخير في الأمة العربية، وأنا لست من الوعاظ حتى أتحدث في هذا الموضوع، أنا أتحدث من قلبي كمسلم ومؤمن ولا أرى تعارضاً بين العقيدة والنظام الاقتصادي الذي نتبعه، لأن كلمة اشتراكية لا يوجد لها كتاب اسمه اشتراكية نمسك بصفحاته ونطبقها. كل دولة تقول إنها اشتراكية ومع ذلك تختلف هذه الدولة مع الأخرى دون أن تترك الرأسمالية، ولا يمكن أن نقول إنها اشتراكية، وفي الدول البترولية المصدر الرئيسي للثروة بيد الدولة وهو البترول ووسائله وشركاته والدولة تقوم بتوزيعه وتتبنى رعاية السكان (المساكن - المدارس - المستشفيات... إلخ) فهل نقول إنها دول اشتراكية باعتبار أن الاشتراكية تقوم على تأميم مصادر الإنتاج.

وفي رأيي لا يجب الخلط بين الاشتراكية والعقيدة الإسلامية، ولا شك أن التمسك بالعقيدة وخصوصاً بين الشباب دافع قوي يدفعنا إلى منهاج عمل يضمن في النهاية مصلحة الأمة..

س: ما رأيكم في مصير الشعب الفلسطيني وثورته بعدما تعرض لمسلسل المجازر؟ وأين يمكن أن يجد الأمان؟

ج: الشعب الفلسطيني يعاني للأسف منذ الأربعينات من انقسامات وخلافات شديدة، ولما أتيحت له الفرصة بقيام المنظمة كان التدخل العربي في شؤونه شديداً، وأنا منذ أوائل الخمسينات أتمنى تنظيماً فلسطينياً يقرر ما يشاء، ودور الدول العربية أن تسانده ولا تضع وصاية على عمله، ولكن ذلك هو ما حدث للأسف فقد فرضت الوصاية على

الشـعب الفلسـطيني مـن قبـل الـدول العربيـة في كثـير مـن الأحيـان، وهـو مـا أضر بالعمـل الفلسـطيني، وكنـت شـخصياً أتمنـى وأنـا في الجامعـة ألا تدخـل فلسـطين كعضـو في الجامعـة حتـى لا تشـارك في اتخـاذ القـرارات المختلـف عليهـا بـين الـدول العربيـة وتبقـى فـوق كل خـلاف والـكل يسـاندها، دون أن تضطـر إلى التدخـل في نزاعـات أو مشـكلات عربيـة، فـإن القضيـة الفلسـطينية اليـوم قـد جرتهـا الـدول العربيـة في نزاعاتهـا وخلافاتهـا ويجـب أن نسـعى إلى إبعادهـا عـن ذلـك قـدر الإمـكان.

س: مـا هـو رأيـك في دور المواطـن العـربي في دور الـتردي العـربي في مواجهـة العـدوان الأجنبـي في ظـل الأوضـاع السياسـية الراهنـة عربيـاً؟

ج: إن وجـود رأي عـربي قـوي متفهـم للمأسـاة التـي يجتازهـا يشـكل دون شـك قـوة، والمهـم أن تكـون هـذه القـوة في اتجـاه التضامـن العـربي، وإلا فـإن جدواهـا تنعـدم.

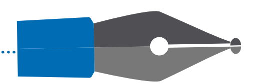
محاضرة

نحن في عالم متغير

١٩٨٧/٣/٢



أ. أحمد بهاء الدين



نص المحاضرة

أتقدم بالشكر القلبي العميق لنادي الجسرة الثقافي على هذه الدعوة الكريمة، وعلى إتاحة الفرصة لأتحدث إلى هذه النخبة من شعب قطر الشقيق والأصيل. وفي الواقع فإن هذه الدعوة حمّلتني مسؤولية كبيرة وتردداً لازمني حتى ساعة دخول هذه القاعة، وذلك لعلمي أني أخاطب نخبة أولاً، وثانياً لأني أعترف بأني لست محاضراً متمرناً، فالذين يكتبون بين أربعة جدران ليست لديهم نفس القدرة على مواجهة جمهور من الناس، وبالتالي فقد حاولت أن أضع بعض رؤوس أقلام، وأرجو أن يغفر لي عدم التسلسل الذي قد يحصل في العرض، وأنا لست في عداد المحاضرين المعتادين على هذا الموقف.

لما اتفقت مع الإخوة على اختيار موضوع (نحن في عالم متغير) بدا الموضوع سهلاً، ولكن عندما تأملته وجدته يمكن أن يتشعب إلى كل موضوع في العالم وناقشت نفسي (نحن والعالم المتغير) كما كانت الصيغة الأولى، و(نحن في عالم متغير) وفضلت التعبير الأخير، لأن التعبير الأول يعطي انطباعاً بأنه في إمكاننا أن نتجاهل العالم المتغير، أو نعيش خارجه، في حين أن التعبير الثاني يعطي أهم انطباع سأحاول أن أبرره بأننا نعيش في عالم متغير لا يمكن تجاهله، ولا نملك العزلة عنه وليس أمامنا إلا أن نتفاعل ونتجاوب معه، ونقبل تحدياته المطروحة علينا.

والعنوان يتضمن (نحن) ويتضمن (العالم المتغير) وقد يكون من المناسب أن أبدأ بإعطاء بعض النقاط عن ملامح هذا العالم المتغير وهي كثيرة جداً، وسأقتصر على ما له علاقة بالموضوع الذي أريد أن أركز عليه، وسأحاول أن لا تتشابك الخيوط في يدي.

ملامح العالم المتغير معروفة وإن اختلفنا في تطبيقها وفي اعتبارها خيراً أم شراً أم هي مزيج من الأمرين معاً.

ثورة الاتصالات

من الملامح البارزة في العالم المعاصر المهمة جداً ما يسمى بثورة الاتصالات، وما فيها من أجهزة حديثة جعلت الفلاح في أبعد قرية في الريف المصري والبدوي في أي نقطة صحراوية يستطيعان أن يعرفا ما يحدث في القارات كلها بعد الحدث بدقائق قليلة، وهذا الشخص النائي في الريف والصحراء لا يسمع الأخبار فقط، ولكنه يسمع من الثقافات والأفكار والآراء والمذاهب والعقائد الشيء الكثير على مدى 24 ساعة.

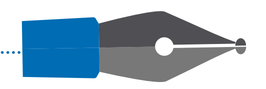
وهذه الثورة تجعل العالم يزداد صغراً ويصير في حجم القرية، وكلنا يشعر بهذه



الثورة وتأثيرها واختراقها لكل بيت، وهو أمر يزداد يوماً بعد يوم، فاليوم هناك جهاز الراديو الذي يلتقط أبعد المحطات. وبعد ظهور الأقمار الصناعية سيكون جهاز التلفزيون في نفس قدرة جهاز الراديو، بمعنى أننا سنرى على شاشتنا أنماطاً من الأفكار والعادات والتقاليد المختلفة عنا تماماً، وتدخل ديارنا بما لها من آثار سياسية واقتصادية واجتماعية. وهذا الأمر يعد ثورة لأنه لم يكن موجوداً على الإطلاق منذ 20 أو 30 سنة، وهو يزداد مع الوقت.

التقدم العلمي

الملمح الثاني من ملامح العالم المتغير هو التقدم العلمي، حيث إن ما وقع من اكتشافات طوال 50 سنة أكثر مما اكتشف على امتداد 5000 سنة. وما أشرنا إليه من ثورة الاتصالات هو جزء من التقدم العلمي. ويكفي ذكر عنوان التقدم العلمي دون التوسع، لأن ذلك يحتاج إلى خبير متخصص. التقدم العلمي قلب المفاهيم وغير جغرافية الكون، وقد جعل ماء البحر حلواً، وتحلية ماء البحر أمر غير معروف من قبل، وما زال مكلفاً، ولكن في تاريخ العلم يبدأ الاكتشاف بتكلفة عالية ونادرة وصعبة ثم يقع التدرج نحو الانخفاض. وأضرب مثلين عما أحدثه التقدم العلمي في تغيير خريطة العالم ومفاهيمه: لقد شاهدت في فندق معرض المنتجات المحلية في قطر ومنها الزراعة دون تربة عن طريق مواسير المياه، فهذه تجربة ناشئة، ولكنها



موجـودة في البـلاد المتقدمـة.

وأنتقـل إلى مثـلٍ ثـانٍ مـن علـم هندسـة الوراثـة الـذي يتدخـل في اسـتنباط نباتـات جديـدة بمضاعفـة المحاصيـل الزراعيـة والـثروة الحيوانيـة أيضـاً، مـما سـيقلب موازيـن العـالم وأوضاعـه بشـكل غـير متصـوَّر، وحـين نقـرأ في الصحـف مثـلاً أن أوروبـا بحجمهـا الصغـير تواجـه مشـكلة فوائـض الإنتـاج فتنفـق ملايـين الملايـين لتخزيـن فائـض مليـون طـن مـن الزبـدة والأجبـان والألبـان، بينـما في بـلاد أخـرى يشـكو النـاس مـن الجـوع، فهـذا الفائـض في الإنتـاج الهائـل جـاء مـن تطبيـق هـذه التجـارب العلميـة الجديـدة التـي هـي قابلـة للانتقـال إلى سـائر بلـدان العـالم لـو أحسـنت التـصرف، ولـو حـدث سـوء تـصرف فسـيكون الأمـر حكـراً عـلى البـلاد المتقدمـة ليـس في أشـياء معينـة فحسـب، ولكـن حتـى في الغـذاء الأسـاسي للإنسـان.

ثورة الآمال الكبيرة

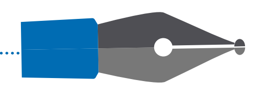
هنـاك ثـورة ثالثـة أوّل مـن سـماها كان « لوجـين بـلاك » الـذي كان أول رئيـس للبنـك الـدولي عنـد تأسيسـه، واحتـك بالعـالم الثالـث، وقـال إن ثـورة الآمـال أخطـر مـن كل الثـورات المذهبيـة الاجتماعيـة والاقتصاديـة الموجـودة في العـالم، وهـو محـق في ذلـك، وهـذا مرتبـط بمـا ذكـرت مـن قبـل ثـورة الاتصـالات والتقـدم العلمـي، لأن الفـرد في الأغلبيـة السـاحقة مـن العـالم كان عـلى مـدى آلاف السـنين لا يعـرف أكـثر مـن حـدود بيئتـه، فقـد لا يـترك قريتـه أبـداً، وقـد لا يذهـب إلى المركـز أو العاصمـة طـوال حياتـه، ففـي مـصر قـد يقـضي الصعيـدي عمـره ولا يـرى شـاطئ البحـر المتوسـط ولا يـرى الإسـكندرية، والآن مـع اتسـاع المعلومـات لـدى كل النـاس أصبـح كل شيء يُـرى ويُسـمع، وبعـد التقـدم العلمـي الهائـل أصبـح لملايـين البـشر تطلعـات جديـدة.

كان الفـرد يحـصر تطلعـه في حـدود قريتـه أو قبيلتـه أو وطنـه عـلى الأكـثر، وهـي تطلعـات محـدودة إلى حـد كبـير، ولكننـا اليـوم نجـد أن الثـورة العلميـة جعلـت كل إنسـان يعـرف أنـه توجـد مـن المغريـات والأشـياء التـي تخلـق كل يـوم مـالا يعـد ولا يحـصى، واعتـبر « لوجـين بـلاك » أن التطلعـات لهـذه الأشـياء طاغيـة عـلى آلاف الملايـين مـن النـاس، حتـى أفقرهـم وأبسـطهم» وسـماها ثـورة الآمـال الكبـيرة؛ إذ إن كل فـرد أصبـح يشـعر أن مـن حقـه أن ينالـه شـيئاً مـن ذلـك القبيـل، ونحـن كنـا في مـصر نتنـدر عـلى إخواننـا

الفلاحين القادمين من أقصى الصعيد عندما كانوا يأتون للعمل في الخليج، وكل واحد راجع- مهما كانت ظروفه المادية- وهو متشبث بالترانزستور والمروحة.

وهذه هي صلته بهذه الحياة الجديدة، ومهما كان فقره فعنده تعبير عن تطلعه إلى أن يناله شيء من هذا الأمر، وهذه ظاهرة ليست خاصة بصعيدي مصر، بل تلاحظها عند كثير من المهاجرين الأتراك في أوروبا وأهل شمال إفريقيا في فرنسا وألمانيا، في كل مكان يكون أحياناً أكبر دوافع الهجرة والعمل في الخارج - رغم كونها من أشق الأمور - أن ينال الإنسان قدراً من ذلك الأمر. ثورة التطلعات الكبيرة هي نتيجة للثورة العينية والصناعية والإنتاجية، وأنا أوافق « لوجين بلاك » على أنها قد حطمت وأنزلت النظريات اليمينية واليسارية عن عرشها - وقد ظلت صحف الغرب تروي عن السائح عندما كان يذهب إلى موسكو وهي عاصمة كبيرة، فالشبان هناك يجرون وراءه لشراء العلكة والجينز. والحكاية ليست مهمة إلى هذا الحد، حتى قرر الروس إنشاء هذه الأشياء عندهم، ذلك هو إغراء السلع الجديدة الغزيرة التي تلبي حاجات كثيرة تسهل الحياة وتيسر الأمور في المنازل، والعمل على كل شيء وهي تخترق الحدود، ولا يمنعها الستار الحديدي للدول الشيوعية كالصين أو روسيا، وقد كانت الصين تضرب على نفسها ستاراً حديدياً وتعتبر نفسها الدولة الأساسية الوسط في العالم ومستغنية عن كل العالم، ونجدها اليوم بعد ثورة أكثر الثورات تطرفاً تضطر إلى الانفتاح. وأحد مفاتيح هذا الانفتاح تلبية حاجة أكثر من ألف مليون صيني ورغبتهم في أن ينالهم شيء من إنتاج العصر الحديث.

هذه المسألة التي أثرتها في إطار ملامح العصر تتمثل أهميتها في أنها تضع على الحكومات ضغوطاً هائلة، لأنه ليس كل حكومة في وضع تستطيع فيه أن توفر لأبناء شعبها كل هذه الطموحات المشروعة. وكما قلت إن الاختراعات التي حققها الإنسان في الخمسين سنة الماضية تفوق ما تم اختراعه خلال خمسة آلاف سنة؛ يعني أننا كنا ننتظر ألف سنة حتى يحدث اختراع جديد، بينما اليوم عندما نتابع الصحف نجد أنه لا يخلو يوم من اختراع جديد في مجال السلاح أو الطب أو أي فرع من فروع العلم، وفي دراسة ليليون سكو تبين أن المعلومات الإنسانية تتضاعف مرة كل ثماني سنوات في ميدان العلوم والفنون وحفريات التاريخ، إلى أحدث أنواع العلوم واكتشاف الأقمار الصناعية، فهذه من أهم ملامح العصر الحالي، حيث تتضاعف المعلومات



وتتسارع وتنمو المعرفة الإنسانية بشكل هائل وتتشعب، وقد كنا نرسل بعثات علمية إلى الخارج لدراسة الكيمياء مثلاً، ثم تبين لنا أنه لا يوجد تخصص في شيء اسمه كيمياء، لأن هذا الفرع العلمي الذي كنا نعتبره اختصاصاً، تفرع إلى خمسين فرعاً أو أكثر، وكل فرع يعتبر تخصصاً مستقلاً، وهذا ناتج عن تضاعف المعلومات والمعرفة الإنسانية في كل ما يتصل بحياة الإنسان بشكل أو بآخر.

نتائج ملامح التغيير في عالمنا

أكتفي بهذه الملامح القليلة من المتغيرات الطارئة الكاسحة في عالم اليوم الذي نعيش فيه، وأحاول أن أشير إلى بعض نتائجها. فثورة المعلومات أدت إلى اقتحام قيم المجتمع وعاداته، ولا أتحدث هنا عن كل ما هو خير أو كل ما هو شر، بل أنا أسجل حقيقة أن هذه الثورة لها فوائد هائلة. فالإنسان أصبح يعي ويشارك ويفهم، ومداركه اتسعت، ولكن في نفس الوقت هناك ظاهرة أخرى أسجلها، وهي أن هذه الثورة في المعلومات، وفي الاتصالات اقتحمت كل مكان وكل ركن في جميع أنحاء العالم، لم يعد هناك بيت ولا حجرة محصنة أمام هذا الغزو لعادات وتقاليد مجتمعات مختلفة عنا تماماً، وهذا الأمر يضع كل مجتمع في العالم في امتحان عنيف جداً بين عاداته وتقاليده التي تعودها، والعادات والتقاليد التي تهجم عليه من التلفزيون والفيديو وغيرهما، فمهما وضعنا من قيود إلا أننا نعرف أنها تهرب وتتسرب من النوافذ ومن الأبواب ومن كل مكان، فلم يعد ممكناً إقامة ما يشبه سور الصين العظيم لمنع هذه الأشياء، فوجودها وتحديها لنا واقتحامها لمجتمعنا وتقاليدنا وقيمنا هو حقيقة من حقائق العصر، ولكن كيف نواجه ذلك؟ الرد الوحيد هو أن تكون المناعة داخل المجتمع طبعاً، كل مجتمع له عادات وتقاليد تختفي مع الزمن وتنمو بعدها عادات وتقاليد أخرى أكثر تقدماً وأكثر صحية.

والمهم أن هناك تغيراً، ولكن الدفاع الحقيقي لم يعد يلاقي المنع، وأصبح كل مجتمع يهتم بتأصيل تراثه وثقافته وينتقي الجيد القابل للحياة، فالمناعة يجب أن تكون في داخل الفرد الذي يتعرض الآن لكل هذه الموجات، وهذه النوافذ المفتوحة من التأثيرات المختلفة، وتقع الآثار السلبية بالطبع على الضعفاء في العالم ونحن منهم.

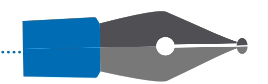
عندما يصير غداً في الإمكان أن تلتقط أجهزة التلفزيون البرامج من أي محطة في

العالم بفضل الأقمار الصناعية، فإن الذي سيغزو هو الغرب وتزداد عاداته وقيمه تسرباً إلينا وتأثيراً فينا، فالآثار تقع على الأقل تقدماً والأكثر ضعفاً. ولا ننكر إيجابيات وسائل الاتصالات والإعلام، ولكن فيها جوانب سلبية نحن معرضون لها، ويجب التفكير فيها، فالتقدم العلمي مستمر في سيره، ولا يمكن أن يعارض فيه أحد أو يوقفه.

وانعكاساته السلبية واقعة على المجتمعات الأقل قدرة في جميع المجالات. ونحن إذا تحدثنا عن تقدم الطب والعلاج فقد أدى ذلك إلى زيادة عدد سكان الكرة الأرضية زيادة هائلة تفوق ما حققه البحث العلمي في زيادة إنتاج الغذاء. وقد قدّم العلم ضمن مخترعاته وسائل من الرقابة والتجسس والقدرة على القمع والمطاردة، حيث صار يوجد مجتمع شفاف كل شيء فيه مكشوف دون حاجز أو ستار، فالأقمار الصناعية تلتقط كل شيء دون استئذان في سماء مفتوحة، وتختلس كل شيء خاص بالدولة من أكبر قاعدة عسكرية إلى أصغر شجرة، فمعارك الحروب تلتقط وتتابع تحركاتها، وكذلك الأمر في أجهزة التصنت والتقاط الأصوات.

كانت الدول قديماً تستطيع أن تحيط نفسها بوسائل معينة تحمي أسرارها، لكن اليوم نحن في عالم مفضوح لا يوجد فيه سر فهو عالم شفاف، فاقتصاد كل دولة كان يعتبر مسألة سرية جداً، ولكنك الآن تجد أدق الإحصاءات عن اقتصاد أي دولة تريد معرفته. والأجهزة التي تثبت فوق الجبال للتصنت قادرة على التقاط كل شيء، حتى المكالمات الهاتفية داخل المدن الكبرى، هذا في مستوى الدول، وكذلك في موضوع علاقة الدولة بالمواطن الذي لم يعد له الخصوصية السابقة التي كان يتحصن وراءها الفرد والمجتمع، لأن أجهزة التصنت والمراقبة تكشف كل شيء عنه، فالإنسان له رقم تستطيع الدولة في ثوان أن تعرف كل شيء عنه في حياته العامة والخاصة: تنقلاته، تحركاته، حساباته، ديونه، مكالماته إلى أدق أسراره، لو شاءت.

وهكذا أوجدنا التقدم العلمي في مجتمع شفاف انعدمت فيه الخصوصية سواء خصوصية الدولة، أو الفرد، ومن عيوب التقدم العلمي المؤثر في الضعفاء الفارق الهائل في السلاح، فالنزاعات والحروب قائمة على وجه الأرض منذ خلق الإنسان، وكان تطور السلاح يتم في مئات السنين، وكان هناك دائماً نوع من التسابق، فبدأ الإنسان مثلاً بالخنجر، فرد عليه آخر بالسيف وهو أطول، فاخترع الرمح وهو



أطـول، فاخترعـت النبـال وهـي أبعـد مرمـى، وهـذه نفـس اللعبـة التـي نسـمع عنهـا الآن، بـين الـدول الكـبرى في موضـوع الصواريـخ العابـرة للقـارات، ومـن أقـدر عـلى أن ينـال الآخـر بشـكل أو بآخـر، أو في موضـوع حـرب الكواكـب رونالـد ريغـن يريـد إقامـة درع مـن أشـعة الليـزر يحميـه كـدرع مقاتـل في الزمـن الماضي، درع ليـزر يحمـي أمريـكا حيـث تسـتطيع أن تصيـب الاتحـاد السـوفيتي دون أن يصيبهـا. فهـذه التجـارب اللامنتهيـة كل سـلاح يخـترع بعـده سـلاح مضـاد وهكـذا حتـى وصلـت المسـألة إلى صناعـة سـلاح في منتهـى التقـدم والتعقيـد، وهـو مـا قلـب كل موازيـن القـوى التقليديـة في العـالم عندمـا كانـت الأسـلحة متشـابهة عندمـا كان الجـواد والسـيف والرمـح والـدرع، وحتـى بعـد ذلـك عندمـا أصبحـت البندقيـة والمدفـع، كان الفـرق في التنظيـم والعـدد والحشـد، وكل شـعب مهـما كان وضعـه يسـتطيع حمـل السـلاح بشـكل يكـون فيـه نـوع مـن النديـة، والمجتمـع البـدائي كان يسـتطيع أن يصنـع سـيوفه ورماحـه ثـم بنادقـه ومدافعـه في المراحـل المتأخـرة، أمـا الآن فـإن التقـدم العلمـي الهائـل جعـل السـلاح حكـراً عـلى الأقويـاء، وهـذا مـن أخطـر الأشـياء في العـالم، صـار السـلاح في يـد المتقدمـين علميـاً وعلينـا أن نرجوهـم ونشـتريه منهـم بالمـال، وإلا نصبـح عاجزيـن تمامـاً وشراء السـلاح لا يغنـي عـن التبعيـة الدائمـة، لأن السـلاح يحتـاج إلى ذخـيرة وقطـع غيـار، فبالتـالي يحتـاج إلى رابطـة مسـتمرة.

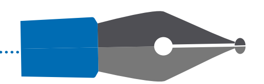
انعكاسات التقدم العلمي

لقـد أدى التقـدم العلمـي وانعكاسـاته إلى تغيـير معايـير العلاقـات الدوليـة، فقـد كان مألوفـاً قديمـاً أن تكـون هنـاك إمبراطوريـة واحـدة تخيـف جيرانهـا، كالإمبراطوريـة الرومانيـة، ومـع ذلـك كانـت قوتهـا محـدودة، لأن سـلاحها وإن كان أكـثر تنظيـماً، لكنـه في النهايـة هـو السـلاح الـذي يقـوم عليـه المجتمـع، واليـوم نجـد أن مصـادر السـلاح قليلـة في العـالم، حيـث نجـد قوتـين كبيرتـين ولا أحـد يفكـر أن يرفـع رأسـه ضدهـما، فإمـا أن يحتمـي بهـذه أو يحتمـي بتلـك، وهـو في ذلـك كالمسـتجير مـن الرمضـاء بالنـار، وهـذا مـا جعـل خريطـة السياسـة الدوليـة والعلاقـات الدوليـة تمـر بمرحلـة مـن أحـرج المراحـل بسـبب التقـدم العلمـي الـذي هـو في حـد ذاتـه شيء جيـد. ولكـن هـذه إحـدى آثـاره السـلبية علينـا، وهـذا الأمـر خلـق لنـا عالمـاً نقـرأ عنـه كل يـوم كالروايـات والأسـاطير، عـالم لا يحكمـه مـن نراهـم عـلى المسرح مـن الحـكام والرؤسـاء والمنظـمات الرسـمية، ولكنـه عـالم يتحكـم فيـه إلى حـد كبـير التجسـس والجواسـيس وتجـار السـلاح وسـماسرة الحـروب وأصحـاب

الحسابات في البنوك. لقد أصبحت تتحكم في كثير من مصائر بلادنا شخصيات شبحية لا نعرفها، ليست مسؤولة ولا تحاسب أمامنا، ولا شك أنكم تابعتم صفقة الأسلحة الأمريكية الأخيرة، وكيف أنه توجد سياسة معلنة وعمليات أخرى سرية تماماً شديدة التعقيد، تحتاج إلى إمكانيات وتسهيلات ومعاملات في منتهى التعقيد، وكأننا نعيش في عالم غير حقيقي. نقرأ الصحف كل يوم وبعد سنة نكتشف أن ما كنا نقرؤه غير حقيقي.

ومن العلامات السلبية أيضاً لهذا التقدم العلمي السريع، أنه حدث في أجزاء قليلة من العالم نسبياً، وليس على مستوى عالمي، وأدى هذا إلى هذا الاحتكار الذي تحدثنا عنه طويلاً، وخلق نوعاً آخر من الفقر؛ فقر جديد لم يعرفه العالم خلال ألوف السنين المدونة في التاريخ، العالم كان كله فقيراً وبذلك لم يكن الفقر عاهة ولم يكن مشكلة، كان الفلاح فقيراً والحاكم فقيراً والبدوي فقيراً. ومفهوم الفقر هنا يتمثل في أن حاجات الفرد محدودة ومطالبة ولوازم حياته بسيطة، واليوم مع تعدد لوازم الحياة وتنوعها وكثرتها وتنافس الناس فيها وتضاعف عدد السكان، كل هذا أوجد نوعاً من الفقر لم يسبق له مثيل في العالم، وفي الاقتصاد تقول النظريات الاقتصادية إن وجود السلعة يخلق الحاجة إليها وليس كما يتصور الناس أن الحاجة إلى السلعة تخلقها، فمثلاً في الستينات دخل مصر لأول مرة التلفزيون، وقبل سنة 1960 لم يكن هناك تلفزيون، فلم يكن لدى الفرد شعور بالنقص لعدم وجود هذا الجهاز في بيته، لا مدير الإدارة ولا بوابها، ثم ظهر التلفزيون، فبدأت قلة من الناس تشتريه، فظهور هذه السلعة الجديدة أوجد الشعور بالنقص لدى من لا يملكها.

وهكذا حدث فقر جديد وأصبح العالم يواجه مشكلة فقر طاحنة بالمعنى الجديد، ليس لأنه يأكل أقل مما كان، ولكن لأنه صار يريد أكثر بكثير مما كان، وصارت توجد أشياء كثيرة تزيغ لها الأبصار، وكل إنسان من حقه أن ينال شيئاً منها، وخطورة هذا الفقر الجديد تتمثل في أنه يهدد هذه الكرة الأرضية بثورات وانقلابات وانفجارات وتحولات اقتصادية واجتماعية يصعب التنبؤ بها إلى آخر الحدود. ونحن نقرأ كل يوم أخباراً عن المجاعات، وهذه أشياء ليست جديدة وإنما الجديد أننا نقرأ عنها ونعرف عنها، وعند حدوث جفاف في منطقة ما، فإن كل العالم يعرفه وتزيد آثار ذلك في عقلية الرأي العام ونفسيته.



وهناك أشياء ليست مادية تدخل في وصف العالم المتغير الذي نعيش فيه، وهي في منتهى الأهمية والخطورة، وربما كانت أخطر مما سبق منها أننا بقدر ما نزداد علماً بقدر ما نزداد جهلاً، وهذا ليس غريباً وقد كانوا دائماً يقولون إن العالم هو الذي يعلم بمقدار جهله، لأن الإنسان كلما تعلم كلما أحس أكثر مما ينقصه من علم، بينما الجاهل لا يشعر أن هناك شيئاً ينقصه وأنه بحاجة إلى المعلومات، ولكن الإنسان كلما ازداد معلومات وازداد ثقافة شعر أن هناك الكثير مما لا يعرفه ويريد أن يعرفه، وهذا ينطبق على المجتمع الإنساني ككل.

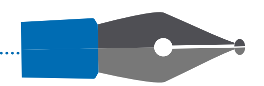
ولما وضع الرئيس الأمريكي الراحل (كندي) شعار وضع الإنسان على القمر كان يبدو ذلك كأنه نهاية طموح الإنسان، وكان يوجد جدل كبير حول فائدة هذه النفقات الضخمة لمثل هذا العمل، ولما تم الإنجاز صار هناك طموح متجدد لاكتشاف الكواكب الأبعد، رغم ما يتطلبه ذلك من بلايين الدولارات كل سنة في الأبحاث الفضائية، وهناك ظاهرة ثانية تتمثل في عدم القدرة على التنبؤ الصحيح رغم كل المعلومات الجديدة وكل المعلومات المتضاعفة كل 8 سنوات.

العالم عاش آلاف السنين مستقراً بشكل أو بآخر، وكان الإنسان يستطيع أن يتصور مستقبل العالم لمائة سنة مقبلة أو لمئات السنين، ولكن الآن إذا تابعنا أبحاث العلماء سواء كانوا علماء اجتماع أو علماء سياسة أو علماء اقتصاد نجدهم مع ما لديهم من معلومات يتخبطون بشدة وفي حالة عجز متزايد عن التنبؤ بما يحدث، لسرعة المتغيرات. والأمثلة القريبة كثيرة جداً، فهناك وفرة في المواد المطلوبة بما فيها البترول، الذي صار عصب الحياة في العالم، وصارت عجلة الحياة في العالم المتقدم يحركها البترول الذي لا ينتهي ولن ينتهي، وفجأة في السبعينات اكتشف العالم الندرة بعد أن كان يتصرف على أساس الوفرة. والأمر غير مقتصر على البترول بل يشمل مجالات كثيرة، وبدأ طور من الاقتصاد والادخار ولم تنفع المعلومات الكثيرة، والعلم الغزير، واستمد العالم لمواجهة الندرة بما هو معروف من تخزين احتياطاتها ومحاولة اكتشاف مناطق بترولية امتدت إلى القطب الشمالي، الذي صار محل جدال بين النرويج وروسيا للكشف عن البترول في قمة القطب، ثم الاعتماد على مصادر أخرى للطاقة. وهذا لا يعني انتهاء الوفرة في البترول. وليس أدل على ذلك من نزول أسعاره، وأنا شخصياً لست حزيناً لنزول أسعار البترول، لأن كثيراً من الاقتصاديين يعتقدون

أن البترول سيظل المصدر الرئيسي للطاقة إلى ما لا يمكن التنبؤ به، لأن الحضارة تتقدم وتشمل أعداداً كبرى من الناس، وما زال آلاف الملايين من البشر لا يستخدمون من الطاقة إلا القدر اليسير جداً وسيستخدمونها ذات يوم، فالطلب سيعود بعد سنة أو بعد عشر سنين أو بعد مائة سنة. وهناك من يقول من الإحسان أن نتعلم عدم الإسراف في موارد البترول وأن يظل مخزوناً في الأرض أفضل، وفي يوم من الأيام سيكون هذا المخزون ضرورياً. والتفاؤل يحملنا على القول بأنه سيكون لدى العرب صناعات وسيحتاجون للبترول. وعدم القدرة على التنبؤ يمكن أن يطبق على أشياء كثيرة تشمل ما حدث في عالم الاقتصاد من تضخم هائل من ناحية أخرى، ففي الاقتصاد هناك إما كساد مصحوب ببطالة أوتوماتيكية، وإما رواج مصحوب بتضخم وارتفاع في الأسعار. لأول مرة في تاريخ العالم المدون يصبح هناك رواج وتضخم هائل، ويصبح هناك بطالة هائلة. وهذا ما سمي In Flation Stag Flation وهذه ظاهرة جديدة أثارت علماء الاقتصاد ولا يعرفون لها حلاً حتى الآن، وهذه آثار عدم القدرة على التنبؤ بدقة بما سوف يحدث، ومن آثار ذلك أيضاً أن البرازيل منذ سنوات قليلة وضعت في سلم الدول على أنها القوة السادسة في العالم، ولديها من الوسائل والخامات والمساحة والسكان ما يجعلها ولايات متحدة أخرى، وقد تراكم عليها في ظرف 10 سنوات من الديون 104 ألف مليون دولار، وقد توقفت عن الدفع منذ أيام، وهكذا نرى أن التغيير سريع وعدم القدرة على التكهن الصحيح بمستقبل الأشياء أدى إلى عدم الاستقرار في العالم.

فقد صار في منتهى الصعوبة أن تضع الدول خططها وحساباتها لخمس سنوات أو أكثر، وهذا الأمر هو أيضاً مصدر لقلاقل متوقعة في كثير من أنحاء العالم.

المشكلة الأخرى أو الأخيرة من ملامح هذا العصر أو من سلبيات التقدم السريع في تقديري أن التقدم العلمي كقمقم أطلق وأصبح يسابق التقدم الفكري والنفسي والثقافي للإنسان، التقدم العلمي أصبح مارداً يخلق أسلحة جديدة ولا نقصد أسلحة القتال بل أسلحة كل أنواع النشاطات الإنسانية التي تسبق خيال الإنسان وفكره وثقافته وتأقلمه مع هذه الأشياء. كان الفكر الإنساني عبر كل العصور يسبق الإنجازات المادية، واليوم صارت الإنجازات العلمية تسبق في الواقع العقل الإنساني الذي أصبح في أزمة مستمرة يلهث وراء محاولة التأقلم الواقع الذي يستجد كل يوم، وهناك مثل



صغير مضحك وتافه لكنه ذو دلالة، وهو قصة رونالد ريغن مع مشكلة الأسلحة الإسرائيلية الإيرانية؛ إذ طلب (ريغن) من شركة ABM للكمبيوتر وضع أحدث جهاز كمبيوتر وصل إليه العلم في البيت الأبيض وتم ذلك، ويمكّن الجهاز من أنك في مكتبك تستطيع التخاطب والتراسل مع أي شخص في مكتبه عن طريق الضغط على زر معين، ويقع التراسل على شاشة الكمبيوتر، وبعد تبادل المكالمات والوثائق بواسطة هذا الجهاز يقع مسح كل ما قيل، حيث لا يبقى له أثر ولا حاجة إلى ورق مكتوب يمزق فيما بعد بالأدوات المعروفة المستعملة في الأمور السرية. واعتمد ريغن على هذا الكمبيوتر عندما تبادل مع رجاله المناقشات في موضوع الأسلحة، ولكن تبين فيما بعد أن كل ما يقال عن طريق هذا الجهاز يخزن في جزء منه رغم مسحه، وقد كشف ذلك أحد المهندسين المختصين أمام لجنة التحقيق في موضوع الأسلحة، وتبين أن كل الأسرار مسجلة وموجودة، وقد كانوا يظنون أنها مسحت وتلاشت، فطالبت اللجنة بتسليم هذه البيانات المخزنة، وكان هذا هو السبب المباشر لمحاولة (ماكفرلن) مستشار الأمن القومي السابق في أن ينتحر، لقد علم بالأمر قبل الذهاب إلى (الكونجرس) للإدلاء بشهادته للمرة الثانية، فلما علم أن كل شيء مخزن، وهو لا يعرف ذلك حاول الانتحار، وبهذا أكون قدمت مثالاً على أن التقدم العلمي يسبق الفكر الإنساني، وفي ذلك أخطار تطبع العصر بطابع غريب ونادر من عدم الاستقرار وعدم الثبات.

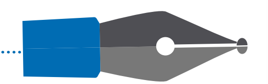
أرجو أن أكون قد رسمت بعض ملامح العالم المتغير التي تلقي علينا سؤالاً: أين نحن في هذا العالم المتغير؟

أين نحن في العالم المتغير؟

نحن بالتعريف البسيط 150 مليون عربي مسلم، وفي العقود الأخيرة كانت هناك نهضة عمرانية، وحصل لا شك تقدم في كثير من نواحي الحياة والهياكل الأساسية لمجتمعاتنا على درجات مختلفة، طبقاً لكل مجتمع وظروفه وإمكانياته وحاجاته، ونجد الإيجابي والسلبي، ولا ننكر ما حصل عندنا من تطور في التعليم، فقد زادت نسبة التعليم عندنا زيادة هائلة، وأصبح لنا نخبة متميزة في كل الأقطار العربية من المتخصصين الذين تعلموا في الداخل والخارج، ولكن مشاركتنا كشعوب في إدارة شؤوننا لم تتقدم بدرجة كافية تتماشى مع تقدمنا نحن كأفراد ومواطنين في بلادنا.

إننا اشترينا كل ما أخرجه العالم من علم، لا ينقصنا شيء من الطائرة إلى

السيارة إلى الفيديو، ولكن قدراتنا على الشراء سبقت إلى حد كبير جداً محاولاتنا في أن نتمكن من تصنيع شيء من هذه الأشياء والإلمام بأسرارنا. منذ خمسين سنة نشأت في مصر دعوة إلى صنع المحرك، كان ذلك بعد ثورة 1919 أيام الحركة الوطنية وبنك مصر ومشروعاته، وكان هذا الأمر يعد شيئاً متقدماً ومهماً، ويتعلق الأمر بمحرك السيارة والموتوسيكل والثلاجة والطائرة في نظريته الأساسية، وتبنى هذه الدعوة المثقفون، ولكن حتى الآن في مصر وفي العالم العربي كله لم نصنع هذا المحرك، في حين أن الهند صنعته، ولا أقول إن الهند صنعت قنبلة ذرية، وعدم تصنيعنا للمحرك يعني أننا رضينا لأنفسنا أن نكون في جانب المشترين لا في جانب المنتجين الذين يبدعون، هذه الأساسيات، فالمحرك أساسي في كل شيء في حياتنا، فهو الذي يروي الأرض ويشعل الأجهزة الطبية، هو شيء بسيط لكنه هام وجوهري، ومن دونه لا تتحرك وسائل النقل على اختلاف أصنافها، وهو أساس في كل شيء اسمه تقدم صناعي في أي ميدان من الميادين. إذاً نحن اشترينا ولكننا لم نصنع كما يجب، وأعتقد أننا ما زلنا نحارب معارك الماضي إلى حد كبير في كثير من المجتمعات العربية، ولا نتحرك بالسرعة الكافية في عالم يتسم بالسرعة الشديدة في التغير ؛ عالم سريع جداً، وحركتنا فيه بطيئة جداً ويمكن لأي شخص أن يعود إلى الصحف العربية، منذ 10 سنوات وسوف يجد نفس العناوين، مشكلاتنا واحدة لا تزال قائمة لم تحل ولم نتجاوزها: أسعار البترول، حرب تشاد، الحرب في لبنان، حرب الخليج. قضايانا تتحرك ببطء، قد يكون بعضها كبير يتجاوزنا، الحل ليس بأيدينا، ولكن هذا لا ينطبق على كل شيء، العالم من حولنا ينتقل من قضية إلى قضية، يحل مشكلة ويتجاوزها إلى قضية أخرى، بينما نحن في ركود مستمر، نحن منذ 3 أو 4 سنوات نحاول أن نعقد مؤتمر قمة عربية، وأذكر من 3 سنوات أني كتبت قائلاً إني أتنبأ بأن مؤتمر القمة هذا سيكون آخر مؤتمر قمة عربي، ومع الأسف يبدو هذا متحققاً الآن، والمشكلات التي بين الدول العربية مهما قلنا فيها هي مشكلات قابلة للحل، منطقها يرفضه الرأي العام العربي، ولا يشعر أنه متسبب فيها، ولا نستطيع تجاوزها، وأرى أن عجزنا عن مواجهة الغير ينعكس على عجزنا في مواجهة بعضنا بعضاً، وأنا أشعر أن فشلنا في مواجهة إسرائيل سبب كل المتناقضات والحروب العربية مثل القبيلة التي فشلت في مواجهة خصم خارجي، فانكفأت



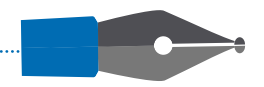
على نفسها تخرج إحباطاتها وهمومها ومشكلاتها ومزايداتها على بعضها بعضاً.

عندما ننظر في العالم اليوم نكاد نجد أن الحروب المشتعلة في العالم يمثل المسلمون طرفاً فيها بشكل أو بآخر، وهذه ظاهرة غريبة، سواء كانت ضد عدو خارجي أو ضد عدو داخلي. في الفلبين، في الخليج، في لبنان، في تشاد، في الصحراء الغربية... إلخ، وهل توجد حروب أخرى في العالم اليوم؟ لا أعتقد أن هناك حروباً أخرى مشتعلة بمعنى الحرب في جزء آخر من العالم غير هذه الحروب والمسلمون طرف في كل حرب منها، وما زالت في نفس الوقت المساحة العربية تتناقص وتلتهم منذ الأندلس إلى الآن، فهناك تحدي للحدود الشرقية للأمة العربية وهي مهددة بالتقسيم، فلسطين قصتها معروفة، لبنان لو استمرت مأساته إلى النهاية فسيضيع كما ضاعت فلسطين، جنوب السودان الذي يريد كل العالم انفصاله ابتداء من الدول الإفريقية المحيطة إلى الفاتيكان والكنيسة العالمية، الشرق والغرب، يريد كل هؤلاء أن يقطعوا هذا اللسان الذي يمكن أن يكون عربياً والممتد في قلب إفريقيا. نحن إذاً في تناقص أطرافنا تُنهش، ومع ذلك خلافاتنا معروفة، العالم يحركنا من الخارج بتحكمه في المال وفي السلاح وبقدراته العلمية الخارقة على أن يعرف أخبارنا وأحوالنا ويؤثر علينا بشتى وسال التأثير المباشرة وغير المباشرة، ونحن لا نتبع في هذه الأمور أي سياسة بناءة.

وأتوقف عند الحزام الإفريقي الذي يقع جنوب الصحراء مباشرة، ويمتد من جنوب السنغال إلى مالي وتشاد والبحر الأحمر، هذا الحزام أغلبيته الساحقة مسلمة عربية، وقد قرأت في مرجع أن أول هجرة عربية إسلامية إلى تشاد كانت هجرة مصرية، بعد سقوط دولة الفاطميين واستيلاء الأيوبيين على السلطة، ثم كانت ثاني هجرة من كردفان، وهذه البلاد تتلهف على البلاد العربية وتتشوق إليها، وكان من حظي أن أكون من أول الذين يذهبون إلى هذه البلاد، لأننا كنا ممنوعين من الذهاب إليها، فكنا نعجز عن السير في الشارع لأنهم كانوا يأتون من مسافة 40 أو 50 كم، مشياً على الأقدام في غينيا ومالي والسنغال، يتبركون بنا وبثيابنا لأننا قادمون من القاهرة التي فيها الأزهر الشريف، وقد تحدثت مع عدد من رؤساء الدول في شمال إفريقيا وقلت لهم إن الذي يريد أن يقدم خدمة جليلة للعروبة والإسلام ولديه الأموال فلينفق على تعليم هذا الحزام الإفريقي اللغة العربية، فقط هم يعرفون طقوس الدين الإسلامي لا أكثر، ويمكن زيادة تعليمهم الدين واللغة العربية التي لو عرفوها لقرأوا كتبنا وثقافتنا، ولأصبح في ذلك

امتداد وعمق وحماية للوطن العربي، وجزء منه في حقيقة الأمر ليس فيه أي افتعال، ومن يزر هذه البلاد يجد هذا وضعاً حقيقياً، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث، وبينما نظل نلعب مع الأحداث السياسية العادية والمحادثات التقليدية والانضواء تحت سياسة أمريكا هناك وسياسة فرنسا هنا، والحروب والمعارك والغزو، أشياء لم تعد صالحة لهذا العصر ولا مقبولة.

لنكن صريحين، نحن في الواقع في أزمة مع هويتنا، يوم قومية ويوم إقليمية، نحن في أزمة مع تاريخنا نتنازع عليه ونتجادل فيه، ولم نصل إلى كتاب تاريخ واحد يستطيع أن يقرأه كل مسلم، ويجد فيه حقائق تاريخنا، وبالتالي نحن في أزمة مع مستقبلنا، ونحن نسير بخطى بطيئة دون تجديد، منذ قرن طرح الشيخ محمد عبده والشيخ جمال الدين الأفغاني الأسئلة التقليدية عن التوفيق بين الأصالة والتجديد والهوية، وكيف نحتفظ بهويتنا وندخل بها العصر الحديث؟ وها نحن بعد 100 سنة لا نستطيع أن نقول أننا عثرنا على إجابة واحدة، أنا لدي إجابة وصديقي لديه إجابة وعندما نقول أن الشعب عثر على إجابة يعني ذلك أغلبية معقولة مقبولة أساسية أجمعت على نوع من الإجابة، وهذا غير موجود عندنا حتى الآن. أرجو أن لا يكون قد رسمت صورة متشائمة، لكني أعتقد أن الحل هو عودة إلى النضال من أجل مشروع الاستقلال العربي الحضاري، وهو مشروع قامت من أجله ثورات كثيرة تبدو لنا متباعدة جداً، وبينها فروق كثيرة هي فروق العصور التي ظهرت فيها، وكانت تستهدف مشروع الاستقلال والتكامل العربي، استقلال الإرادة العربية وتكاملها حتى تستطيع مواجهة هذا العصر المتغير. نحن عندما نفكر في الحركات التي حصلت في القرنين الأخيرين (الوهابية - السنوسية - المهدية - ثورة 1919 - الحركة الناصرية) فبينها فروق كثيرة، فبعض هذه الحركات كانت دينية محضة والقضية المطروحة فيها كانت قضية الدين: إبعاد البدع وبعضها كانت رسالتها رفض الخارج للتباين الشديد معه في القيم والتقاليد، فيجب طرد الغرب وإقامة ستار دونه، وبعض هذه الحركات كان يهدف إلى إقامة شعب، فالسنوسية مثلاً هي التي أقامت الشعب الليبي، السنوسي الأول الذي أقام الزوايا، وهو الذي جعل في هذه الصحراء الهائلة شعباً، الثورة المهدية في السودان قامت لتحرير السودان ومصر من الاحتلال الإنجليزي، والهيمنة العثمانية، وقد طبعت في الكتب المراسلات بين المهدي السوداني والمهدي السنوسي، وقد قال الأول للثاني: ليس ممكناً في تراث الإسلام أن يظهر مهديان في عصر واحد، كل عصر له مهدي يجدد



فيـه، وبالتـالي فإنـه هـو المهـدي الأسـاسي، بعدمـا انتـصر عـلى الإنجليـز في معـارك كثـيرة ويعرض عليـه أن يتحالـف معـه، وأن يكـون هـو خليفتـه بـدل أن تكـون خلافتـه في مهدي سـوداني آخر، ويقـع بينهـما تحالـف بأحـد أمريـن، أمـا أن جيوشـه تلتحـق بجيـوش المهـدي السـوداني المتجهة شـمالاً لتحريـر بقيـة السـودان، ومـصر مـن الإنجليـز والهيمنـة العثمانيـة، أو يزحـف المهـدي مـن الجنـوب عـلى مـصر والسـنوسي مـن الغـرب لنفـس الغـرض. أردت مـن خـلال هـذا أن أبـين أنـه كانـت ثـورات تتطـور مـع الزمـن، وبعـد ذلـك عرفنـا الثـورة العربيـة الكـبرى سـنة 1917 التـي كانـت تسـتهدف توحيـد المـشرق والاسـتقلال عـن تركيـا وإنجلـترا وفرنسـا، وغلبـت عـلى أمرهـا، ثـم جـاءت حركـة المـد القومـي أيـام عبـد النـاصر، وفي عـام 1967 غلـب عـلى أمره لأن القـوة الدوليـة لا مصلحـة لهـا في أن يتوحـد أو يتقـوى أو يتكامـل العـالم العـربي، ويحتفـظ بشـخصيته وهويتـه، إمـا أن يكـون تابعـاً وإلا فإنـه سـيصبح نـداً خطـيراً للغـرب. وشـعور الغرب إزاء العـرب هـو شـعور خـاص يعـود لأسـباب جغرافيـة وتاريخيـة، فنحـن ملاصقـون لأوروبـا ولا يفصـل بيننـا سـوى البحـر المتوسـط، لا يوجـد عنـد الغـرب عقدة نحـو الصـين أو الهنـد لبعدهـم عنهـم جغرافيـاً، أمـا العـرب فإنهـم لا يخرجـون مـن ضمـير الغـرب، وفي التاريـخ يتعلـم الطفـل أن العـرب دخلـوا أوروبـاً غربـاً مـن الأندلـس وشرقـاً مـن البلقـان وأنهـم حـاصروا (فينـا)... إلخ، فهنـاك حساسـية خاصـة وهـذا يحتـاج منـا إلى جهـد كبـير وترابـط أكـبر ابتـداء مـن معالجـة القضايـا السياسـية إلى البنـاء الاقتصـادي إلى التقـدم العلمـي إلى صنـع المحـرك العـربي، نحـن لا نطلـب صنـع قنبلـة ذريـة، لنفكـر أولاً ولنتفـق عـلى صنـع محـرك. وللأسـف لم يتفـق العـرب إلى الآن عـلى إقامـة صناعـة واحـدة تنقلنـا إلى القـرن العشريـن، وتجعلنـا مشـاركين في النهضـة وفي مواجهـة متغـيرات العـالم التـي نعرفهـا.

خاتمة:

أرجـو أن لا أكـون قـد أسـأت اسـتغلال وقتكـم، وأنـا لا أقـول هــذا دعـوة إلى اليـأس والتشـاؤم، لأننـا يجـب أن نعـرف أننـا خارجـون مـن جـب عميـق، مـن ظـلام اسـتمر قرونـاً طويلـة، نحـن كالشـخص الـذي يصعـد ثـلاث درجـات ثـم يقـع درجـة ثـم يصعـد ثـلاث درجات أخـرى، وهـذه النكسـات يجـب أن لا تقلـل مـن عزيمتنـا، وفي ذات الوقـت يجـب أن نـدرك أننـا في حاجـة إلى نضـال والنضـال يحتـاج إلى رجـال يتحملـون المسـؤولية.

وشكراً جزيلاً على سماعكم، والسلام عليكم.

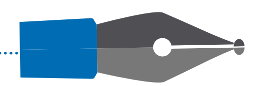
المناقشات

س: التطـور الصناعـي والديمقراطـي مـن ملامـح التقـدم. مـا رأيـك في عـدم دخـول أي منهـما أي بلـد عـربي أو إسـلامي؟

ج: ألاحـظ عـلى هـذا السـؤال التعميـم الشـديد، لأن هنـاك تطـوراً حاصـلاً بدرجـات مختلفـة وإن كان ليـس كافيـاً، ويهمنـي أن أوضـح أن الديمقراطيـة لا أقصـد بهـا الديمقراطيـة الغربيـة حرفيـاً، ولكـن المشـاركة في المسـؤولية وفي اتخـاذ القـرارات لأن المجتمعـات تختلـف، وبالتـالي فالسـبب هـو أن اتسـاع قاعـدة التعليـم لم يصحبهـا اتسـاع قاعـدة المشـاركة، وإذا كان جـزء كبـير مـن المسـؤولية في هـذا الأمـر يقـع عـلى كثـير مـن النظـم في البـلاد العربيـة داخليـاً، فالجـزء الكبـير يقـع عـلى الاحـتراب العـربي، لأن الدولـة عندمـا تكـون في حالـة تـأزم عـلى حدودهـا مـع هـذا الطـرف أو ذاك لا تكـون مهيـأة تمامـاً لإفسـاح المجـال واتسـاع الصـدر لهـذه المشـاركة. والـصراع العـربي المتبـادل إذن سـبب في عـدم التقـدم الصناعـي كـما نريـده. التقـدم الصناعـي لـه حـد، وهنـاك مشروعـات يمكـن أن تنفـذ عـلى حجـم ألـف عامـل وهنـاك مشروعـات لا يمكـن أن تنفـذ إلا بحجـم اسـتثمار مئـات الملايـين وعـشرات الآلاف مـن العـمال والباحثـين والخـبرات. وللأسـف لم يحـدث جهـد متجمـع مـن العـالم العـربي ومجلـس الوحـدة الاقتصاديـة في الجامعـة مـليء بمشروعـات التكامـل العـربي المدروسـة اقتصاديـاً بعيـداً عـن الأمـور السياسـية، ولم ينفـذ مـن هـذه المشروعـات تقريبـاً إلا أشـياء محـدودة، لأن السـلطة في كثـير مـن البـلاد العربيـة سـلطة مزاجيـة، وأي تخطيـط صناعـي يحتـاج إلى سياسـة طويلـة الأمـد، فالتخطيـط الصناعـي لا يمكـن أن ينفـذ في سـنتين أو ثـلاث سـنوات، بينـما نحـن نـرى أن حصـول خـلاف بـين دولتـين لا يتوقـف عنـد قطـع العلاقـات الدبلوماسـية بـل يتجـاوزه إلى إيقـاف المشروعـات وإغـلاق الحـدود والمجـال الجـوي، فعـلى الأقـل يجـب أن يكـون عندنـا ضغـط رأي عـام قـوي جـداً، وعـلى الحـكام أن يفرقـوا بـين الخلافـات السياسـية والمصالـح الحياتيـة للنـاس، نحـن لا نطالبهـم بإقامـة مشروعـات ولكـن نطالبهـم بـأن يتركـوا النـاس يزاولـون حياتهـم العاديـة ولا يقومـون بتقطيـع أوصـال هـذه الحيـاة، فالمشروعـات الصناعيـة تحتـاج إلى هـذا التكامـل العـربي وإلى سياسـات طويلـة المـدى حتـى يمكـن إنجـاز أي مـشروع صناعـي لـه قيمـة.

س: لمـاذا يضطهـد المتعلـم في هـذا العـالم العـربي والإسـلامي، ثـم نطالـب بصناعـة المحـرك، وهـل أنـت معـي في أن نحـترم المتعلـم أولاً ثـم نتجـه خطـوة أخـرى نحـو التكامـل والتكافـؤ؟

ج: هـذا صحيـح، لأنـه لا يمكـن إقامـة حائـط بـين التقـدم الصناعـي المـادي والتقـدم الإنسـاني، هـذا مسـتحيل، فهـما مكمـلان لبعضهـما.ولـدي خطـاب مـن أحـد رؤسـاء الـدول العربيـة مـا



زلت محتفظاً بـه لطرافتـه، كنـا في اجتـماع معـه، وقلنـا إنـه توجـد إمكانـات لإقامـة معامـل صناعيـة معينـة لصناعـات وأبحـاث علميـة. وقـد تحمـس لهـذا المـشروع وكان يدعـو العلـماء العرب المهاجريـن في كل أنحـاء العـالم للعمـل في هـذا المـشروع وتوضـع أولويـات لما يمكـن أن يجتمـع العـالم العـربي لإنتاجـه وبحثـه علميـاً، أمـا الخطـاب فيقـول فيـه قـد تـم إعـداد المباني والمسـاكن وبقـي أن نبحـث مـاذا نريـد أن نفعـل بهـذا المبنـي. والمشـكلة أن هـذا البلـد ليـس فيـه أبسـط حقـوق الإنسـان فكيـف يطلـب مـن عـالم أو باحـث أن يـأتي وتكـون لـه حريـة البحـث، وكيـف يلبـي هـذا الطلـب وليـس لـه حقـوق المواطـن العـادي الـذي يمكـن أن يدفـع لـه أضعـاف مـا يأخـذه في بلـد أجنبـي؟ هـذا أمـر يجـب أن يـزول، وهاتـان قضيتـان متلازمتـان.

س: نحـن في عـالم متغير، ونحـن ضمـن سياسـات عربيـة متغيـرة ومتناقضـة، فـما موقفنـا نحـن أفـراد هـذا العـالم العـربي مـن هـذا الوضـع؟

ج: نحـن نفكـر والـرأي العـام مـع تطـوره يسـتطيع أن يكـون له قـوة ضغـط.ومن المشـكلات التـي طرحتهـا أنـه ليـس لدينـا إجـماع في الـرأي العام عـلى قضايـا جوهرية.

مـا تحـدث عنـه مـن تمزقـات في تفكيرنـا وهويتنـا والنظـر إلى تاريخنـا ومسـتقبلنا ليـس تمزقـات حكومـات فقـط، وإنمـا هـي تمزقـات الـرأي العـام الـذي أعتقـد أنـه بمزيـد مـن التعليـم والتنويـر والنضـج.. والانفتـاح عـلى كافـة الثقافـات بثقـة في النفـس ودون خـوف يمكـن أن يصـل إلى نـوع مـن الاتفـاق.

س: الثـورة العربيـة كانـت صناعـة أوروبيـة ولم تكـن خالصـة للعروبـة ولكنهـا كانـت مصيـدة وقـع فيهـا العـرب، ولعلـك لم تنـس «لورنـس العـرب».

ج: هـذه مناقشـة لـن ندخـل فيهـا، لأن كل الحقبـة العثمانيـة محـل جـدل طويـل، وهنـاك مـن يعتقـد أن كل مـن انتقـد الخلافـة العثمانيـة فهـو عميـل وخائـن، وهنـاك كتـب تـدرج ضمـن هـؤلاء العمـلاء: الأفغـاني ومحمـد عبـده وأحمـد عـرابي وزغلـول، هـؤلاء يمثلـون مسلسـل الخيانـة في رأي هـذا الاتجـاه الـذي أشرت إليـه، لأنهـم تمـردوا عـلى الخلافـة العثمانيـة.

الخلافـة العثمانيـة كانـت تحولـت إلى إمبراطوريـة ليـس لهـا مـن الخلافـة إلا الاسـم،وكانت تسـتعمل اسـم (خلافـة) لتهيمـن بـه عـلى العـالم الإسـلامي، بينـما هـي مسـؤولة عـن كثير مـن أمـراض المجتمـع العـربي والمسـلم في القـرون الطويلـة التـي حكمـت فيهـا، وفتوحهـا كانـت أقـرب إلى الغـزو. فالفـرق كبـير بـين الغـزو الـتركي للبلقـان وبـين الفتـح الإسـلامي لبـلاد أخـرى، وهاتـان نظريتـان حولهـما جـدل كبـير ولسـنا بصـدد حسـم الموقـف الآن، وإنمـا ذلـك نمـوذج مـن نمـاذج اختلافاتنـا ومشـكلاتنا مـع تاريخنـا، والعـالم كلـه اختـلاف حـول التاريـخ، ولكـن هنـاك فـرق بـين الجـدل النظـري في الكتـب والجامعـات وبـين تحـول الخلافـات إلى حـروب أهليـة عربيـة إسـلامية.

س: ذكرتـم أن المسـلمين طـرف في كل الحـروب والمنازعـات في العـالم ولم تذكـروا شـيئاً عـن أسـباب ذلك؟

ج: كل قضيـة لهـا سـبب، نحـن عندمـا نتكلـم عـن المسـلمين في الفلبـين فالأمـر يختلـف عند كلامنـا عـن المسـلمين الذيـن يتقاتلـون في شـوارع بـيروت، في الفلبـين أغلبيـة مـن ديـن آخـر تريـد أن تقـضي عليهـم وتلغـي هويتهـم، والأمـر يختلـف في أفغانسـتان أو تشـاد؛ كل حالـة تختلـف عـن غيرهـا.

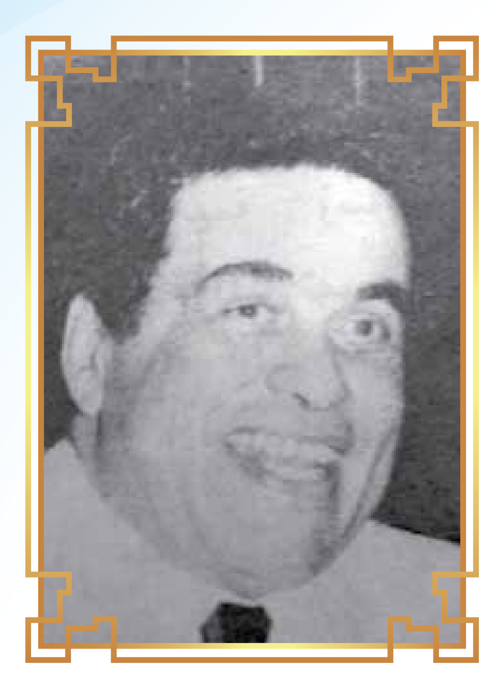
أنـا قصـدت أننـا مسـتضعفون في الأرض وطـرف مهيـض الجنـاح يتطـاول علينـا النـاس ويـرون أنـه لا مانـع في فصـل الجنـوب بالسـودان أو غـزو أفغانسـتان أو التهـام فلسـطين كلهـا. وأنـا ضربـت المثـل لأدل عـلى أننـا في موقـف ضعيـف ويجـب أن نأخـذ بأسـباب القـوة كـما أشرت.

ولكم شكري والسلام عليكم،،،

محاضرة

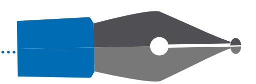
قضايا الأدب العربي المعاصر

١٩٨٧/٢/٨



الكاتب الأديب /

فتحـي غانـــم



نص المحاضرة

أيها السادة اسمحوا لي أن أتقدم لكم بالشكر على إتاحتكم لي هذه الفرصة، لأن أتشرف بالحضور واللقاء بكم في هذا البلد الذي أزوره أول مرة. ولأول وهلة أشعر بأني فعلاً أنزل سهلاً وألقى أهلاً. شعرت براحة نفسية فوراً، شعرت أني في مكان عربي أصيل، شعرت من المعمار المنبسط في التخطيط الجميل للمدينة، أن هذا لا يمكن أن يحدث إلا بقيادة حكيمة واعية في بلد أهله لهم قدر كبير وعظيم في الأصالة والعراقة. وما كدت أدخل المدينة حتى التقيت بكثير من الأصدقاء المصريين الأعزاء. وأؤكد لكم أنهم جميعاً ودون استثناء طلبوا مني أن أقدم الشكر لهذه الروح العميقة الأصيلة التي يجدونها بينكم، فأنا عندما أقدم لكم هذه التحية أقدمها ليست مجاملة وليست من باب الشكليات والرسميات، ولكني أقدمها وأنا شاعر تماماً أني صادق فيما أقوله، وأني أعبر فعلاً عن مشاعر المصريين الذين التقيت بهم وكان على رأسهم سفير مصر، الذي أيضاً يتكلم عن هذا البلد وما يشعر به من عراقة وأصالة وصداقة حميمة.. وسوف نتبين أن ليس هذا الكلام مجاملة ولكنه يمثل الدور الهام الذي تقومون به، والذي يمثل هذا اللقاء أحد أوجه أو ملامح هذا الدور في الثقافة العربي والسياسة العربية، مرة أخرى أسجل هذا الشكر والعرفان لقيادة هذا البلد الحكيم ممثلاً في صاحب السمو الأمير وولي عهده الأمين والإخوة أعضاء هذا النادي الكبير، الذين أعتز بهم وبلقائهم وأشعر أن هذه الصلة بداية لصلات أخرى كثيرة متميزة بيننا وبينهم؛ بين القاهرة والدوحة لمصلحة العرب جميعاً ولمصلحة هذه الأمة ولمصلحة الإسلام والروح الإسلامية والقيم الإسلامية التي نرى فيها بوضوح النموذج الطيب الصالح.

ولقد تتبعت بعض دراسات إسلامية هامة صدرت عن جامعة قطر، التي اشتهرت بأبحاثها ودراساتها الإسلامية،التي أصبح لها دور هام في الفكر الإسلامي الحديث.

وأود أن أقدم لكم نفسي ككاتب عربي أولاً قبل أن أقول إني كاتب مصري. أقول أنا كاتب عربي، وكما تعرفون أكتب في بلاد عربية كثيرة، واتصالي بالقراء العرب وكتاباتي في الصحف والمجلات العربية - أعتز بها وتفرض عليّ مسؤوليات عربية أولاً.

ولقد اخترت موضوع هذه المحاضرة بحرية كاملة، لأني أريد أن أتكلم بصراحة في هذا المجتمع الطيب، لأن المجتمع الطيب يسمح بسماحته للأديب وللمفكر أن



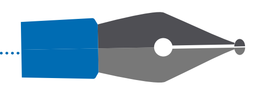
يتكلم بصراحة.

اخترت أن أتكلم عن القضايا الأدبية في عالمنا العربي المعاصر، أو القضايا الأدبية المعاصرة في عالمنا العربي، وأنتم تعرفون جيداً أني أكتب في السياسة كما أكتب في الأدب.

بل معروف أيضاً أن أغلب ما كتبته من الروايات أو الأعمال الأدبية تناولت قضايا سياسية، ذلك أن الأدب في تقديري أشمل من السياسة وأصلح لمناقشة القضايا السياسية بعيداً عن الحزبية والتعصب، بعيداً عن الأهواء والأطماع وبعيداً عن الأحقاد والخلافات الشخصية، بعيداً عن المهاترات التي تقتضيها شؤون السياسة.

الأدب أشمل وهو يحتوي السياسة، لأن الأدب تعبير عن الحياة أن يفصح الإنسان عن مشاعره، عن رؤيته للحياة، سواء كانت على المستوى الفردي الشخصي أو على مستوى المجتمع ودائماً على مستوى إنساني وعلى مستوى العلاقات الحميمة بين البشر، والعلاقات بين المواطنين العرب على امتداد الأمة العربية بين دول عربية وأخرى لم تنقطع أبداً، مع وجود خلافات سياسية، وكان الأب له دوره.

ولذلك عندما نتكلم عن قضايا الأدب العربي المعاصر لا بد أن نبدأ من هذه الظاهرة، ظاهرة وجود خلافات سياسية، لن ندخل فيها ولكننا نحتاط منها، لن ندخل فيها بمعنى أننا لن ندخل في المسائل التي تهم السياسة والسياسيين من حيث المعلم السياسي، وتحقيق أهداف سياسية، ولكن ندخل من منطلق العلاقات



العربية الدائمة التي ستظل أبد الدهر قائمة ما شاء لها الدهر أن تكون علاقات إنسانية؛ علاقات على مستوى الأفراد - زواج، تجارة، أعمال، اتصالات، سياحة انتقال من بلد إلى آخر، ولا خلاف أن الأمة العربية متماسكة. منذ شهور كان هناك في دمشق مهرجان للمسرح ورحبت دمشق رسمياً بوفد رسمي من مصر للفنانين، وقوبل مقابلة عظيمة جداً بدمشق ورحب بفنانين قادمين من القاهرة، قبل ذلك كان هناك كما تعلمون مهرجان الشعر الذي عقد في بغداد وكان هناك شعراء من سوريا وكان هناك شعراء من كل بلد عربي.

قبل ذلك كان هناك مهرجان للفن السينمائي في قرطاج بتونس، والفنانون من كل البلاد العربية كانوا موجودين.

العلاقات بين الأدباء والفنانين وقضايا الأدب تجمع الأدباء بالرغم من اختلاف السياسات فهي تمثل الإطار الإنساني، والإطار الفكري الذي لم يتجاوزه أحد، والذي عنده نظل جميعاً عرباً نتكلم اللغة العربية ولنا تقاليدنا وقيمنا التي لن نفرط فيها أبداً، وعلى الساسة أن يلحقوا بهذه الأمة القوية المتماسكة في علاقات الأفراد بين بعضهم.

هذا اللقاء الذي يتم هنا في هذا النادي يمثل الاتصال على المستوى العربي ليحدث نقاش بين صفوة من الأدباء والمفكرين ورجال العلم ورجال الثقافة ونتكلم في القضايا التي تهم عملنا الأدبي والأمة العربية.

وعندما يتصل الحوار والجدل في هذه القضايا لا بد أن يكون في هذا تهيئة للمناخ وللظروف الأفضل التي تعمل على علاج وحل الكثير من المشكلات السياسية.

أذكر في أيام جمال عبد الناصر أنه حدث تغير في الحكم في الجزائر، فتولى الحكم الرئيس بومدين، وفيما يبدو كان هناك نوع من العلاقات بين الرئيس عبد الناصر والرئيس بن بيلا الذي ترك الحكم وجاء الرئيس بومدين مكانه، وحدث نوع من الفتور في العلاقات السياسية، ثم جاء الاحتفال بعيد الاستقلال في الجزائر فذهب اثنان يمثلان مصر من الاتحاد الاشتراكي العربي في ذلك الوقت، أحدهما أستاذ في العلوم السياسية والاقتصاد في الجامعة اسمه - الدكتور رفعت المحجوب وهو رئيس مجلس الشعب حالياً، وكنت الطرف الثاني وكنت رئيس تحرير صباح الخير، واستقبلتنا لجنة رسمية في وقت كانت العلاقات فيها في فتور كما يقولون في لغة السياسة، وحضرنا احتفالاً رسمياً. لكن الظروف اقتضت أنيسافر الدكتور رفعت فوراً إلى بغداد، لأنه كان على موعد لإلقاء محاضرات بالجامعة هناك، فبقيت وحدي

فعرض عليّ الإخوة هناك أن أقوم بزيارة لبعض مدن الجزائر. قمت بهذه الزيارة لأتكلم في الأدب في بلد في شرق الجزائر اسمها قسنطينة. التقيت برجل مسؤول عن الحزب هناك، وبينما كنت أحاضر في بعض الشباب وكان يجلس بجواري وتذكرنا العلاقات الإنسانية؛ إذ بالدموع تطفر من عيني وتطفر من عينه، وتلاقينا وقلنا لا بد أن هذه العلاقات العربية بين مصر والجزائر تستمر بكل الوسائل.

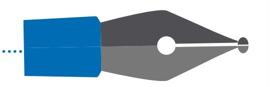
هذا الرجل اسمه « شريف مساعديه » مسؤول الأمانة الدائمة لجبهة التحرير الوطني الجزائري. في العام الماضي كانت الجزائر تحتفل بعيد استقلالها وتعد عدداً خاصاً بالمجلة عن هذا الاستقلال الذي حققته الجزائر، فكتبت هذا الكلام الذي أرويه لكم بحذافيره في مقال، ورويت هذه القصة ونشرت في الجزائر.

العلاقة بالشعر، العلاقة بالمسرح، العلاقة بالكلمة، العلاقة باللغة فوق السياسة لأننا أمة متحضرة،ولأننا أمة تعرف الدين وتعرف القرآن الذي نزل علينا بلسان مبين، ولأننا نعرف القيم التي نحافظ عليها. ومن هنا أقول مرة أخرى إننا في هذا اللقاء الذي نجتمع فيه لمناقشة قضايا الأدب العربي المعاصر، وأنتم تقومون بمسؤوليات وبدور هام في تهيئة نسيج قوي متين من الفكر ومن الثقافة ليس في قطر فقط ولكن على امتداد العالم العربي، وعلى امتداد هذا العالم الإسلامي الذي يتكلم العربية، لأن مسؤوليات العرب بالنسبة للإسلام باستمرار هي كيف يتحدون، كيف يحتشدون لنشر الدعوة الإسلامية؟

ولولا أن الله عز وجل أيد رسوله في هذا العمل الذي انتهى بتهيئة كاملة للقوى العربية لما تصورنا أنه كان من الممكن أن ينتشر الإسلام وأن يمتد هذا الامتداد في العالم.

هناك مسؤوليات علينا أن نتبينها بصورة جادة للأخذ بها بسهولة عندما نقول إننا نتكلم في القضايا الأدبية المعاصرة، وهي مسؤوليات لا تقف عند حدود الأدب، ولكنها تمتد إلى مسؤولياتنا نحو الأمة العربية بأسرها سياسياً وعقائدياً، وبتقدير نظرة إلى مستقبل كريم وأفضل لهذه الأمة.

القضايا الأدبية عنوان غامض، وكما قلنا هناك صلة قوية بين الأدب والسياسة. وأنا أتناول كل شيء بنظرة شاملة، فلا أرى أن هناك فصلاً بين قضايا أدبية وقضايا سياسية، بمعنى أن الأدب لا يعيش في برج عاجي أو بمعزل عن الحياة الاجتماعية والسياسية، ولا أتصور أني من أنصار هذا الرأي.



(الحداثة والالتزام)

الأدب متداخل في الحياة ومشكلاتها ومسؤولياتها. ومن هنا أتصور التزام الأديب بقضية مهمة في الأدب العربي هي قضية الحداثة، أو كيف يمكن أن نتصور الأدب في المستقبل أن يكون أدباً حديثاً؟ ما معنى الحداثة؟

الفرق بين أن يكون أدباً حديثاً أو معاصراً،هناك أيضاً الأدب وثورة المعلومات والكمبيوتر، الثورة التكنولوجية تحديد الأولويات أي القضايا أهم؟ أي القضايا تحتاج إلى التركيز والاهتمام؟ هذا أمر قد يختلف حوله ويحدث نوعاً من المناقشة، ولكن لا أؤمن بأنه علي أن أفرض رأياً وأن أقول هذا هو الصواب وذاك هو الخطأ.

ولكن أفضِّل البدء بقضية الالتزام ومسؤولية الأديب.. أنا أريد أن يكون الأديب حراً في التعبير عما يريد. فهناك من يرى أن الأديب يجب أن يلتزم بقضية سياسية ويدافع عنها، أنا في رأيي ومن الحقائق كما قلت لكم أن الأدب أشمل وهو يعالج جميع القضايا ولا يهرب منها، ولكن على مستوى إنساني وعلى مستوى العلاقات؛ علاقات الأفراد والأشخاص، وبمنطق آخر غير السياسة، ولكن إذا تحول الأدب إلى أن يكون خادماً للسياسة فهنا يبدأ الخطر على الأدب، والتزام الأديب بأن يكون له موقف سياسي يدافع عنه قد يؤدي في النهاية إلى ألا يكون أديباً في تقديري على الإطلاق. وإذا كنت أريد أن أتكلم في قضية سياسية، أكتب المقال السياسي أما أن أكتب الرواية فأضغطها وأقصر شخصياتها وأفرض عليها أن تقول خطباً سياسية وأن تتحول الشخصيات إلى شخوص تقف على منابر تقدم خطباً أياً كانت هذه الخطب.. هذا أمر لا أستطيع أن أتصوره كأدب وكفن، الأدب يحتاج إلى أن يتحرر من كل القيود السياسية.

البلاد الاشتراكية التي ترى أن الأديب يجب أن يكون ملتزماً بالقضايا السياسية وبتعليمات الحزب تضع الأدب تحت عنوان « إدارة التهييج والإثارة ».. الصحافة أيضاً تحت هذا العنوان، لأن الأديب ينقلب إلى مدرس يلقن تلاميذه المعلومات المدرسية والتعاليم الحزبية. فرأيناً في هذا أنه لا يمثل أدباً، ولا صلة له في تقديري بالأدب.

أذكر عام 1959 م أني كنت في تشيكوسلوفاكيا والتقيت بصديق كاتب مسرحي مشهور في براغ، وكان له مسرحية كوميدية من ثلاثة فصول، وكان يصف بسخرية النظام الموجود في البلد. وشخصية الرواية اسمها الدكتور موفوتي ورئيس الجمهورية

آنـذاك كان اسـمه الدكتـور موفـوتي..

فـكان يحـاول أن ينقـد نقـداً في حـدود معينـة، هـذا الكاتـب كان يميـل للحريـة دخـل في مشـكلات مـع مـا حـدث في تشيكوسـلوفاكيا عـام 1968م.

لجـأ إلى ألمانيا الغربية واشـتغل سيناريسـت بالتلفزيـون، ثم توفي في المهجر.

أذكـر وأنـا أقـول مـا سـمعته في بـراغ، نحـن تقـدم لنـا قائمـة مكتـوب فيهـا الأيـام وسـاعات العمـل ومطلـوب منـي أن التـزم بالعمـل مثلـي مثـل الرجـل الـذي يعمـل في التجـارة أو صناعـة الأحذيـة.

مـرة أخـرى في موسـكو وكنـت رئيسـاً لوفـد مـصر إلى مؤتمـر أدبـاء آسـيا وإفريقيـا وكان ذلـك عـام 1964 م والتقيـت هنـاك بأديـب أسـمه هايـت ماتـون، فتكلمنـا عـن دور الأدب والتعاليـم التـي يتبعهـا الكتـاب والأدبـاء، وكان لا بـد أن أثـير معـه موضـوع الديـن، وأن للكاتـب مثـلي حـدوداً يلتـزم بهـا مُثُـل الديـن.

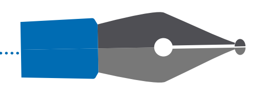
ففكـر ثـم قـال لي: أنـا لا أسـتطيع في الحقيقـة أن أعارضـك، لأني سـأذكر لـك هـذه القصـة؛ عندمـا قامـت الثـورة عـام 1917م، وبدأنـا نذيـع مبادئنـا تصـور النـاس أنهـم أصبحـوا يملكـون كل شيء، فهجمـوا عـلى القطـارات وعـلى المخـازن وعـلى المؤسسـات وعـلى كل مـا يقـع تحـت أيديهـم يسـتولون عليـه، وهكـذا اضطررنـا إلى أن نلجـأ إلى حـراس نختارهـم في البـلاد التـي فيهـا مسـلمون مـن الاتحـاد السـوفيتي متدينـون وجعلناهـم عـلى حراسـة المخـازن، وفي البـلاد التـي فيهـا مسـيحيون بحثنـا عـن حـراس متدينـين وجعلناهـم عـلى حراسـة المخـازن، لأنـه كان لا بـد أن نلجـأ إليهـم وإلا نُهـب كل شيء.

هنـا نتبـين أن الالتـزام لا يمكـن أن يكـون قيـداً حديديـاً أو تعليـمات سياسـية، ولكـن الالتـزام يمكـن أن يكـون مقبـولاً، ولا أتصـور غـيره في أمريـن لا ثالـث لهـما في تقديـري.

الأمـر الأول: مـا يسـمي الأديـب، فعـلى الأديـب أن يتمسـك بهـذا، فـلا أتصـور أنـه مـن الممكـن أن يكتـب أديـب، وباعتبـار أنـه حـر فيعـادي قيـماً ذاتيـة أو يدعـو للإلحـاد.

الأمـر الثـاني هـو مـا يتصـل بالقوميـة، فعندمـا تتعـرض القوميـة للخطـر فـلا بـد أن تكـون هنـاك قيـود.هـذا الـكلام مسـلّم بـه مـن عـداة الليبراليـة في أمريـكا وفي إنجلـترا، وفي غيرهـا.

وفي تقديـري أن الـذي يعالـج هـذه المشـكلة هـو أن يتكلـم الأديـب ويكتـب وهـو حريـص عـلى ألا يصـدر أحكامـاً، وأن تكـون هنـاك صيغـة متفـق عليهـا، وأن يدعـو إليهـا لعـلاج هـذه القضيـة الهامـة في الأدب العـربي، وهـو أن الأفضـل أن ننبـذ صـورة هـذا الأديـب الـذي يجلـس أمـام الجمهـور أو يكتـب للقـراء ثـم يصـدر لهـم الأحـكام.



ثـم يقـول هذا جواب، وجواب مطلق، وهذا خطـأ وخطأ مطلق..

ومـن الخطـأ أن يفـرض الأديـب كل رأي يقوله ومن يخالفـه يكون جاهلاً أو كافراً.

علينـا أن نتمثـل بمـا جـاء في القـرآن الكريـم، فليـس هنـاك أمـر بالنسـبة للعقيـدة يخلـو مـن الدعـوة إلى أن تتأمـل وتتدبـر وتصـل إلى الإيمـان باللـه مـن خـلال اقتناعـك العقـلي، ومـن خـلال الأركان لهـذه الدعـوة السـامية في أن نتدبـر بعقولنـا كل شيء ونمحصـه ونصـل بعقولنـا إلى الإيمـان الصحيـح لا الإيمـان المفـروض عـلى أحـد.

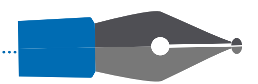
هـذا التنـاول يولـد تفاعـلاً حقيقيـاً وفهـماً حقيقيـاً يـؤدي إلى أن القضايـا تأخـذ مسـاراً بعيـداً عـن الفهـم الخاطـئ أو الانحـراف والتزويـر، وذلـك بـأن نكـون قادريـن عـلى أن نجعـل الأحـكام ونقـول أشـياء مطلقـة حاسـمة، وأن هـذا خطـأ محـض وهـذا أمـر مرفـوض، ولكـن تكـون هنـاك السـماحة ويكـون هنـاك التواضـع ويكـون هنـاك الإكثـار مـن المعلومـات التـي تسـاعد عـلى أن نشـترك معـاً في إصـدار الحكـم. وهـذا الأمـر أيضـاً نجـده في الفكـر الإسـلامي. نفـترض أننـا سـألنا الإمـام الغـزالي عـن خشـب يحـترق سـيقول لنـا أرى الخشـب وأرى النـار وأرى الحريـق، أمـا أن أحكـم أن الخشـب احـترق بالنـار فـإن هـذا الحكـم أرجـؤه. لمـاذا؟ لـو قلـت النـار تحـرق الخشـب وأطلقتهـا فقـد فرضـت عـلى القـدرة الإلهيـة في أن تحـدث الأشـياء التـي تكـون نوعـاً مـن المعجـزة، أو أشـياء يريدهـا اللـه سـبحانه وتعـالى، كأن يمـشي نبـي في بحـر وألا يحـترق في نـار، هنـاك احتـمال للاسـتمرار لأن تكـون العلاقـة بـين السـبب والنتيجـة كـما نتصورهـا موجـودة وعلينـا أن نرجـئ الحكـم. مثـل هـذا الـرأي لا يكتفـي بالتأثـير في فكرنـا العـربي ولكنـه أثّـر أيضـاً في فيلسـوف لـه تأثـير كبـير عـلى العلـم في أوروبـا وهـو دافيـد هيـوم الـذي يقـول: إن هنـاك صدقـاً فيـما نسـتطيع أن نلمسـه بالحـواس، أنـا أرى بعينـي ومـا أرى بعينـي صـدق وأنـا صـادق عندمـا أقـول رأيـت بعينـي كـذا أو سـمعت بـأذني كـذا ولمسـت بيـدي كـذا. الحـواس صادقـة في حـدود مـا أحسسـت بهـا، أمـا أن أصـدر حكـماً عـلى مـا وصـل لي مـن الحـواس فهنـا منطقـة الخطـر، وأقسـم المعلومـات إلى مـا يصـل إليّ مـن الحـواس ثـم الآراء والأفـكار وردود الأفعـال التـي أشـعر بهـا نتيجـة مـا وصـل لي مـن الحـواس. في ميـدان الآراء احتـمال الخطـأ وارد وعلينـا أن نرجـئ الحكـم ونرفـض الأحـكام المطلقـة، ومعـروف أن هيـوم وغـيره مـن الفلاسـفة الذيـن أسسـوا النهضـة الفكريـة والعلميـة في أوروبـا تأثـروا بفلاسـفة العـرب، وتأثـروا وبالـذات في هـذه النقطـة بالإمـام الغـزالي، إذن علينـا أن نخلـق مناخـاً ليـس فيـه هـذا الحكـم المطلـق العنيـف، أن نحـاول أن نصنـع مجتمعـاً نتبـادل فيـه الافـكار ونناقـش فيـه القضايـا مـن خـلال التسـامح، مـن خـلال

أن لا نسارع في إصدار أحكام مطلقة باترة، ندين فيها بعضنا بعضاً ونسيء فيها إلى بعضنا بعضاً، مثل هذا يعالج الكثير من الخلافات والمشكلات التي تنجم عن قضية الالتزام والتحمس، الذي يصل إلى درجة التعصب والتزمت بالنسبة للأفكار التي ترتبط بالسياسة، وندعو إليها بتزمت وبعنف، وأحياناً يصل الأمر بنا أننا نترك القلم ونترك بيت الشعر، ونحاول أن نفرض الرأي على بعضنا بعضاً، كما يحدث والعياذ بالله في أماكن حفظنا الله منها باستخدام القنابل والديناميت. هذا أمر يؤدي إلى الخراب ويؤدي إلى الفشل ونهاية كل شيء، لأنه يخالف حتى تعاليم الدين، ويخالف المنطق الذي علينا أن نتمسك به لاستمرار حياتنا الأدبية والفكرية وتواصلها.

أريد أن أتناول بعض القضايا في الأدب العربي، ولكن حتى لا نغرق في مناقشات نظرية، سأحاول مناقشتها من خلال تجربتي الشخصية، أي من خلال الروايات التي كتبتها، فأول رواية كتبتها كانت رواية «الجبل» وهي عبارة عن قضية التنمية والإصلاح كما رأيتها في قرية الجرمة.. في صعيد مصر، كان الأهالي يسكنون في كهوف في الجبل، وذلك في عهد ما قبل الثورة، أرادت الدولة أن تصنع لهم قرية نموذجية لنقلهم من الكهوف، لأنهم يعيشون في منطقة الآثار والكهوف التي هي مداخل المقابر الفرعونية، والسياح يأتون لزيارة هذه المقابر، ولا داعي إلى أن يطلعوا على هذا المنظر للأهالي الذين يعيشون في كهوف.

وعهد الأمر إلى مهندس من عباقرة العمران في العالم حتى اليوم وهو المهندس حسن فتحي فقد كلف بإنشاء هذه القرية، أعد لها رسوماً وخططاً على مستوى معماري رائع، ولا يعترض عليه أحد، فكّر بإقامة المشروع بوسائل اقتصادية تعتبر عبقرية، لأنه استخدم المادة الخام الموجودة بالمنطقة دون استيراد حديد وخشب، حيث استطاع أن يقنع أهل القرية ببناء القرية، فقاموا فعلاً ببناء القرية، وبعد أن أوشكت على الانتهاء رفضوا أن يسكنوها: وهنا إشكال كبير جداً أنك قد تقدم مشروعات في غاية الجمال، مشروعات اقتصادية سليمة، مشروعات يتولى الناس القيام بها ولكنهم في داخل أنفسهم غير مقتنعين بها، فمثلاً هم غير مقتنعين بأن تكون المواشي والدواب بعيدة عن مكان نومهم، لأنهم تعودوا أن يناموا وقد أغمضوا عيناً وفتحوا الأخرى على هذه الدواب، لأن فيها حياتهم واحتمال أن تسرق أو تترك المكان، وتلك كارثة.

احتمال آخر لا يوجد عمل لهم في المنطقة التي سيذهبون إليها، قرية جميلة جداً



ولكن لم يتكلم معهم أحد في طبيعة الأعمال الجديدة التي سيتولونها. أقيمت القرية وتم البناء ثم لم يتسلمها أحد وظلت قرية مهجورة، علاوة على أن المجتمعات لا يمكن أن تتقدم وتحدث فيها التنمية من خلال نوايا حسنة، ومن خلال مشروعات فيها فن واقتصاد، لكن الناس لا تقتنع من الداخل بالتنمية، لأن هذا يذكرني كما ذكرت في البداية أني لاحظت عندكم حكمة في عدم الاندفاع في البناء كما نلاحظ في أماكن أخرى.

هذا التطور للتنمية ضروري. القضية في رواية « الجبل « كانت قضية كيف أقدم هذا الواقع وأنقله إلى القارئ. هنا مشكلة الفرق بين الواقع كما نعيشه في الحلم الذي نريد أن نصل إليه. طبيعي نحن كعرب بلا استثناء عندنا هذه الازدواجية بين الواقع والمثال؛ بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة باستمرار بين عمل الخير وعمل الشر، والانتقال بين الشيء ونقيضه موجود باستمرار في حياتنا.

إن الحداثة في الأدب هي أن نستطيع باستمرار أن نناقش وأن يحدث التجديد المستمر في الفكر، وأن لا يقف عند مرحلة معينة، ونقول أن تكون هناك قدرة على التطور وعلى التحرك وعلى الاجتهاد باستمرار.

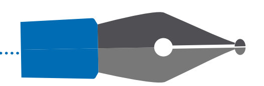
والحداثة أيضاً كقضية في الأدب ترتبط بالتراث، لأن هناك من يتصور أن الحداثة في الأدب أن نكون معاصرين وأن نأخذ من الآداب الأجنبية والمعاصرة، وأن نتصور أن هناك أدباً متقدماً في أوروبا وأمريكا وعلينا أن نأخذ بمثله في أدبنا، الواقع غير هذا، الحداثة الحقيقية هي أن أرى الجديد في التراث وأستمد منه الخامات التي تدفعني في الحاضر وإلى المستقبل.

هناك أيضاً رواية كتبتها بعنوان «الرجل الذي فقط ظله» من أربعة كتب، وهي تناقش التطلعات من المثقفين وهذه الانتهازية التي قد تستولي عليهم والرغبة في التسلق والصعود على حساب الآخرين، ومعركة الوصول إلى المناصب ومعركة أن يثبت للإنسان وجوده في مجتمع يقوم على الصراع. فالقادم من الريف يريد أن يتحلى بأخلاق المدينة، المرؤوس يريد أن يستولي على مكان رئيسه إلى آخره، هناك أيضاً تصوير لواقع نشأ عنه دعوة إلى تكافؤ الفرص في المجتمع أدى إلى أن الكثيرين يريدون الدخول في سباق فيما بينهم للوصول إلى المنصب الأكثر نفوذاً وأكثر مادة، وهذا أدى إلى أن يبدأ الجميع بفرص متكافئة ولكن يحدث قتال يشوه النفوس ويدمرها، ولكن لا سبيل إلى مواجهة هذا الصراع الدموي بين الأفراد إلا بالتمسك بالقيم والدين والتعاليم التي تحفظ للمجتمع سلامته.

أما إذا فقدت هذه القيم فعلينا أن نواجه مجتمع العنف ومجتمع الإرهاب، المجتمع الذي قد يدمر نفسه بيده.

في «زينب والعرش» أردت أن أتكلم في الموضوع التالي: هل يستطيع الإنسان أن يحقق بإرادته المستقلة وجوداً في الحياة؟، وأن يحصل على قيمة، وعلى عرشه في أن يكون له أهمية؟ ولكن الصراعات بين الأشخاص كانت تؤدي إلى أن عبدالهادي النجار يريد، ولكنه لا يستطيع أن يحقق إرادته، وزينب تريد ولا تستطيع أن تحقق إيرادتها، ودياب ذلك الضابط الحر الذي اشترك في الثورة المليء بالنوايا الطيبة الحسنة يريد ولكن لا يستطيع أن يحقق ما يريد، لأن الإرادة المستقلة تتصارع، ولا بد أن يكون هناك ما يجمع بينها وما يجعلها تعيش في مجتمع متماسك ويحولها إلى مجرد أفراد تتصارع وتتقاتل فيما بينها. رواية «الأفيال» كانت محاولة لمحاكمة الأجيال الماضية، الجيل الذي بدأ مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، الذي شاهد احتلال الإنجليز لبلادنا، الذي أراد أن يتعلم في بلاد الإنجليز حتى يتعلم كيف يحكم، فيذهب الابن ليتعلم في أكسفودر ولا يعود إلا ومعه تقاليد الإنجليز السطحية كشرب الشاي في الساعة الخامسة، والرغبة في أن يكون صاحب منصب ولا شيء غير ذلك، وكيف يتدهور الحال بهذا التسلسل في مجتمع تأثر بالاستعمار وتأثر بالتقاليد الأوروبية، بحيث نصل في الآخر إلى أجيال منفصلة تماماً وانقطاع بين الآباء والأبناء كافة. لم يستطع الآباء أن يقدموا الحلول أو الخط السليم الذي يسير فيه الأبناء، بل أسرف الآباء على أنفسهم مما أدى إلى إحساس الأبناء بالأزمة وعدم وجود الحماية اللازمة من الآباء، وترتب على ذلك أن الجد والتسامح بين الناس يضعف والعنف يزداد فكتبت رواية « قليل من الحب وكثير من العنف »، ثم حدثت تلك الصراعات العنيفة المتطرفة باسم الدين فكتبت « بنت من شبرا « لأقول إن الإسلام بخير وإن المسلم بطبيعته شاهد بالقسط على أهل الكتاب يتعامل معهم بالعدل حتى وإن كان تعاملهم بالظلم، ولكن المسلم حريص باستمرار على قيمة العدل.

إذا كانت اليهودية فيها فكرة القصاص أساسية وإذا كانت المسيحية فيها فكرة المحبة أساسية ففي الإسلام فكرة العدل أساسية، من خلال هذه الرواية كانت الحداثة هي في أن أستمد بقدر الإمكان من معاني التراث ما يسمح لي بأن أقدم المفاتيح أو ما يشبه الشفرة المتعارف عليها جيلاً بعد جيل للفهم والاستنارة بحياتنا، وبما أريد أن أعبر عنه من أحداث في مجتمعاتنا. مثل هذا الجهد في كتابة الروايات



كان لا يكفيني، لأني أردت الاستمرار في أن أتناول قضية فلسطين التي اعتبرها جوهر المشكلة في بلادنا ومصدر أزمة حقيقية، ولذلك شغلت خلال الأربع سنوات الاخيرة بكتابة رواية عن فلسطين في الفترة من العشرينات حتى 1948، لأصور تحولات العلاقة الطبيعية الإنسانية التي كانت تحكمها تعاليم الدين بين الفلسطيني العربي المسلم واليهودي بفعل قوة دخلت وتسللت وسيطرت على العقود وخربت النفوس ثم انتهت إلى أن صنعت حمّام الدم.

وأعود ثانية إلى التحديث في الأدب فهو الاستمرار في القديم، لأني أريد أن أركز هذا المعنى بالنسبة لقضية الحداثة.

الحداثة أن تؤدي خدمة إلى التراث كخامة لشيء نعتز به، علينا أن نبعث فيه شيئاً من حياتنا الجديدة، وأن نستمده للتواصل وللفهم. الآن بانفصالنا عن هذا التراث لن يكون هناك أدب عربي حديث، وإذا تصورنا أننا نقلد الأدب الأمريكي أو الألماني أو السريالية، أو أياً كان التقليد فلن نصل إلى الحداثة الحقيقية التي ينبغي أن يكون عليها الأدب.

بقي بعد ذلك أن أقول لكم سريعاً عن تجربتي مع أعمالي في مواجهة الثورة التكنولوجية ممثلة في الفيديو والتلفزيون وما نتوقعه، هل هذا يؤثر على كتابة الرواية؟ مثلاً كثيرون عرفوا اسمي من خلال « زينب والعرش » وكثيرون لم يقرؤوا الرواية ولكن ملايين شاهدوها على الشاشة وكذلك في رواية « الأفيال» روائي إنجليزي حديث قال لي في إنجلترا: كان الروائي الذي يطبع 15 ألف نسخة من رواية شيء كبير، لأن التليفزيون يؤثر على سوق الكتاب، فهل هذا يؤدي إلى انتهاء الكتابة؟

أنا شخصياً لا أتصور هذا.. لا أتصور أن اللغة سوف تنتهي، ربما لأن وسيلة القراءة تختلف، ولا أدري كيف يكون ذلك، ووسيلة الكتابة تختلف، ولكن الكتابة ستظل، واللفظ سيظل كما شاء الرحمن أن يحفظ الكتاب الكريم، فإنه سيحفظ اللغة العربية، وما دامت اللغة العربية باقية فإن الأمة العربية باقية والأدب العربي باقٍ.

وأرجو أن أكتفي بهذا القدر لأتيح الفرصة لأن نتبادل الحديث، فقد يكون هذا فرصة لتبادل الرأي، تطبيقاً لما قلته بأن الكاتب لا يلقي أحكاماً وينفرد بها، وإنما عليه أن يشرك الآخرين في الرأي، لأنه هذا هو السبيل الصحيح للأدب الصحيح، وشكرا..

المناقشات

س: هل تؤثر التيارات السياسية في أي دولة على مستوى فكر الأديب، وما مدى تأثرك بالقضايا السياسية والاقتصادية في مصر خلال حياتك الأدبية؟

ج: التيارات السياسية تؤثر على فكر الأديب. ولكن ليس هذا حكماً مطلقاً، لأن الأديب إذا كان يستطيع أن يقرأ، أن يسافر أن يتصل بغيره من الأدباء، فلا شك أن هذا يؤثر أيضاً في أدبه. وقد قال لي أحد شعراء الإنجليز ونقادهم أن الأدباء أشبه بمجتمع في حجرة مجتمعين وإذا جاء أديب جديد يغير وضع المقاعد. أعتقد أن الأديب يتأثر أولاً بالاتصالات الأدبية والفكرية، ولكن إذا كانت الظروف السياسية التي تعيش فيها قراءة اتصالاً أو سفراً فلا شك أن هذا يؤثر عليه.

بالنسبة لي فلا شك أني تأثرت بالقضايا السياسية والأدبية؛ قضية الانفتاح التي حدثت في مصر واجهت في البداية عدة مشكلات وأوجدت نوعاً من الثراء لا يتوازن مع درجة القيم الأخلاقية المطلوبة، والثقافة المطلوبة في صاحب المال، الحقيقة أن المال لا يحافظ عليه شيء مثل أن يكون الإنسان على خلق وعلى مستوى عالٍ من الفكر.

كبار أثرياء العالم معروف أنهم يشتغلون في إقامة مؤسسات ثقافية ومعاهد ومدارس، إنما أن تكون الثروة مقربة من الفكر ومن الدين، فهذا لا يقضي على الثروة.

كتبت عن قضية الانفتاح وتأثيراتها في رواية بعنوان «كثير من الحب قليل من العنف» صورة من صور المجتمع المصري وهو يواجه قضية الانفتاح.

محاضرة

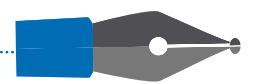
تأصيل الرواية العربية

١٩٨٧/٣/٢٢



الروائي الأديب

جمال الغيطاني



نص المحاضرة

السلام عليكم – في البداية أشكر هذه المبادرة لنادي الجسرة الثقافي من أجل إقامة تواصل ثقافي بين أدباء الأمة العربية، فالوضع الثقافي العربي في أشد الحاجة إلى مثل هذا التواصل، خاصة في السنوات الأخيرة. وقد اخترت الحديث عن موضوع اعتبر أنني أعمل فيه منذ عدة سنوات، ووصلت فيه إلى نتائج نظرية نتيجة ممارسة وعمل تجربة طويلة ومعاناة الإبداع والكتابة، ولذلك أستميحكم عذراً إذا اخترت أن أبدأ حديثي بجانب فيه بعض الذاتية إلى حد ما. فقد بدأت الكتابة عام 1959 ومنذ هذا التاريخ وأنا أشعر أنه من الضروري بالنسبة لي أن أقدم شيئاً لم يسبق لي أن قرأت مثله، أو اطلعت عليه في نماذج الإبداع سواء العربية أو العالمية. كان ذلك هماً بدأ وتطور مع الزمن حتى وصلت إلى ما وصلت إليه في القص العربي، والحكي العربي.

كانت السنوات الأولى سنوات تجربة وكنت أشعر فيها بهذا القلق الغامض من أجل البحث عن الجديد، عن شيء لم يقدم مثله، لأنه في تقديري أن الفنان أو الكاتب الذي لا يضيف جديداً إلى تراث أمته، يكون كالناسخ الذي يكرر النماذج السابقة أو يقلدها أو يتبع خطى الآخرين. والإبداع في تقديري هو خطوة جديدة في أرض لم يطأها، وبحر لم يتم الإبحار فيه، أو اكتشاف سواحل أخرى.

في البداية ولسنوات طويلة كنت أقرأ كل ما يقع تحت يدي، وبدايتي كانت تلقائية، فلم يكن هناك في أسرتي أو في أساتذتي الذين تتلمذت عليهم سواء في المدرسة الابتدائية أو في المراحل الأخرى من له اهتمام بالأدب بشكل مباشر أو له توجه أدبي. وما زلت أذكر حتى اليوم ذلك اليوم الغامض من عام 59 عندما شعرت بالرغبة في كتابة حكاية سمعتها، وكانت تلك هي البداية، والبدايات دائماً لا تنسى. وربما كان من حسن حظي أني نشأت في منطقة القاهرة القديمة على مقربة من جامعة عربية، هي جامعة الأزهر، وفي منطقة تنضح شوارعها بالتاريخ وتنز بيوتها به. وفي هذه المنطقة العربية يوجد إحساس كبير وعميق بالزمن العتيق القديم. وفي كل شارع أثر إسلامي أو عربي، وفي كل منحنى تروى حادثة عن شيء وقع أو حدث سواء في العصر المملوكي أو في العصور العربية المختلفة لتاريخ مصر العربي عرفت طريقي إلى مكتبة المدرسة، وإلى المكتبات التي كانت تقدم الكتب القديمة لطلبة الأزهر، ومنها بدأت أستقي ثقافتي. ولعبت التلقائية دوراً كبيراً لم يدركه إلا في السنوات الأخيرة وأنا أطيل التأمل داخل ذاتي وأرحل في تاريخي الخاص، لماذا :- لأن هذه الكتب كانت تقدم نوعين متناقضين إلى حد ما في ذلك الوقت؛ أولاً الروايات العالمية المترجمة وروايات الأدب العربي، وثانياً كتب التراث العربي التي

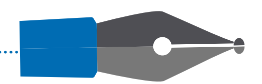


تخدم طلبة الأزهر بما فيها كتب الأدب وكتب التاريخ وغيرها من الكتب التي تعكس شتى فروع المعرفة في التراث العربي.

كنت أقرأ كل ما تقع عليه عيناي، إلى درجة أنني أحياناً أجد روايات منزوعة الغلاف لا أعرف مؤلفها فكنت أقرؤها من الصفحات الأولى حتى الصفحات الأخيرة، وفي ذلك لم يتجاوز عمري اثنتي عشرة سنة. قرأت كتب التراث العربي القديم وجذبتني كتب التاريخ بالتحديد، لأن حوليات التاريخ العربي أقرب ما تكون إلى فن القص أو الرواية، أو فن الحكي؛ إذ هي عبارة عن مجموعة حوادث.

في هذه الفترة كنت اقرأ نماذج الأدب الغربي المترجم، وتوقفت كثيراً عند ترجمات كاملة قدمتها دار سورية لكبار الأدباء الروس والأوروبيين، وهي دار اليقظة العربية التي قدمت ترجمة كاملة للحرب والسلام للكاتب الروسي تولستوي، والجريمة والعقاب لدستوفسكي، وقد اطلعت على هذه الأعمال في سن مبكرة جداً، وكان طموحي وأنا أقرأ هذه الأعمال أن أكتب مثلها، وقد تعلمت فيما بعد أن المبدع أو الكاتب عليه أن يضع أمام عينيه أكبر ما أنتجته قريحة البشرية من نماذج، وأن ينافسها وهذا حق مشروع، فإذا وضعت أمام عيني عملاً أدبياً وحلمت أن أكتب مثله فإذا حققت نصفاً من المائة من طموحي فربما أصل إلى شيء..

في هذه الفترة شعرت أنني أمام شيء جديد وطريقة مختلفة في القص ورواية الحديث وطريقة التعبير، وهذه الكتب القديمة كانت تحمل من مواطن الجمال في اللغة



مـا كـنـت أشـعر بـه بشـكل تلقـائي، فيسـتوقفني ويجـذب انتباهـي، وفي نفـس الوقـت عندمـا يبـدأ الأديـب خطـاه تكـون أمامـه قواعـد ومقاييـس وضعهـا النقـد في السـاحة الأدبيـة، وفي ذلـك المبتـدئ ينظـر إلى هـذه المقاييـس وإلى هـذه القواعـد بنـوع مـن الرهبـة، فعـلى سـبيل المثـال كان هنـاك كتـاب عـن فـن القصـة القصـيرة للدكتـور محمـد رشـاد رشـدي يتحـدث عـن فـن القصـة القصـيرة وقـد وقـع بـين يـدي في فـترة مبكـرة مـن عمـري وكان يحـدد أن القصـة القصـيرة تتكـون مـن ثـلاث مراحـل:- (بدايـة ووسـط ونهايـة)، أو مـا كان يسـميه لحظـة التنويـر.

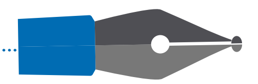
ويـضرب عـلى ذلـك أمثلـة مـن تشـيكوف إلى موباسـان وغيرهـما، هـذه المقاييـس النقديـة في هـذه السـنوات مـن عمـري كانـت تطبيقـاً للمذاهـب الغربيـة التـي ولـدت في الغـرب ونمـت فيـه، وتطـورت ثـم نقلـت إلى الوضـع النقـدي، وكانـت هـي التـي تؤثـر في حركـة الإبـداع وتحـدد اتجاهاتـه، وقـد أنفقـت سـنوات طويلـة مـن المجاهـدة حتـى اكتشـفت أنـه لا يوجـد مـا يسـمى بالقواعـد التـي يجـب اتباعهـا في الفـن، أو في الأدب، ومـا تاريـخ الأدب كلـه إلا وضـع للقواعـد وتحطيـم لهـا، وثـورة عليهـا، وتجـاوز لهـا، وهنـا تكمـن قـدرة كل مبـدع أو كاتـب في إمكانياتـه وتجـاوزه لمـا تـم تحقيقـه، حتـى يصـل إلى مـا لم يتـم تحقيقـه، وكان هـذا همـي الأول والأخـير في الكتابـات النقديـة.

يقـول كبـار الأسـاتذة:- إن القصـة القصـيرة يجـب أن تكـون هكـذا، وأن الروايـة يجـب أن تخضـع لمقاييـس معينـة، وإذا أردت كتابـة روايـة فانظـر إلى النـماذج الموجـودة كروايـات نجيـب محفـوظ التـي تقـف جنبـاً إلى جنـب مـع دستوفيسـكي. قبـل قـراءاتي نجيـب محفـوظ الـذي سـعيت إلى التعـرف إليـه وإلى مجالسـته، وارتبطـت بـه بعلاقـة عميقـة جـداً ترجـع إلى ربـع قـرن، فقـد تعلمـت منـه الكثـير ولكـن هـذا الهاجـس غـير الملـح في أن أكتـب مـا لم يكتـب مثلـه مـا زال مسـيطراً عـليّ، ولقـد مـررت بمرحلـة طويلـة تعرفـت خلالهـا كـما ذكـرت عـلى كتـب الحوليـات التاريخيـة، وكتـب الـتراث العـربي، واسـتوقفني مـؤرخ مـصري عـاش في القـرن 16 م وهـو محمـد أحمـد بـن إليـاس الحنفـي المـصري، صاحـب كتـاب (بدائـع الزهـور في وقائـع الدهـور).

وهـذا كتـاب تاريـخ ضخـم يقـع في حـوالي سـتة آلاف صفحـة اكتشـفته وعايشـته قبـل عـام 1967، وهـو ليـس روايـة، ولكـن مـا اسـتوقفني فيـه طريقـة حـكي الحـدث وقصـه وطريقـة إيـراد الخـبر، وطـرق التعبـير التلقائيـة المبـاشرة التـي تحتـوي عـلى دفقـة شـعورية عميقـة جـداً، فمثـلاً عندمـا كان يحـدث اضطـراب في القاهـرة كان يقـول (وبـدأ النـاس في هيـاج عظيـم) فهـذا التعبـير (في هيـاج عظيـم) لم أكـن اقـرؤه إلا في الكتـب المترجمـة عـن الأدب الغـربي أو في الروايـات العربيـة الحديثـة، وكذلـك عندمـا يقـول: (طفـش المماليـك في النـاس، وكانـت البيـوت

مرعوشة تنادي: - الأمان – الأمان) فقد أضفى على الجماد حساً بعبارة (بيوت مرعوشة) وهذه التلقائية في التعبير استوقفتني كثيراً وشعرت أن هناك إمكانية أو بذرة يمكن الوقوف عندها والاستناد إليها، وأن أقدم ما لم يقدم من قبل، وهكذا بدأت رحلتي مع التراث العربي. وقد توثقت علاقتي بهذا المؤرخ، خاصة عندما عدت اكتشافه بعد يونيو 67 لأنه عاش في مرحلة سبقت الغزو العثماني لمصر سنة 1517، وكانت أحداث 67 بمثابة المفصل الذي تمحور حوله عمري وعمر جيلي، وكانت الآلام فظيعة جداً والمشاعر محزنة جداً، وبالتالي بدأ الكثيرون يلتفتون إلى التاريخ، إلى ما جرى وما حدث، وكنت قد عايشت التاريخ من قبل، ولكنني أعدت اكتشاف هذا المؤرخ لأنه عاش فترة شبيهة جداً وعبَّر عن آلامه وأحزانه في هذا الكتاب، فوجدت تطابقاً يصل إلى حد أني كنت أقف مذهولاً أمام بعض العبارات، وكأني أنا أعبر عن نفسي في هذا الكتاب بتلقائية ودون استناد إلى النظريات ودون اطلاع على ما قرأته فيما بعد من دراسات واجتهادات تؤصل الرواية العربية وتعود بها إلى أصولها الأولى. وقد استمددت من هذا الكتاب أول قصة كتبتها وشعرت أني وجدت فيها نفسي، وهي: (هداية أهل الورى لبعض ما جرى في المقشرة). والتي ضمها الكتاب الأول الذي صدر لي عام 1968 م (أوراق شاب عاش منذ ألف عام)، وأذكر أن بعض الأصدقاء قرأ هذه القصة مخطوطة قبل أن أنشرها فقال لي إنها تمثل مرحلة جديدة بعد يوسف إدريس. وبصراحة لم أصدق، فقد عدت إلى البيت في هذه الليلة وأنا أقول بيني وبين نفسي إن المجاملة لا تصل إلى هذا الحد، وهل يعقل أن أصل إلى مستوى يوسف إدريس أو أقدم مرحلة لأن يوسف إدريس كان ملك القصة القصيرة في ذلك الوقت، ولم أكن أتخيل أن ما أفعله يمكن أن يتجاوز أو يمثل رؤيا جديدة نابعة من واقع مختلف عن الواقع الذي عبر عنه، أو الشكل الذي قدم فيه قصصه القصيرة. والهدف من هذه الحكاية أني توصلت تلقائياً إلى هذا الشكل الذي يعتمد على أساليب القصص القديمة، وأساليب الحكي والروي القديمة التي أتقنتها واستقيتها من حوليات التاريخ المصري، ليس من ابن إياس فقط، ولكن بدءاً من أبي عبد الحكم في كتابه (فتوح مصر والمغرب)، ومروراً بالمسبحي والقضاعي والمقريزي في خططه، وابن بردي وابن واصل الذي أرخ للدولة المملوكية حتى الجبرتي في العصر الحديث، فتاريخ مصر يكاد يكون مدوناً يوماً بيوم منذ الفتح العربي حتى بداية القرن 19،وفيما بعد تولت الصحف والحوليات الأخرى تدوين هذا التاريخ بشكل أو بآخر.

كنت قد قرأت مراحل مختلفة من التاريخ المصري والتاريخ الفرعوني والتاريخ الإغريقي واليوناني، ولكن التاريخ الوحيد الذي وجدت فيه نفسي هو التاريخ العربي، وبالتحديد في القرون الوسطي، لأن هذا التاريخ ما زال واقفاً حياً مستمراً، الأسماء التي



يتكلـم عنهـا ابـن إيـاس في (بدائـع الزهـور)، موجـودة، الشـوارع تـكاد تحمـل نفـس الأسـماء، الآثـار الإسـلامية حيـة وتمـارس فيهـا الشـعائر حتـى اليـوم وسـتظل، فالتاريـخ كان أمامـي حيـاً مسـتمراً في الواقـع اليومـي للنـاس للشـعب وللمنطقـة التـي أعيـش فيهـا أو المدينـة التـي أحببتهـا. وأقدمـت عـلى دراسـة تاريخهـا وخططهـا ومـن هنـاك ينطلـق مفهومـي للـتراث عندمـا أقـول الـتراث، فالبعـض يتخيـل أننـي أتحـدث عـن شيء انقطـع العهـد بـه وانفصـل عنـا، وأننـا عندمـا نتكلـم عـن الـتراث نذهـب إلى هنـاك ونعـود إلى هنـا، ومفهومـي للـتراث يختلـف عـن ذلـك، فالـتراث الـذي أعنيـه هـو المسـتمر والفاعـل في حياتنـا اليوميـة الآن.

والـتراث الـذي أحـاول أن ألتحـم معـه وأتصـل بـه تـراث موجـود، ولكـن هنـاك ظـروف حضاريـة أحدثـت فجـوة أو قطيعـة مـع هـذا الـتراث، وأحيانـاً يسـألني البعـض: مـا علاقتـك بالـتراث؟ فأقـول لهـم أنـا الـتراث نفسي، وأنـا لا أعـترف أن هنـاك علاقـة مـع الـتراث، أنـا نفسي الـتراث العـربي وأنـا حامـل تقاليـده وكل جهـدي أن أحيـي مـا انقطـع العهـد بـه حتـى يسـتمر. توقفـت عنـد هـذا المـؤرخ وكانـت قصتـي الأولى «هدايـة أهـل الـورى» ثـم قدمـت كتـابي الأول (أوراق شـاب عـاش منـذ ألـف عـام) سـنة 68 وأحـدث ضجـة كبـيرة جـداً في الواقـع النقـدي، وإذا بالـكلام الـذي قالـه لي أحـد الأصدقـاء واعتبرتـه مجاملـة، يكتـب في مقـالات نقديـة كتبهـا كثـير مـن الأسـاتذة في مـصر في ذلـك الوقـت واعتـبروا أن هنـاك شـكلاً جديـداً للقصـة في هـذه المجموعـة.

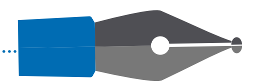
وهنـا بـدأت أعـي إلى حـد كبـير مـا أفعـل وبـدأت أتجـه بوعـي بمسـاعدة مـا قـرأت مـن كتابـات نقديـة أو ردود الفعـل عـلى مـا قدمـت إلى محاولـة استكشـاف أصـول القصـة العربيـة، ومحاولـة استكشـاف الـتراث العـربي وإمكانيـات القـص العـربي، وهنـا بـدأت أصطـدم مـع واقـع قائـم بالفعـل، وهـو أن المقاييـس النقديـة المسـتقرة في الواقـع الأدبي أوجـدت أسسـاً وأطـراً ومعايـير مسـتمدة مـن الفكـر النقـدي الغـربي. عندمـا يتكلـم أحـد عـن الروايـة فهـو يحددهـا بمفهومهـا الغـربي الـذي وجـدت عليـه، في القـرن 19 وبعـد عـصر النهضـة الأوروبي، الـذي اسـتوحاه أسـاتذتنا مـن كبـار الكتـاب ومنهـم الأسـتاذ نجيـب محفـوظ نفسـه وبدايـة من الدكتـور محمـد حسـين هيـكل في كتابـه (زينـب)، فـكان يتصـل بالـتراث الغـربي في الغـرب ولم يسـتند إلى الـتراث العـربي في النـص والـروي والحـكي. ومـن هنـا ولـدت الروايـة الحديثـة مـن رحـم الأدب الأوروبي الغـربي، وأنـا أعنـي هنـا الأدب العالمـي - الـروسي - الأمريـكي - الفرنـسي - وهـذه المقاييـس مسـتقرة وقويـة جـداً، ومحاولـة تجاوزهـا والخـروج عنهـا مسـألة صعبـة بالنسـبة لي، لأنـه عندمـا نقـول الروايـة العربيـة، تجـد مـن يقـول لـك، وهـل عـرف العـرب الروايـة؟ وهـل كان يوجـد روايـة في الأدب أو الـتراث العـربي؟ فالروايـات شـكل غـربي.

هـذا الـكلام صحيـح مـن جانـب، وخطـأ مـن جانـب آخـر، فهـو صحيـح عندمـا نقـول إن

الرواية ولدت كشكل غربي إذا عنينا الرواية بالمفهوم الذي ولدت به في القرن التاسع عشر ثم تطورت حتى القرن العشرين. وعندما نقول إن «زينب» أول رواية عربية، أو يحاول البعض الرجوع قليلاً فيرجعون إلى رواية علم الدين لعلي باشا مبارك أو إلى (عذراء دنشواي)، التي صدرت عام 1908 في مصر، وهذا الخلاف يدور في مسافة من 10 إلى 20 سنة لتحديد أول رواية عربية، ولكن هذا المفهوم يعني الرواية طبقاً لما هو موجود في الأدب الغربي. وأنا أرى أنه لا يوجد مفهوم واحد للرواية، فالرواية الغربية التي تأثر بها أساتذتنا الكبار هي شكل من أشكال التعبير الأدبي التي ولدت في الغرب، ولكن هناك أشكال من القص العربي لم يجر التعامل معها ولم يتمكن التواصل معها، ولم يحدث أن أحداً من كبار الأدباء نبه إلى هذا التراث، وذلك لأسباب سوف أذكرها، أسباب حضارية تتعلق بالرابطة مع الحضارة الغربية ومع الثقافة الغربية، وعلى سبيل المثال الأستاذ نجيب محفوظ عندما كتب عمله العظيم الثلاثية قال لي في مذكراته التي دونتها: أنه رجع إلى ما يسمى (بالرواية النقل)، التي تحكي تاريخ عدة أجيال متعاقبة فقرأ عدداً من الروايات، ولذا كان كبار الأساتذة يضعون أمام أعينهم النماذج الغربية في الرواية، ولكن التعامل مع التراث العربي لم يكن قد بدأت بالشكل الذي أرجوه. وباختصار شديد، فإن الرواية العربية الحديثة بنيت على التراث الروائي الغربي، فلماذا حدث ذلك؟

في تقديري الخاص حدثت فجوة كبيرة جداً في مسيرة الأدب العربي منذ نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، وسبب هذه الفجوة الحملة الفرنسية أو الاتصال الحضاري بالغرب في فترة كان فيها نوع من الضعف الذي ساد في الأمة العربية كلها،وفي نفس الوقت بدأت نهضة في أوروبا وبدأ الغرب يفكر في التوجه إلى العالم العربي أو الشرق ليس من منظور الحملات العسكرية ولكن بشكل آخر، ومن هنا كانت نشأة مدرسة الاستشراق التي بدأت تفحص كل كبيرة وصغيرة في العالم العربي. والذي درس هذا الموضوع بكفاءة علمية عظيمة جداً هو الدكتور إدوارد سعيد في كتابه (الاستشراق) وقد ترجم إلى العربية منذ سنوات. وقبل أن يأتي نابليون إلى الشرق جاء رحالة فرنسي وهو ليس الوحيد، فهناك ما يقرب من 50 رحالة فرنسي ودانمركي وغيرهم من مختلف بلدان أوروبا جاؤوا إلى الشرق، ودرسوا هذه المنطقة وعاداتها وتقاليدها.. وإلخ.

لكن نابليون قبل أن يأتي إلى مصر قرأ كتاباً مهماً جداً لجاسوس فرنسي اسمه (فوني) كان قد قدم إلى مصر كتاجر، وقد بين رأياً وضعه نابليون في ذهنه وطبقه الغرب، وما زال يطبقه وهو أنه بدلاً من اقتحام الشرق عسكرياً فأنا حضارياً آتي بالشرق إلى عندي آخذه. وهكذا مهد فكرياً للحملة الفرنسية على مصر، التي تمت فيما بعد وكانت حولها نقطة خلاف بين المؤرخين، فالبعض يعتبرونها قد أحدثت صدمة حضارية بدأت



بعدها اليقظة الفكرية، ويضربون أمثلة عديدة على ذلك، منها أن نابليون أتى بالمطبعة وكأن نابليون أتى بها لكي يطبع عليها كتبنا العربية وهذا ليس صحيحاً، نابليون جاء بالمطبعة كأداة قهر كوسيلة ليطبع عليها المنشورات لمخاطبة الشعب المصري لاستقرار جيوشه في مصر أو في الشام، وجاء بالأدوات العلمية التي انبهر بها عبد الرحمن الجبرتي لكي يدرس الواقع المصري من أجل استيعابه وجذبه، وليس لكي يحدثه أو يحضره. وطبعاً الدليل على هذا الكلام والكتب والمراجع الحملة الفرنسية سواء كانت اليوميات والصحف التي صدرت (المصري)، أو (ألوان مصر)، وقد ترجمت إلى العربية نصوص هذه الصحف كاملة في مجلدين في مصر منذ سنوات، وهي تحفل بتعبيرات عنصرية: (الشعب الهمجي)، وما يشبه هذه العبارة من عبارات عنصرية لا يوجد فيها ما يقدر حضارة هذه الأمة العريقة التي وفدوا إليها.

فالحملة الفرنسية جاءت إلى مصر فأحدثت قطعاً، وهذه القطع حدث في العالم العربي سواء في شمال إفريقيا أو في المشرق بأساليب مختلفة. حدث قطع بين ما كان وما يجب أن يكون وأنا لا أؤمن بكلمة « لو » في التاريخ كأن يقال (لو لم يأت نابليون لكان حدث كذا..).

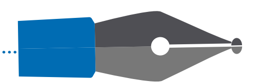
ما كان كان، وما حدث حدث، وقد جاء نابليون وحدثت آثار ما زلنا نعيش بعضها، وهناك إمكانية لتصحيح بعض الأخطاء التاريخية التي حدثت، وأنا في رأيي أن مصر بما فيها من ركائز عربية، والعالم العربي عموماً، أكثر تحضراً من هؤلاء الذين جاؤوا من الغرب. وإذا تتبعنا التطورات التي كانت تحدث في مصر قبل الحملة الفرنسية نجد أن هناك بذور نهضة علمية كانت موجودة منذ عهد علي بك الكبير، وكانت تواكبها بذور نهضة علمية في الدولة العثمانية ذاتها في الأستانة واسطنبول. وعلى سبيل المثال علماء الأزهر كانوا قد توصلوا قبل مجيء نابليون إلى ما يشبه الاتفاق مع الحاكم أو الوالي، وهذه الوثيقة موجودة بالكامل في تاريخ الجبرتي. إذا كانت هناك بذور للنهضة وكان هناك علماء للأزهر مستنيرون وكبار جداً وأذكر على سبيل المثال منهم الشيخ حسن العطار وغيره، لكن عندما جاء نابليون وبدأ التوجه إلى الغرب وبدأت حالة انبهار بالحضارة الغربية، وبدأ يحدث ذلك للفصل بين ما كان وما هو آت، وبدأ في نفس الوقت الاستعمار العسكري والأخطر منه الاستعمار الثقافي، وهذا على مستوى العالم العربي كله، وكان من الأهداف الرئيسية والثابتة للاستعمار الثقافي طمس اللغة العربية والأدب العربية، وإذا رجعنا إلى المناهج التي تدرس حالياً في العالم العربي سوف نجد أن بذور هذه المناهج تناولت في بداياتها الاحتلال، وقد حرص الاستعمار الثقافي باستمرار على تصوير اللغة العربية على أنها لغة قديمة وجامدة ولا تخضع لمتطلبات العصر ولا

لحضارته، ولا لإمكانيات العلوم الحديثة، بينما نجد بلاداً أقل بكثير جداً من العالم العربي ولغتها أحدث بكثير جداً من اللغة العربية تدرس الطب مثلاً في كلياتها بالبلغارية أو البولندية أو السويدية، وفي كلياتنا لا زال الطب يدرس باللغة الإنجليزية، وكذلك غيره من العلوم، وحتى برامج اللغة العربية والأدب العربي وضعت خطة مدبرة فكانت النماذج التي تختار ليدرسها الطلبة في مختلف المراحل من أسخف النماذج الشعرية، نماذج تكرِّه الطالب في الشعر العربي، أما النثر فقد صوروه على أنه رسائل مديح للخلفاء أو هجاء للأعداء، ولكن النماذج الرائعة من أجود الشعر أو روائع النثر الفني لم يجر التعامل معها، فلم تقدم القصة العربية في المناهج العلمية ولا حتى دراسات الأساتذة في الجامعات، لأن هناك آراء بدأ المستشرقون يرددونها منذ القرن التاسع عشر، وهي أن الأدب العربي أدب عظيم ولكنه أدب الشعر وليس أدب القصة، لأن العربي بطبيعته وتركيبة عقليته غير قادر على صياغة القصة والرواية، لأنها عمل يحتاج إلى تركيب وتحليل وعقلية حضارية مختلفة، أما الشعر فهو دفقه شعورية تخرج وتنتهي، وهنا يقترب التركيب العقلي من الرجل البدائي.

وللأسف وجد من يقتنع بهذا الكلام ويردده حتى في كتابات أكبر المفكرين الذين نعتز بهم، على الرغم أن دراسات بعض هؤلاء المستشرقين مثل (أرنست رنان) (مرغليوت) حافلة بأوصاف تكاد تكون عنصرية في وصف الأدب العربي في إطار تقديم الأدب العربي في الكليات والمناهج، وتقديمه أيضاً للجمهور. فقد جرى تعتيم على قطاعات كاملة من هذا الأدب وبالتحديد ما يمكن أن يثبت أن الأدب العربي عرف فن الرواية وعرف القصة... إلخ

وبدأت توجد قناعات من الصعب جداً تغييرها، لأن الواحد عندما يعرض رأياً مخالفاً يعتبر كأنه كفر،ويجب أن يجزم بأنه لا توجد رواية عربية، فالرواية هي القادمة من أوروبا لا غير. وعن أي رواية عربية تتحدث؟ ولم توجد جهود علمية في الاتجاه المعاكس، والتيار الغالب هو امتداد لآراء الاستشراق والآراء القادمة من الغرب التي تحط بشكل عام من الأدب العربي، بل وصلت بعض الآراء إلى حد التشكيك في هذا الأدب نفسه كما حدث في الشك في الشعر الجاهلي، واعتبار أنه منحول، ووقع الشك في الشعر وهو ديوان العرب وفنهم الأول، فما بالك بالنثر والرواية.

هناك دراسات قدمت في الاتجاه المعاكس بدأها الدكتور فؤاد حسين عام 47 وله كتاب اسمه قصصنا الشعبي. وهذا الكتاب طبع مرة واحدة وللأسف لم يطبع مرة أخرى، وقد كان فيه بداية تعريف بالقصص العربية والملاحم العربية، ثم قدم الأستاذ يوسف خورشيد عام 57 كتاب (فن الرواية العربية - عصر التجمع -) وآخر كتاب في حدود ما

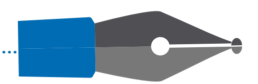


أعلم، صدر عام 73 للأستاذ محمود ذهني وهو بعنوان: (القصة في الأدب العربي القديم)، وكتاب آخر للدكتور علي عبد الحليم محمود عن القصة في الأدب الجاهلي وهذه الكتب تثبت بالأدلة والبراهين أن العرب عرفوا القصة والرواية.

إبحاري في التراث العربي لا يتوقف ولا ينتهي. وقد وصلت إلى نتائج من خلال اجتهاداتي الخاصة، وهذه الدراسات تصب في النهاية في مسيرة إبداعي. أنا لا أقول إن العرب عرفوا القصة أو الرواية فقط ولكن ألح على أن القصة في الأدب العربي سابقة على الشعر، والأدلة كثيرة جداً، فعلى سبيل المثال أشهر المعلقات العربية لا يمكن فهمها إلا إذا عرفنا الخلفيات التي كتبت فيها هذه المعلقات، شعر عنترة بن شداد لا يفهم في إطار حبه لعبلة، وشعر « امرؤ ألقيس » لا يفهم إلا في إطار رحلته الطويلة من أجل عرش والده المفقود، وقس على ذلك عشرات الأمثلة، إضافة إلى حقائق طمست في كتب تاريخ الأدب العربي التي تدرس منذ القرن التاسع عشر، ومنها على سبيل المثال أن المجتمع العربي يكاد يكون المجتمع الوحيد في حدود ما قرأت الذي كان للقصاص فيه منصب رسمي، وقد أقر ذلك في عهد معاوية وقبله كان هناك راوٍ سمح له بقراءة القصص في المساجد في المدينة ومكة، وكان معاوية مغرماً بالقصص والروايات وما تصفه كتب التراث العربي من أخبار الأولين أو حكايات الأقدمين، وما هذه الحكايات والأخبار والأساطير إلا قصص وروايات؛ قصص لها شكل خاص ولها مقاييس مختلفة عن الرواية التي عرفت فيما بعد في الغرب، فإذا أردت أن أبحث عن أصول الرواية يجب أن أتناول هذه النماذج بالمقاييس الخارجة من داخلها هي ولا أطبق عليها مقاييس المدارس النقدية أو الجماليات التي نبعث من القرن التاسع عشر أو القرن العشرين، فهذا أبسط ما يقوله المنطق في التاريخ العربي. نجد أن معاوية كان مغرماً بفن القصة ويذكر المؤرخون أنه كان ينام أربع ساعات في الليل و أربع ساعات يسيِّر أمور الدولة وخلال أربع ساعات أخرى يأتي بالقصاصين ويسمع منهم أخبار الأولين. وكان عمرو بن العاص يفهم هذه المسألة في شخصية معاوية، فأرسل إلى اليمن واستقدم منها شخصاً يمكن أن نسميه روائياً وهو (عبيد بن شريه الجرهمي) وقد جاء وجالس معاوية وقص عليه أخبار ملوك اليمن. وهذه المنطقة التي نتنفس هواءها الآن هي منبع للرواية والقصص والأساطير العربية. ولحسن الحظ أن هذه الجلسات دونت في كتاب وصل إلينا تحت عنوان (أخبار ملوك اليمن) لعبيد بن شريه الجرهمي وطبع في حيدر آباد كملحق لكتاب روائي آخر أعتبره نموذجاً فذا في شكل الرواية وهو كتاب (التيجان) ويتناول تاريخ ملوك اليمن وحمير الأقدمين. والغريب أن هذا الكتاب عندما خرج من المخطوطات طبع أول مرة في حيدر آباد في الهند.

وفي إطار إضفاء التعتيم على جوانب مضيئة من التراث العربي قام المستشرقون بخطّة تهجير منظمة للمخطوطات العربية من العالم العربي إلى الغرب، وأصبح عدد المخطوطات العربية الموجودة حالياً في المكتبات الغربية سواء في مكتبة باريس الوطنية أو غيرها يفوق بكثير المخطوطات العربية الموجودة في المكتبات العربية. وفي العالم العربي ما تزال كثير من المخطوطات مجهولة في المساجد وفي المكتبات الخاصة، ولم تجر محاولات متكاملة لاستكشاف هذا التراث، وعلى سبيل المثال قرأت من أسبوعين خبراً يقول إنهم في فرنسا بدأوا يترجمون ملحمة عنترة بن شداد بوصفها أكبر رواية في العالم؛ هذه الملحمة التي كتبت في القرن الرابع الهجري، في عصر العزيز بالله الفاطمي في مصر، ويوجد النص الكامل لها والذي يصل إلى عدة آلاف من الصفحات في المكتبة الوطنية في باريس. وإذا أردنا أن نحصل على نص متكامل لهذه الملحمة في المكتبة العربية لن نجد غير نص مختصر مطبوع طبعة شعبية في مصر، وقد أصبحت هي الأخرى في ندرة المخطوطات وغير موجودة. وهناك طبعة أخرى مشوهة طبعت في بيروت والنص الأصلي مثلما قلنا في باريس وينشر في باريس مترجماً إلى اللغة الفرنسية، وقدِّم على أنه أكبر رواية في العالم. وعندنا يتساءلون.. هل عرف العرب فن الرواية أو هل عرفوا فن القص؟

الكتب التي ألفها الأساتذة الذين أشرت إليهم تحفل بالعديد من الأمثلة التي تثبت بالأدلة العلمية القاطعة أنَّ القصة كانت موجودة في العصر الجاهلي، وبعد ظهور الإسلام، تدعمت خاصة عندما قرر معاوية أن يقص الرواة القصص في المساجد وفي المدن. وأنا أعتقد أن هؤلاء القصاصين الشفهيين انحدر منهم الرواة الذين عرفناهم في مصر وفي بعض البلدان العربية، كشعراء يروون على نغم الربابة في المقاهي. وفي رأيي أن هذا أفضل الأشكال للقص وسرد الروايات في ظرف لم تتوفر فيه المطابع والصحف التي تنشر القصص، ولم تكن هناك وسائل لانتشار الروايات والقصص وذيوعها، فكان الرواة يروون هذه القصص في المقاهي. وأنا أتصور أن هذا منحدر من عصور الإسلام الأولى التي تقرر فيها القصاصون كرواة في المساجد يروون القصص التي تحمل القيم الخلقية وتستوحي قيم الإسلام، أو تتحدث عن أخبار الملوك والغابرين والبطولات وأيام العرب، وهي عبارة عن روايات جاهزة وروايات فنية متكاملة سميت أيام العرب، لأن العرب كانوا يحاربون في النهار ويستريحون في الليل، وهناك أيام عربية مشهورة عن حروب مع أمم أجنبية يوم ذي قار، أو حروب أهلية، كحرب داحس والغبراء، وكانت هذه الأيام مبثوثة في كتب التاريخ حتى جمعها ثلاثة من الباحثين في مصر في كتاب بعنوان (أيام العرب) هل حاول أحد الشعراء أن يستوحي هذه الأيام وهذه الملاحم البطولية التي ترقى إلى مستوى الملحمة الإغريقية إن لم تتجاوزها؟ هل حاول أحد أن يستوحي



هـذه الرمـوز الموجـودة في هـذه الملاحـم أو في الأسـاطير والقصـص العربيـة؟ إن الجهـد في هـذا المجـال محـدود جـداً، وباسـتثناء الشـاعر الكبـير أمـل دنقـل -وهـو مـن أبنـاء جيـلي- لم تجـر محاولـة كاملـة لاسـتيعاب الـتراث العـربي، وتقاليـد الملاحـم العربيـة، والسـبب في ذلـك أن التربيـة والتكويـن الفكـري الـذي نشـأنا عليـه هـو القـادم مـن الغـرب، هـو المرجـع وهـو المقيـاس، والروايـة الغربيـة يجـب أن نكتـب مثلهـا بمـا فيهـا مـن عنـاصر البطـل - الزمـان - المـكان - إلـخ.

وعندمـا يتعامـل كثـير مـن المثقفـين والمبدعـين مـع الـتراث العـربي يتعاملـون معـه عـلى أنـه تـراث مـن الدرجـة الثانيـة أو الثالثـة، وهـذا مرتبـط بالدونيـة الثقافيـة التـي نشـأت وزرعـت في أذهاننـا وعقولنـا بتأثـير الاسـتعمار والغـرب، وبالتعليـم الخاطـئ للغـة العربيـة والأدب العـربي، حتـى الشـعر العـربي في المـدارس سـموه محفوظـات يذكـر بالأرشـيف ولا يذكـر بالإبـداع والشـعر الجميـل الموجـود في الـتراث العـربي.

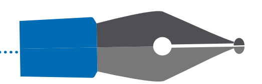
هـذه الدونيـة جعلـت الكثـير يتعالـون عـلى هـذه النـماذج الروائيـة، وهـذه النـماذج القصصيـة، حتـى أرقـى نمـوذج قصـصي فيهـا، إن لم يكـن في العـالم وهـو ألـف ليلـة وليلـة الـذي هـو عمـل عـربي صرف كامـل، وهنـاك مـن المسـتشرقين مـن يزعـم أن لـه أصـولاً هنديـة، قـد يكـون لـه بعـض الأصـول في الهنـد وفـارس ولكـن ذلـك أمـر مـشروع لا يفقـده هويتـه وهـذا وارد في مختلـف الآداب.

(فأنـدري جيـد) عندمـا اسـتوحى أسـطورة «أوديـب » لم يقـل أحـد إنـه نقـل، فالتأثـير في الآداب العالميـة موجـود ومعـترف، بـه وألـف ليلـة وليلـة التـي وصلـت إلينـا هـي عمـل عـربي 100 % الرمـوز فيـه عربيـة والمـدن عربيـة وبغـداد والقاهـرة وغيرهـما، وأعتقـد أن هـذا العمـل لم يـدرس جيـداً ولم يقـدر جيـداً مـن جانـب الأدبـاء العـرب، وأنـا أرى أنـه يتضمـن جميـع أشـكال القصـة الحديثـة وليسـت القديمـة، بعـض الكتابـات النقديـة تتنـاول أعـمالاً أدبيـة فتقـول إن الأديـب حطـم الزمـن وهـذا موجـود في ألـف ليلـة وليلـة، الخيـال الجامـح موجـود فيهـا، حدثـان يقعـان في مـكان واحـد أيضـاً وارد فيهـا إضافـة إلى ذلـك أشـكال القـص المختلفـة التعليميـة:- الأخلاقيـة، كل ذلـك متوفـر فيهـا رغـم هـذا كلـه لم تجـر محـاولات للتعامـل مـع هـذا النـص القصـصي العظيـم.

عندمـا كنـت في فرنسـا سـألني بعـض الطلبـة في جامعـة السـوربون عـن الروايـة العربيـة وهـل عرفهـا الـتراث العـربي، ويندهشـون عندمـا نترجـم روايـة عربيـة مـن أدبنـا الحديـث ويسـتغربون جـداً كيـف توجـد مثـل هـذه الروايـات، لأن أدبنـا لم يصـل الغـرب بشـكل كامـل، حتـى نجيـب محفـوظ الـذي يعـد مـن أعظـم الروائيـين المعاصريـن في العـالم لم يقـع تقديمـه تقديمـاً صحيحـاً في الغـرب.

قلنا إن الدونية الثقافية هي التي جعلت كثيراً من الأدباء لا يتعاملون بالتقدير مع التراث العربي ولا يحاولون استحياءه والبناء عليه، كثيرون انبهروا عندما قرأوا رواية (غابريل غارسيا ماركيز): « مئة عام من العزلة » لأن فيها مشهداً يتمثل في أن البطلة تنشر الغسيل فتطير فيتعجبون من الخيال وتحطيم منطقية الأحداث، فما رأيكم في أنه في أدبنا ناس يطيرون منذ ألف سنة ولا يطيرون فقط بل يمشون على الماء وينتقلون من أقصى الأرض إلى أقصاها في غمضة عين ولم ينتبه لذلك أحد، ولم يتعامل معه أحد، ولم يحلل هذه الظواهر الروائية أحد، والسبب أنهم لا يرون فيها إبداعا روائياً لأنهم لا يؤمنون إلا بالرواية القادمة من الغرب.

إن التدليل على وجود الرواية والقصة العربية مسألة أصبح مفروغاً منها، وإن كانت الدراسات الأكاديمية التي قدمت في هذا الاتجاه ما تزال قليلة ومحدودة التأثير، لأن كثيرين لا يعرفون هذه الدراسات التي قدمت، وقد توفرت لدي قناعة بأن التراث العربي فيه إمكانية خلق أشكال جديدة من التعبير، وطرق جديدة من القص والرواية والحكي.. وأن القلق الفني الذي ولدت به ليس من أجل البحث عن التفرد الشكلي، أو من أجل الموضة، أو لكي أكون غريب التقليعة، فالمسألة مرتبطة إلى حد كبير بإمكانيات التعبير وحرية التعبير والشكل الذي أختاره يحدد المضمون الذي أعبر عنه، وأنا في مجاهداتي للبحث عن أشكال من التراث العربي أعتقد أن هذه الأشكال تتيح لي قدراً أكبر من حرية التعبير، ومن القدرة على تقديم ما أريد أن أعبر عنه من مضمون في أفضل شكل ممكن. فإذن، هي مسألة ضرورة فنية، وعندما توفرت هذه القناعة بأن التراث العربي فيه إمكانيات لتطوير الأشكال الروائية فإلى أي أشكال نتجه؟ أستطيع القول: من خلال تجربتي أني وضعت يدي على مصادر لتأصيل الرواية العربية وتطوير القص، وهذه المصادر تنقسم إلى قسمين: مصادر للقص المباشر، وأعني بها تلك الأشكال التي ضربت منها أمثالاً مثل كتاب التيجان وكتاب الجرهمي والقصص المعروفة في التراث الجاهلي أو العربي وما يسميه القلقشندى في (صبح الأعشى) (بأوابد العرب) أي ما نسميه بالمفهوم الحديث (المأثورات) التي كانت سائدة في المجتمع العربي، (المأثورات الشعبية وكل منها مرتبط بحادثة أو واقعة تحتوي على كل عناصر القص الممكنة، وكذلك الملاحم التي بدأ تدوينها في القرن الرابع عشر الهجري ـ مثل ملحمة (عنترة)، و(سيف بني ذي يزن)، و(فيروز شاه)، (الأميرة ذات الهمة)، التي لم تكتمل طباعتها الآن، وما زال النص الكامل موجوداً في تركيا، (وأبو زيد الهلالي) و (السيرة الهلالية) إلى آخر ذلك من الملاحم ذات الصبغة القصصية المباشرة التي نقرؤها على أنها رواية، إضافة إلى ألف ليلة وليلة، كنص روائي وقصصي عظيم. كما أن هناك بعض الأساطير العربية المستوحاة سواء من الجزيرة



العربيـة أو نتيجـة الرحـلات العربيـة التجاريـة التـي كانـت تتـم في المحيـط الهنـدي، والتـي كانـت تنطلـق مـن هـذه السـواحل وهنـاك كتـاب جميـل جـداً اسـمه (مذكـرات سـليمان التاجـر)، ومـن الصعـب جـداً العثـور عليـه لأنـه مطبـوع في بومبـاي ومـليء بالأسـاطير المرتبطـة بالبحـر، لأن البحـارة العـرب عندمـا يسـافرون إلى الصـين والهنـد تقابلهـم بعـض الظواهـر الطبيعيـة التـي لا يجـدون لهـا تفسـيراً فكانـوا يوجـودون مـن الأسـطورة مـا يحقـق التـوازن بـين الإنسـان ومظاهـر هـذا الكـون، التـي يعجـزون عـن فهمهـا، ومـن هنـا جـاءت الأسـاطير مثـل أسـطورة التنـين والأشـجار التـي تطـرح نسـاء أو آدميـين، وصـورة الجزيـرة المتحركـة التـي انعكسـت في قصـص السـندباد البحـري في ألـف ليلـة وليلـة.. إلـخ.

هنـاك فـرع آخـر هـام في الـتراث العـربي وهـو كتـاب العجائـب، ذلـك أن الإنسـان في القـرون الوسـطى كان يفاجـأ ببعـض الظواهـر الطبيعيـة كـما أشرنـا، ويوجـد لهـا تفسـيراً أسـطورياً ومـن ذلـك كتـاب «مختـصر العجائـب » لإبراهيـم بـن وصيـف شـاه، وكتـاب « خريـدة العجائـب « لعمـر بـن الـوردي، ويضـاف إلى ذلـك التاريـخ الأسـطوري الموجـود في حوليـات كتـب التاريـخ العربيـة وهـو مـليء بالأسـاطير والبـذور التـي يمكـن أن تـثري الأدب الحديـث وتقـدم مـن خلالـه رمـوزاً وثيقـة الصلـة بتراثنـا بـدل أن نتغنـى ببروميثـوس ويولييسـز الـذي انتهـى ببحـث عـن الجزيـرة الذهبيـة، إلى آخـر مـا حفـل بـه الشـعر العـربي الحديـث مـن أسـاطير يونانيـة إلى درجـة أن بعـض كبـار الدارسـين والأسـاتذة الأفاضـل يحفظـون مواقـع المعـارك التـي دارت فيهـا حـوادث الإليـاذة ويجهلـون كتابـاً مثـل كتـاب التيجـان، ويضـاف إلى هـذه المصـادر مصـادر التاريـخ الأسـطوري الموجـود، فـإذا أخذنـا الجـزء الأول مـن تاريـخ الطـبري سـنجده عمليـة خلـق وإبـداع، فقـد جمـع مـا كان سـائداً مـن أسـاطير، وحكايـات في الجزيـرة العربيـة، ويتضمـن مراحـل تاريخيـة انقطـع بهـا العهـد ولم يبـق منهـا إلا ذكريـات وأسـاطير، فصاغهـا المؤرخـون لـكي يـبرروا بهـا الأحـداث الغامضـة، وهـذا واضـح جـداً في التاريـخ المـصري، لأنـه حتـى في بدايـة القـرن التاسـع عـشر لم يكـن التاريـخ الفرعـوني معروفـاً ولا تفاصيلـه، فكانـت الآثـار القائمـة مثـل الأهـرام تحـير المؤرخـين، فنجـد في كتـب المقريـزي وابـن إيـاس وحوليـات التاريـخ المـصري تفسـيراً أسـطورياً للتاريـخ يقـوم عـلى ملـوك وهميـين، وتوجـد كتـب مسـتقلة في هـذا الاتجـاه مثـل كتـاب: (أخبـار الزمـان)، و (مـروج الذهـب) للمسـعودي.

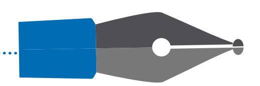
وتوجـد أشـكال مـن التأليـف انفـرد بهـا الـتراث العـربي ولا يوجـد لهـا مثيـل في الآداب الأخـرى، أذكـر منهـا شـكل الخطـط وأشـهرها خطـط المقريـزي. ومـن قبـل كان هنـاك خطـط المسـبحي ومـن بعـده خطـط عـلي باشـا مبـارك، وخطـط الشـام لمحمـد كـرد عـلي، وإضافـة إلى هـذه الخطـط بمـا تتضمنـه مـن تاريـخ المـكان والزمـان والأحـداث نجـد منبعـاً آخـر ثريـاً جـداً يمكـن أن يسـتوحى منـه، أو نؤصـل منـه العديـد مـن الأسـاليب الخاصـة بتقديـم الشـخصية

ومعالجتها، وأعني بذلك كتب التراجم وحوليات التاريخ العربي وأهم المصادر التاريخية تكاد تكون كتب تراجم وأذكر كتاباً بالتحديد أذهلني وهو (وفيات الأعيان)، لابن خلكان وكتابه ككتب التراجم فيها سير حياة الآخرين مروية بما فيها من أحداث ومصائر، وما أنفرد به ابن خلكان أنه في تراجمه عنده نفس روائي، ونفس الأمر بالنسبة للأمير (ابن تغر بردي) في (المنهل الصافي)، و (المستوفي بعد الوافي)، إضافة إلى كتب التراجم الكبيرة ومنها: (تاريخ بغداد) للحافظ الذهبي (وشذور الذهب)، إضافة إلى كتب التراجم التي تؤرخ: (طبقات الحفاظ، وطبقات ابن سعد، وطبقات الشافعية). قد تبدو هذه المصادر بعيدة عن التراث الروائي والقص، ولكن عندما أتعامل معها أستفيد، فمثلاً عندما أتعامل مع كتاب ابن خلكان أستفيد من طريقته في تقديم الشخصية وهي طريقة فريدة، قد لا أستطيع التعبير عنها بالضبط، لأنها أقرب إلى اللاشعور منها إلى التعبير المباشر، ولكنها بالتأكيد طريقة فريدة جداً في تقديم الشخصيات وفي تقديم الحدث، وهذه المصادر التي استعرضتها: الحوليات التاريخية، كتب السحر والتنجيم، كتب التراجم، كتب الخطط في التراث العربي، كتب العجائب أعتبرها مصادر غير مباشرة لإثراء الرواية العربية.

هناك نماذج عربية مهمة جداً جرى التعامل معها على أنها بلاغة وليست نماذج منها:- معظم مؤلفات الجاحظ وأنا رأيي أن الجاحظ مبدع وأعتقد:- (وهذا فرض أقدمه وأرجو أن يتولى أساتذة الأدب العربي من الأكاديميين دراسته)...أعتقد أن كتاب البخلاء للجاحظ فيه إبداع، وإلا هل من المعقول أن تحتوي البصرة في عهد الجاحظ على كل هذا العدد من البخلاء، لا أتصور ذلك، إن في كتاب البخلاء قصصاً فنية من صياغة الجاحظ متكاملة ومنها (أن الجاحظ يروي أن أحد أثرياء القوم توفي فحمد أقاربه الله وشكروه لأنه كان بخيلاً جداً لدرجة أنه كان يضن على نفسه بالأكل، فكان لديه قطعة من الجبن جافه فيمسك بقطعة الخبز ويمسح عليها ويأكل فيحصل في قطعة الجبن مجرى عند انقضاء السنة، فلما مات قالوا لابنه ستكون إن شاء الله أكرم من أبيك، فقال لهم إنه كان مسرفاً فاندهشوا من ذلك وقالوا كيف؟ قال كان يجب أن يضع قطعة الجبن ويشير إليها من بعيد بالخبز)..

مثل هذه القصة لا يمكن أن تكون إلا إبداعاً توفرت فيه كل عناصر القصة الفنية المتكاملة وهذا ينطبق على بقية كتب الجاحظ الحيوان والبيان والتبيين ورسائله.

هناك شكل من القصة القصيرة وجد في القرن الرابع هو المقامة التي اشتهر بها بديع الزمان الهمذاني وآثاره من المقامات إلى الرسائل، تعد من أروع النثر الفني في الأدب العربي، وقد كان القرن الرابع الهجري عصر نهضة كاملة في الأدب العربي، إلى درجة أني أعتبر أن أعظم ناثر عربي على الإطلاق وجد في هذا القرن هو (أبو حيان التوحيدي)



فمـن اهتمامـي بكتابـة (الإشـارات الآلهيـة) أكاد أحفـظ صفحـات كاملـة منـه لحـلاوة اللغـة وجمالهـا. وسـأتحدث بعـد قليـل عـن جـمال اللغـة العربيـة لأني متعصـب لهـا، خاصـة في السـنوات الأخـيرة بعـد أن اكتشـفت مواطـن الجـمال والروعـة فيهـا.

هنـاك شـكل آخـر يمكـن أن يصبـح أساسـاً لشـكل جديـد مـن القصـة القصـيرة، وأعنـي بـه كتـب الأمثـال (الأمثـال العربيـة) التـي ليسـت جمـلاً وعناويـن، وكل مثـل مبنـي عـلى حادثـة، وعندمـا نقـرأ كتـاب الأمثـال للميـداني، أو كتـاب الأمثـال للزمخشـري نجـد كلاً منهـما مليئـاً بمئـات القصـص. كل مثـل ينتهـي بقصـة وينتهـي بالجملـة العربيـة المشـهورة (وصـارت مثـلاً). هـذه الأشـكال أدعـو إلى العامـل معهـا والتوقـف أمامهـا، وأن نضـع لهـا مـن الاحـترام واسـتعادة الثقـة بهـذا الـتراث مـا يجعلهـا في نفـس المسـتوى الـذي نعامـل بـه الأدب الغـربي.

أنـا لسـت ضـد هـذا الـتراث الغـربي ولا الأدب الغـربي، ولكـن مـا أدعـو إليـه هـو المسـاواة بـين تراثنـا الـذي هـو أقـرب إلى وجداننـا وبـين الـتراث الغـربي، أنـا مؤمـن بتفاعـل الثقافـات ولكنـي ضـد أن تسـود ثقافـة عـلى ثقافـة أخـرى، ضـد أن تغـزو ثقافـة ثقافـة أخـرى، وهـذا مـا يتـم في السـنوات الأخـيرة بشـكل واسـع جـداً بالنسـبة للغـرب، حتـى وصـل إلى أدق التفاصيـل في حياتنـا اليوميـة، ففـي بعـض المـدن العربيـة تمـشي فـلا تشـعر أنـك في مدينـة عربيـة، فتجـد عـلى المحـلات أسـماء إفرنجيـة (كيروبـلازا - شـوبنيف سـنتر.. الـخ) فهـل هـذا معقـول؟ التفاعل الثقـافي مهـم ولكـن أن تطغـى ثقافـة عـلى ثقافـة أخـرى فهـذا مـا أقـف ضـده وبشـده، وأشـعر بخطورتـه بشـدة في السـنوات الأخـيرة.

هنـاك أيضـاً دليـل قاطـع عـلى مسـألة القصـة العربيـة ومكانتهـا في الأدب العـربي، وهـو القـرآن الكريـم، فقـد تحـدى الرسـول (صـلى اللـه عليـه وسـلم) القـوم بكتاب،والـذي يتحـدى قومـاً يتحداهـم فيـما يتقنـون ليـس فيـما لا يعرفـون وهـو الرسـول الوحيـد الـذي معجزتـه كانـت بالكلمـة، وأول مـا أنـزل عليـه (اقـرأ باسـم ربـك) فهـل مـن دليـل عـلى احـترام الكلمـة أكـثر مـن ذلـك؟ إضافـة إلى أن القـرآن الكريـم يخصـص سـورة بكاملهـا اسـمها (سـورة القصـص) صراحـة وفي بدايـة سـورة يوسـف (نحـن نقـص عليـك أحسـن القصـص) ويجـب التفكـير في مغـزى ذلـك ووعيـه.

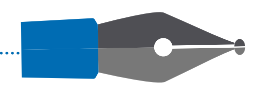
وضع اللغة العربية

أنتقـل بعـد هـذا إلى اللغـة العربيـة التـي تدهـور وضعهـا في كل أنحـاء العـالم العـربي خـلال العقـود الأخـيرة. وفي تقديـري أن ذلـك نتيجـة للمناهـج التـي وضعهـا الاسـتعمار منـذ البدايـة، وصـور لنـا هـذه اللغـة عـلى أنهـا لغـة جامـدة لا تعـبر عـن الشـعور الإنسـاني في مراحلـه المختلفـة، حتـى أصبـح هنـاك قطيعـة مـع النـثر العـربي الـذي كان موجـوداً في السـابق،

وصار هناك تسليط الأضواء على النثر العربي الذي وضع أسسه عبد الحميد الكاتب وليس النثر كما وجد في المقامة، وفي كتاب التيجان أو في الملاحم أو في غيرها من الأعمال الفنية.. وفي حدود معلوماتي أنه مثلاً لا توجد نماذج من كتاب (الإشارات الإلهية) تدرس في النصوص التي تقدم إلى الطلبة مثلاً، هذا الكتاب يعبر عن خلجات إنسانية وحالة نفسية معاصرة جداً عندما أقرؤه فكأنني أقرأ كتاباً يتحدث عني اليوم.

عندما بدأت الكتابة لم أكن مهتماً باللغة، ولكني بعد ذلك في مسيرة الكتابة اكتشفت أن اللغة كائن حي، فاللغة العربية يصل تنوع الأساليب فيها وغناها إلى درجة أني أكاد أزعم أنها تحتوي على عدة لغات في لغة واحدة، ويعني ذلك أن اللغة التي نجدها عند ابن إياس تصل إلى درجة من التكامل والكمال والطريقة الخاصة في التعبير بحيث تختلف عن اللغة الموجودة في ألف ليلة وليلة، أو كتب التراث الصوفي الذي لم يدرس حتى الآن، وأنا أتحدث عنه من الناحية الفنية لأنه في رأيي أرقى مستوى وصلت إليه اللغة العربية موجود في كتب الكبار من هذا التراث، والشطح والخيال موجود أيضاً في هذه المصادر، وقد حقق مستوى في بعض هذه الكتب قد يكون أرقى وأكثر دفئاً من الشعر، والسبب في ذلك أنه مكتوب نتيجة حالة وجدانية، ودفقة رهيبة تجتاح الإنسان فيحاول أن يعبر عنها باللغة ويطوع اللغة فتجيئه مشحونة دون حاجة إلى تكلف بلاغي وتنميق وتزيين وتحسين.

اللغة العربية عمرها المكتوب قد يزيد عن ستة عشر قرناً، واللغة الفرنسية لم يوضع نحوها إلا في القرن السادس عشر. واللغة الإيطالية الذي وضع أساسها وبلورها كلغة أدبية هو (دانتي) في (الكوميديا الآلهية)، وكثير من المثقفين العرب على انبهار بالكوميديا الآلهية مع أنه لم يحاول أحد أن يتعامل مع المعراج وكيمياء السعادة الموجودة في الفتوحات المكي،ة أو حتى مع نصوص عظيمة جداً من الأدب الإسلامي القريب منا، وأذكر جلال الدين الرومي وكتابه (المثنوي) الذي ترجمه المرحوم الدكتور محمد عبد السلام، وقد قضيت عدة سنوات أبحث عن نسخة من المثنوي لجلال الدين الرومي الذي ترجمه المرحوم محمد عبد السلام كما ذكرت، أما شهنامة الفردوسي التي قدمها الدكتور عبد الوهاب عزام عن ترجمة البنداري في الثلاثينات فهي أندر من المخطوطات النفيسة الآن، ولم تطبع مرة أخرى. هذا أدب قريب إلينا وفيه الرؤيا الإسلامية للواقع والكون وهو أقرب إلى وجداننا ولكن يحدثونك عن (شكسبير)، وفي تقديري أن المتنبي أعظم من شكسبير، ولن أخجل ولن أتردد أن أقول ذلك مهما أدى ذلك إلى متاعب وانتقادات أساتذة الأدب الانجليزي، أو المتغربين. وكتاب جلال الدين الرومي أعظم من الكوميديا الإلهية، وأنا لم تعجبني الكوميديا الإلهية عندما قرأتها ولا يعني ذلك احتقاري



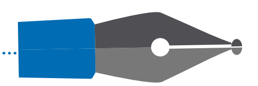
لها، ولكن المثنوي أقرب إليّ أو قصة المعراج بنصوصها المختلفة.

ما أدعو إليه هو اكتشاف هذا الأدب؛ أدب الأمم الإسلامية القريبة منا والمحيطة بنا، وإعادة اكتشاف اللغة العربية كلغة فنية، متجددة اللغة العربية تكاد تكون اللغة الوحيدة التي عمرها قرون مكتوبة ومدونة، وفيها كتاب يحفظ سلامتها إلى أبد الآبدين، وهي تنفرد بقواميس مكتوب فيها تاريخ اللفظ وتاريخ الإنسان اقرؤوا (لسان العرب) لابن منظور تجدون أن تاريخ اللفظ وتطوره موجود في هذه اللغة، غنى المفردات في اللغة العربية لا حد له، أنا كنت كثيراً ما أقرأ وأنا منفرد بعض نماذج من النثر العربي فأكاد أصرخ من المتعة والإحساس بالجمال، هذه اللغة الجميلة هجرت ومال الإنسان إلى أساليب سطحية، وأنا أدعو إلى توثيق الصلة بآدابنا واكتشافها من جديد.

وأنا في هذا لا أزعم أنني أحفر طريقاً وحدي، فإنه من عوامل أنسي وسعادتي في السنوات الأخيرة أن العلاقة بالتراث صارت قضية مطروحة على الواقع العربي على مستويات مختلفة سياسية واجتماعية وفكرية، ومستويات إبداعية. في عام 1978 قرأت رواية تمنيت لو أنني كنت أنا كاتبها وأقصد (الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبو النحس المتشائل) للكاتب الفلسطيني إميل حبيبي، وهو حالة خاصة بالنسبة للعلاقة بالتراث العربي، لأنه ليس مهدداً بالغزو الثقافي الذي حصل واستقر وتحول إلى استيطان فعلي، فأصبح التراث هو الذي يحمي الهوية واتجه (إميل حبيبي) إلى خلق أشكال جديدة من الرواية، وقدم هذا العمل الفني الجميل الذي يبهر الأوروبيين الآن، وسوف يصدر عن أكبر دار نشر في فرنسا خلال هذا العام بعد أن كان قد صدر عن دار صغيرة من قبل وهي (فاليمار) هذا العمل جعلني أشعر بأن ما بدأته بشكل تلقائي وما حاولت أن أفهمه بعد ذلك من كتابات الأساتذة؛ كل ذلك جعلني أشعر أنني لا أمضي في الطريق وحدي، وإضافة إلى ذلك قرأت عملاً نشر في عام 73 كان كتب في الأربعينات وهو (حدث أبو هريرة قال) للأستاذ محمود المسعدي الكاتب التونسي الكبير، وإضافة إلى ذلك كان المسرح العربي أكثر حظاً من الرواية لأن المسرحيين العرب تعاملوا مع النصوص التراثية العربية واستنبطوا منها نماذج مهمة جداً، وأنا قد سعيت برحلتي في العالم العربي إلى التعرف على عدد من أبرز كتاب المسرح العربي الذين قدموا تجارب تثريني في الرواية وتفتح لي آفاقاً جديدة، وأذكر من هؤلاء الطيب الصديقي في المغرب وتجربته المهمة، وقاسم محمد في العراق الذي قدم عملاً جميلاً مستوحى من الجاحظ وهو: (بغداد الأزل بين الجد والهزل) إضافة إلى تجربة الدكتور يوسف إدريس في مصر وهي تجربة فريدة رائدة في كتابه (الفرافير) فهناك إذا تيار يقظة في العالم العربي موجود في حركة الإبداع، ينمو ويستمر. وأسعدني جداً منذ سنة أنني كنت في تونس فعثرت

على رواية لكاتب شاب صغير السن اسمه صلاح الدين يرجاه بعنوان (الحاشية والمتن)، وقد استوحاها من التراث العربي فشعرت أنه خطوة بعدي أنا وبعد إميل حبيبي وهذا أمر هام فاتجاهنا لم يكن اتجاه فراغ وإنما هو اتجاه حقيقي يحفر لنفسه حركة إبداع عربي. وهذا ما يجعلني أقول: إن ما قدمناه حتى الآن ربما كان الطرقات الأولى على باب كبير اسمه:- (الرواية العربية الأصيلة) أنا أحمد الله أنني اعتبر نفسي سليلاً وتلميذاً لشيوخ طريق عظام انطلاقاً: من عبيد بن شريه الجرهمي ومروراً بالتوحيدي وابن إياس وغيرهم حتى نجيب محفوظ، وأعتقد أنه بمساعدة هؤلاء يمكن لنا أن نقدم إضافة جديدة وحقيقية في الفن العربي الروائي، لأن العالم لن يهتم بأدبنا إلا إذا وجد فيه ما لم يجده عنده، لأنه عندما تصدر رواية عربية تستوحي الأشكال الغربية وتصل إلى أوروبا، فكأنها بضاعتهم ردت إليهم ولا جديد فيها بالنسبة لهم، ولكن عندما جاءتهم رواية أمريكا اللاتينية هزت الإبداع الأوروبي، وشكلت صدمة لأنها كانت شيئاً مختلفاً، وفي حدود تجربتي المحدودة في الترجمة كان هذا أيضاً حظ رواية (الزيني بركات) فيما كتب عنها ولكن هذا لا يجعلني أتطلع صوب الترجمة، وأذكر أن أحد الأصدقاء قال لي (كيف تكتب كتاب التجليات بهذه الصعوبة اللغوية؟) ألا تضع في حسابك قضية الترجمة؟ فقلت له إن الترجمة مسؤولية غيري، أنا عليّ أن أبدع واكتشفت اللغة العربية والإبداع العربي لأن « الزيني بركات » رواية لغتها صعبة جداً؛ لغة تراثية مستوحاة من حوليات المؤرخين، وقيّضَ لها يوماً من يقدمها ويعمل فيها لمدة أربع سنوات.

أنا أتصور أننا نمضي الآن على طريق صحيح سوف يؤدي إلى ميلاد رواية عربية أصيلة سوف تشكل إضافة إلى الإبداع العالمي وإلى الفن الروائي العالمي، علينا فقط أن نستعيد الثقة بأنفسنا.



المناقشات

(1) مداخلة الدكتور محمد كافود:

أشكر الأخ جمال الغيطاني على هذه المحاضرة التي أمتعنا فيها عن تاريخ الرواية العربية. وما سأقوله مجرد تساؤلات أو مداخلات وليست أسئلة أو استفسارات، أستهلها بقضية استخدام اللغة أو الانسيابية في الأسلوب أو اللغة التلقائية، أنا أعتقد أن التلقائية بدأت مع ظهور الرواية العربية، وهي واضحة جداً عند طه حسين ويحيي حقي ومحمود تيمور. وإضافة إلى هذه النقطة أرى المحاضر قد تناسى أو تجاهل مجموعة من كبار كتابنا الذين أصّلوا للرواية العربية الحديثة واستفادوا كثيراً من التراث العربي، ومنهم جرجي زيدان في رواياته التاريخية وطه حسين في الوعد الحق ودعاء الكروان وعلى هامش السيرة، ومحمود تيمور في المهلهل وعنترة بن شداد وعزيز أباظة في كثير من أشعاره ومسرحياته، وكذلك توفيق الحكيم، كل هؤلاء استفادوا من التراث العربي حتى عند حدوث الصحوة العربية والبحث عن القومية والهوية العربية. كان التراث هو البذرة الأولى والأصل الذي وقعت العودة إليه عند المفكرين العرب واستفادوا منه في مواجهة التيار الغربية عندما بحثوا عن الرواية العربية.

وقضية ثانية أريد إثارتها قضية عدم وجود رواية عربية بالتقنية المعاصرة لفن الرواية،هذا الأمر لا يعيب الأدب العربي حتى نبحث له عن مبررات بأن الرواية موجودة عندنا، فمثلاً الشعر الوجداني انفرد به الشعر العربي ولم يعرف شعر الغرب القصائد الوجدانية بالصورة التي عرفناها، ورغم ذك لم يروا ذلك نقصاً عندهم، ولم يبحثوا لإثبات وجود شعر وجداني عندهم، فإذا شعب من الشعوب أو أمة من الأمم لم يوجد عندها فن فلذلك لا ينقصها ولا يجب إيجاد المبررات والبحث وتحميل النصوص ما لا تتحمله. أنا أتفق مع المحاضر في أنه ليس ضرورياً أن تخضع الرواية للتقنية الغربية، ومع ذلك لا يجب تحميل النصوص فوق طاقتها حتى نثبت أنها تتضمن قصة أو رواية بمعايير الرواية المعروفة في الغرب. هذا فن وذاك فن، وهذه أمة لها مميزات وخصائص تختلف عن الأخرى.

أمر آخر يتعلق بألف ليلة وليلة وعدم معرفة الغربيين لها. لا، فإن الغرب عرف هذا الكتاب وقد تأثر لافونتين بكليلة ودمنة، وألف ليلة وليلة، خاصة في أشعاره التي جعلها على ألسنة الحيوانات.

فيما يخص الموازنة بين الغيطاني ويوسف إدريس أظن أن الأمر مختلف بين الرواية والقصة القصيرة :- الرواية ما زالت تحتفظ بثلاث وحدات: مقدمة، وسط، نهاية.

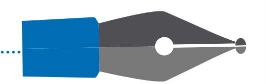
وتختلـف عـن القصـة القصـيرة وكل واحـدة لهـا تقنيـة تختلـف عـن الأخرى ولا داعـي لمثـل هـذه الموازنـة.

رد جمال الغيطاني على المداخلة:

أنـا لم أنكـر دور جرجـي زيـدان وطـه حسـين وتوفيـق الحكيـم وغيرهـم، فهـذا موضـوع كبـير جـداً ينـدرج تحـت علاقـة المبدعـين الكبـار بالـتراث العـربي في القـرن العشريـن، منـذ بـدأت عمليـة التأليـف الـروائي والمسرحـي في بدايـة القـرن، ولكـن جرجـي زيـدان عندمـا كتـب تاريـخ الإسـلام وطـه حسـين في الوعـد الحـق وتوفيـق الحكيـم في أهـل الكهـف. كانـوا يختـارون موضوعـات مـن التاريـخ العـربي ويقدمونهـا في أشـكال غربيـة أشـكال مسـتوحاة مـن الأدب العالمـي. أهـل الكهـف لتوفيـق الحكيـم نعتبرهـا في تاريـخ المسـرح العـربي بدايـة المسـرح الجـاد، كـما وجـد هنـاك وقـد أتى بموضـوع مـن نـص قـرآني واسـتخدمه لذلـك.

تجربتـي وتجربـة إميـل تعـد خطـوة أبعـد في ذلـك الاتجـاه لا أخضـع موضوعـات الـتراث العـربي لأشـكال غربيـة مسـبقة، وإنمـا بعـث ذلـك الـتراث نفسـه، مسـتفيداً مـن التقنيـات الغربيـة ولكـن لا، طبقهـا بالضبـط كـما هـي كـما يبـدو ذلـك في الوعـد الحـق أو أهـل الكهـف أو روايـات جرجـي زيـدان التـي هـي مجـرد صياغـات لبعـض أحـداث التاريـخ العـربي في أشـكال روائيـة اعتبرهـا متخلفـة إلى حـد مـا، حتـى بالنسـبة للمقيـاس الغـربي، ولكـن مـا ندعـو إليـه هـو عمليـة إحيـاء متكامـل متعـدد الجوانـب.

أمـا قضيـة تحميـل النصـوص بمـا ليـس فيهـا، فأنـا لا أضرب الأمثلـة ولا أحـاول الإشـادة بدراسـات الأسـاتذة محمـود ذهنـي، أو فـاروق خورشـيد بأنهـا تثبـت أن هنـاك روايـة عربيـة. ولا نفعـل ذلـك شـعوراً بنقـص تجـاه الغـرب وإلا كنـا نطبـق مـا ندعـو إلى التخلـص منـه عـلى أنفسـنا، فالموضـوع يتمثـل في وجـود تشـكيك في الأدب العـربي كـما وجـدت في الغـرب، ولكـن الـتراث العـربي وجـد فيـه نـوع مختلـف مـن الروايـة ولم تجـر جهـود كافيـة لاستكشـافها إلا جهـود محـدودة في اتجـاه الدراسـة، أمـا الجهـود التـي في اتجـاه الإبـداع فهـي أقـل، وأنـا أحـاول تسـليط الضـوء عـلى هـذه النـماذج للاسـتفادة منهـا. وفي الحقيقـة أنـا أكـثر مـن مسـتفيد، أنـا عائـش فيهـا ومتعامـل، وأنـا أقـول إن الأدب العـربي عـرف فـن روايـة خـاص بـه فـلا نطبـق عليـه مقاييـس الأدب الغـربي، لأنـه أدب مختلـف، فأنـا عندمـا أبنـي عـلى هـذه الأرضيـة أقـدم شـيئاً جديـداً في إطـار الأدب العالمـي ككل. أمـا عـن ألـف ليلـة وليلـة فلـم أقـل أن الغـرب لا يعرفهـا، بالعكـس الغـرب اكتشـفها واسـتفاد منهـا أكـثر منـا، ومركيـز نفسـه اعـترف بتأثـره بهـا وكل كتـاب أمريـكا اللاتينيـة بمـا فيهـم بورخيـس، وألـف ليلـة وليلـة نـص شـائع جـداً في معظـم لغـات العـالم، لكـن هـل حظيـت بنفـس الاهتـمام مـن المبدعـين العـرب؟ أشـك في ذلـك.



(2) تعقيب د. طه وادي:

أشكر نادي الجسرة على هذا الجهد الثقافي الطموح الذي أعجبنا به، كما أتوجه بالشكر إلى صديقي العزيز الأستاذ / جمال الغيطاني الذي طوف بنا في هذه السياحة الطويلة في التراث العربي، وإني أحمد له هذه الحماسة الشديدة والمتعصبة للتراث العربي، وهو كاتب جاد ومتميز في كوكبة أدبائنا المعاصرين، وصوت عالٍ في سيمفونية الرواية العربية المعاصرة، ولن أستطيع أن أوفيه حقه كما قال الأستاذ الكبير نجيب محفوظ حينما سئل من سيكون الخليفة في الرواية من بعده فقال إنه جمال الغيطاني. وبعد هذا أدخل في صميم المحاضرة لا لإثارة حوار أو جدل وإنما هي وجهة نظر أخرى في الموضوع باعتباري من المشاركين فيه نقداً وإبداعاً.

هناك قضية كبيرة تثار عندما نتحدث عن الفن القصصي بصفة عامة، وهي هل القصة فن حديث أم قديم؟ بالضرورة الفن القصصي فن قديم وله تراث وجذور عميقة مروراً بالملحمة فالسير التاريخية فالحكايات الشعبية فالمقامات إلى آخر ذلك من أشكال لا تعد ولا تحصى، لكن في تقديري أن الرواية فن حديث على جميع الآداب بما فيها الأدب العربي. الملحمة بطلها شبه إله، ثم القصة الدينية أو القرآنية بطلها نبي، السيرة الشعبية بطلها زعيم قومي أو سياسي المقامة بطلها أفّاق أو مغامر، وفي ألف ليلة وليلة البطل شاطر من الشطار أو تاجر من التجار، ووجه الجِدة في الرواية التي هي فن حديث أنها اتخذت شكلاً جديداً أو صارت الشخصية التي هي العمود في العمل القصصي شخصية عادية.

ولا ينقص من شأن الأدب العربي، كما لا ينقص من شأن الآداب الأخرى حداثة هذا الفن، البطل في كل الأشكال القصصية القديمة لابد أن ينتصر - في النهاية - قائد عظيم ينتصر ويحقق النصر لأمته، نبي أو رسول ينشر دعوته، وهذا مرتبط إلى حد كبير بقضية الواقع الاجتماعي وعلاقة الرواية بالواقع الاجتماعي وبالتفسير الاجتماعي للأدب، وكل هذه الأمور من نافلة القول ولا داعي لإثارتها، وإنما أركز على نقطة مهمة جداً تهم معنى الحداثة في الرواية، وهذا مرتبط بطبيعة الشخصية التي تكون بطلاً أو محوراً أو موضوعاً لدائرة الأحداث فيها، وهو أنه إنسان عادي يفشل أكثر مما ينجح، وقد ينتهي بالموت أو الضياع، أو الاغتراب. ففي تقديري هذه هي الزاوية الجديدة في حداثة الرواية وفي حداثة القصة، وهي طبيعة الشخصية. فعندما بدأت عندنا القصة الرومانسية كان بطلها من الطبقة البرجوازية المتوسطة مهندس، طبيب، واقعية تميل إلى درجة أقل وأدنى في السلم الاجتماعي، وهي شخصية الفلاح، أو العامل، أو الأجير، فالعلاقة المهمة جداً بين القصة كشكل أدبي وطبيعة الشخصية المصورة فيها. أمر آخر بالنسبة للتراث

العـربي، أود أن ننصـف الـرواة مـن النقـاد والأدبـاء بالنسـبة لعلاقتهـم بالـتراث عندمـا بـدأت عملية اسـتيعاب القصـة كشـكل أو اسـتيرادها كشـكل، المحـاولات كلهـا بـدأت في ارتبـاط كبـير بفـن المقامـة، ولا أدل عـلى ذلـك مـن محـاولات علـم الديـن لعـلي مبـارك وحديـث عيسـى بـن هشـام للمويلحـي وحتـى روايـات جرجـي زيـدان العلاقـة بينهـما وبـين ألـف ليلـة وليلـة وثيقـة جـداً.

هنـاك أديـب كتـب روايـات ولكنـه نـسي كـروائي لأن سـمعته كشـاعر غطـت عليـه وهـو أحمـد شـوقي، لـه مجموعـة روايـات ولكـن طفاهـا شـعره وهـي موازيـة لجرجـي زيـدان مرتبطـة ارتباطـاً كبـير بالحكايـة الشـعبية. وأمـر آخـر بالنسـبة للجيـل التـالي: هيـكل كتـب زينـب في باريـس ولنـدن، لكـن كان يشـبه أبطـال الروايـة بـأبي زيـد الهـلالي وغـيره - القضيـة ليسـت قضيـة الشـكل في حـد ذاتـه ولكـن مـاذا نضـع في هـذا الشـكل وفي هـذا الإطـار؟ في تقديـري أن اسـتيراد الشـكل ليـس عجـزاً ولا سـلبية وإنمـا هـو تبـادل للتأثـير والتأثر بـين الآداب. في القـرن العشريـن حـدث تيـاران متجـاوران وظهـر عندنـا مـا يسـمى بالروايـة الاجتماعيـة، وهـذه كتـب فيهـا هيـكل وطـه حسـين وتوفيـق الحكيـم ومحمـود تيمـور وإبراهيـم المـازني، واسـتمر إلى أن وصلنـا إلى الكتـاب الواقعيـين نجيـب محفـوظ والشرقـاوي وغيرهـم، وهـذا تيـار مسـتقل ونشـأ في تقديـري وإنصافـاً للحـق إلى حـد كبـير مسـتقلاً عـن الـتراث العـربي والحكايات العربيـة والأسـاطير العربيـة وفـن السـيرة. لكـن هنـاك مجموعـة مـن الكتـاب يسـتوحون مـن الـتراث العـربي فيـما سـمي بالروايـة التاريخيـة ابتـداء مـن جرجـي زيـدان ثـم محمـد فريـد أبـو حديـد ثـم عـلي الجـارم ثـم محمـد سـعيد العريـان وغيرهـم، فالـتراث العـربي لم يوضـع بـين قوسـين ولم يهمـل ذلـك الإهـمال المـزري أو العـدواني إلى حـد حينـما نشـأت الروايـة في مراحلهـا المبكـرة أو الأولى، ففـي تقديـري أن مـا يسـمى بالروايـة التاريخيـة نشـأ في أحضـان الـتراث مثـل روايـة وا إسـلاماه الشـهيرة المسـتوحاة مـن سـيرة الظاهـر بيـبرس. فـكل الروايـات التاريخيـة التـي ظهـرت بـين ثـور 1919 وثـور 52 في مـصر تسـتوحي الـتراث العـربي بشـكل واضـح وجيـد، لدرجـة أن كتبـاً مثـل عـلي الجـارم يكتـب روايـة عـن سـيرة المتنبـي الشـاعر الطمـوح. فهنـاك قـدر مـن المصالـح بـين الـتراث والفـن القصـصي والتحـدي الكبـير الـذي أراه والـذي أعتـبر أن كاتبنـا الكبـير جـمال الغيطـاني قـدم منـه وجهـة نظـره، أو تفسـير الرؤيـة الخاصـة هـو ضرورة أن يتعايـش المحـوران أو الأسـلوبان أو يحـدث فـض اشـتباك بـين التعصـب الشـديد للعروبـة والتعصـب الشـديد للشـكل. وهنـا يكمـن تطويـر الروايـة التاريخيـة، وفي ذلـك محاولـة أكـثر جـلالاً وخطـور، لأنـه تطويـر أكـبر وأعمـق لهـذه الروايـة التاريخيـة.


نادي الجسرة الثقافي الاجتماعي
1960
رسالة كل المثقفين

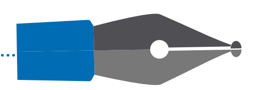


وبعد أيها القارىء العزيز

بعد أن استعرضنا أهم الندوات والمحاضرات التي أقامها النادي في ذلك العام المنصرم 86-87، يطيب لنا أن نستعرض معاً بعضاً من أقوال وتعليقات الصحف المحلية والعربية، والآراء التي ترددت في ذلك الحين حول المحاضرين والمحاضرات وحول الجهد الصادق الذي يقوم به هذا النادي، ودوره الكبير في إثراء الحركة الثقافية في البلاد.

الإدارة





وسام شرف..
إلى نادي الجسرة الثقافي

تقدم المجتمعات وارتقاؤها لا يقاس بما تملك من قوة نفطية ومالية. والحضارة الثقافية لا تزدهر بوفرة المال وحده.

فالمال وحده يتوفر حتى في الدولة المتخلفة حضارياً وثقافياً، ولذلك فالمجتمعات التي لها أمل في مجابهة تحديات العصر، والوصول إلى القمة الحضارية والثقافية، هي التي لا تسمح لأسواقها الفكرية بالركود، فإن ركدت غابت شمسها عن الوجود، وأصبحت في عداد الدول المتخلفة، حتى ولو غرقت في بحر من المال.

وفي خضم انفجار الثورة المادية والنفطية وما صاحب ذلك من سلبية للعقل الإنساني، نتيجة لغياب الوعي الفكري، وانحسار المد الثقافي، وفي زمن التسابق البشري للوصول إلى القمة الاقتصادية والمادية لترسيخ الذات وتثبيتها وسط البؤرة الاجتماعية..

من حقنا !

أن نهب وسام الشرف والتحية..

- إلى كل مجتمع يمنح أهل العلم والمعرفة والفكر تأشيرة دخول للتجول في عقول أبنائه في زمن المادة والنفط.
- وإلى كل عقل واعد، يسلط ضوءه بهدوء في أغوار العقل الإنساني ليفتت ويحطم صخرة الجهل في زمن التخلف.
- وإلى كل جهد يبذل، وعقل يخطط وينسق، من أجل مستقبل فكري وثقافي.

وأخيـــراً..

- إلى صاحب الرؤية الثقافية، والبديهة الحاضرة... إلى الإنسان الذي يلقي بأثقاله المادية والحياتية برهة زمنية، ويلبي الدعوة للمشاركة في حضور الندوات والمحاضرات واللقاءات الفكرية، ليكون في موقع النقاش والحوار، والإنصات والاستماع، في زمن التقهقر الفكري وانعدام الحضور الثقافي.
- وقد شاهدت ساحتنا الاجتماعية موجة متلاحقة من الأنشطة الثقافية والفعاليات الفكرية، التي نظمتها مؤسسات وهيئات تهدف إلى نشر الوعي من خلال اللقاءات الفكرية والندوات العلمية والأدبية، مع فحول الكتاب والمؤلفين

في مختلـف العلـوم والأدب، والذيـن سـاهموا بأفكارهـم النـيرة.. في إثـراء الحركـة الفكريـة والثقافيـة والعلميـة.

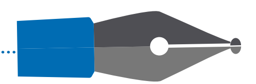
- **وكان لنـادي الجـسرة الثقـافي دور بـارز في إحيـاء تلـك اللقـاءات والنـدوات، حيـث اسـتقدم بصـورة متواليـة كبـار المفكريـن والكتـاب كالكاتـب الـروائي فتحـي غانـم، والأسـتاذ محمـود ريـاض، والكاتـب الصحفـي أحمـد بهـاء الديـن ومـا زالـت اللقـاءات جاريـة.**

ولذلـك...

نقـدم الشـكر الجزيـل لأعضـاء نـادي الجـسرة أولاً.. عـلى تلـك الجهـود الطيبـة، ونتمنـى أن لا تتوقـف أنشـطته عـن العطـاء في خدمـة العقـل والفكـر، حتـى نخـرج مـن دائـرة اللاوعـي.. ونعيـش في صـورة ثقافيـة وفكريـة. وثانيـاً.. عـلى اهتمامـه بحضـور المـرأة، حيـث خصـص لهـا مسـاحة للمشـاركة في حضـور النـدوة الأخـيرة، وقـد أثبـت بجهـوده أن مجتمعنـا مـا زال بخـير.. وشـبابنا مـا زالـوا بخـير..

ع. عبيـدان

جريدة العرب القطرية 7 / 3 / 1987



الرايـــــة

بالخبـز وحـده لا يحيـا الإنسـان، وإنمـا هـو يحيـا عندمـا يتـم التـوازن بـين مطالـب العقـل والمعـدة والـروح والجسـد!

ومـن هـذا المنطلـق فإننـا لا نسـتطيع إلا أن نحيـي كل مـن يدفـع حركتنـا الثقافيـة إلى الأمـام، وهـو الـدور الـذي يقـوم بـه نـادي الجـسرة هـذه الأيـام، حيـث يخطـو خطوات واسـعة عـلى طريـق الألـف ميـل مـن خـلال موسـمه الثقـافي الحـالي الـذي بـدأ مـع بدايـات الربيـع!

ولا جـدال بـأن مجـرد تنظيـم نـدوة ثقافيـة خطـوة كبـيرة، فـما بالـك حـين يكـون موسـم الجـسرة الثقـافي حافـلاً بألـوان عديـدة مـن المحـاضرات السياسـية والثقافيـة والأدبيـة؟!

ولـكل ذلـك وبـدون تجـاوز للحقيقـة يمكننـا القـول بـأن الموسـم الثقـافي الـذي نظمـه نـادي الجـسرة خـلال الأسـابيع الماضيـة باسـتضافة كبـار السياسـيين والكتـاب والأدبـاء يعـد خطـوة مـن الخطـوات المهمـة التـي يخطوهـا النـادي نحـو الضـوء !

ولعـل طريـق المسـتقبل أمـام نـادي الجـسرة قـد صـار مفتوحـاً ليصبـح مشـعلاً للثقافـة لـو اسـتمر عـلى نفـس الطريـق.

إننـا نسـتطيع القـول بـأن نـادي الجـسرة بهـذه البدايـات الرائـدة قـام بإنجـاز كبـير عـلى مسـتوى السـاحة الثقافيـة في البـلاد، وأملنـا أن تسـتيقظ الجهـات الأخـرى لتقـوم بالـدور المكمـل!

كـما أن مشـاركة محمـود ريـاض وأحمـد بهـاء الديـن وجـمال الغيطـاني وفتحـي غانـم يعنـي الكثـير والكثـير، وفي اعتقـادي أن هـذا الجهـد لا يفـترض أن يقـوم بـه نـادي الجـسرة وحده،بـل هـو جهـد مشـترك ينبغـي أن تسـاهم بـه كل القطاعـات المعنيـة بالثقافـة، حتـى يأخـذ أبعـاده في قنـوات العطـاء الثقـافي الـذي يخاطـب عقـل الإنسـان.

ومـا مـن شـك أن النشـاط الـذي قـام بـه نـادي الجـسرة قـد سـاهم في تحريـك عجلـة الثقافـة وخلـق شرارة مـن الضـوء، والنبـض، والتجـاوب..

ويكفـي للتأكيـد عـلى ذلـك إقبـال الشـباب عـلى حضـور محـاضرات الجـسرة، مـما يعنـي حاجـة الشـباب إلى الثقافـة التـي تحـترم العقـل.

إننـا كثـيراً مـا نتهـم شـبابنا بعـدم الإقبـال عـلى الثقافـة، ونتهـم مجتمعنـا بأنـه يعـاني مـن أزمـة مثقفـين، وننسـى أن نتكلـم عـن افتقـاد مجتمعنـا إلى أسـس الثقافـة وبذورهـا ومكوناتهـا

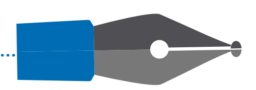
الأساسية، وهـو مـا يجعلنا كمـن يتحـدث عـن الشـجر قبـل البـذرة!

ولا شـك أننـا قبـل أن نبحـث عـن المثقفـين يجـب أن نبحـث عـن الأنديـة الثقافيـة التـي يمكنهـا أن تحتضـن المثقفـين، وهـذا مـا نفتقـده في بلادنـا.

إن جيـل المثقفـين سـيملأ بلادنـا عندمـا نؤمـن بـأن الحيـاة ثقافـة والثقافـة ضرورة للإنسـان كالغـذاء، كالهـواء، كالتنفـس، وأنـه ليـس بالخبـز والنفـط والإسـمنت يحيـا ويعيـش الإنسـان !!

أحمـد علـي

جريدة الراية القطرية 7 / 3 / 1987



نادي الجسر ومقومات النجاح

نادي الجسرة هو النادي الثقافي الاجتماعي الوحيد بدولة قطر، وهذا لا يعني أن الأندية الرياضية الموجودة في الدولة لا تهتم بالنواحي الثقافية والاجتماعية، ولكن الهدف الأول لنادي الجسرة هو محاولة نشر الثقافة وتدعيم العلاقات الاجتماعية بين النادي وأفراد المجتمع، ومحاولة خلق نوعية ثقافية بين أفراد المجتمع في وقت تظهر الحاجة فيه ماسة لطبقة من المثقفين لتطوير مجتمعهم.

ويأتي الاهتمام بالأنشطة الرياضية في هذا النادي كهدف ثانٍ، تحقيقاً للمقولة المأثورة «العقل السليم في الجسم السليم».

ولقد أخذ النادي يشق طريقه ببطء، ولكن بثقة نحو تحقيق أهدافه، على أسس وخطط معينة يتم الإعداد لها في بداية كل عام.

فعلى الصعيد الرياضي أقام النادي أول بطولة للسنوكر بقطر للأندية، وحالياً وبشهر رمضان المبارك يقيم النادي عدة دورات في الألعاب الخفيفة، ويخيل للزائر للنادي وكأنه خلية نحل لا تهدأ.

أما على الصعيد الثقافي فقد أخذ النادي يستضيف كبار الشخصيات من المجتمع المحلي والخارجي في جميع المجالات. ولقد استطاع النادي أن يحسن اختيار هذه الشخصيات، فكانت لقاءات وأمسيات لا تنسى شهد لها جميع الحاضرين بالنجاح، واستطاع النادي بجهوده هذه أن يستقطب انتباه أفراد المجتمع إليه، ويحثهم على الحضور والاستماع والاستمتاع باللقاءات التي تم عقدها.

كما شهد النادي أيضاً لقاءات حاضر فيها أفراد بارزون من المجتمع المحلي لمناقشة قضاياه ومشاكله، فظهرت هذه اللقاءات في أحسن ما يمكن أن تكون، ولقد جاءت مدة اللقاءات تدعيماً لدور النادي الثقافي من ناحية والاجتماعي من ناحية أخرى.

وإيماناً من النادي بأهمية دوره كمؤسسة اجتماعية، فلقد ساهم بحل بعض القضايا البيئية المحلية أو على الأقل المساهمة بالتعريف بها، ومناقشة أسبابها ومقترحات لحلولها، كما كان للنادي أيضاً إسهامات اجتماعية جليلة برزت بالتبرع للمؤسسات الخيرية وللاجئين بلبنان..

وأخيراً هذا قليل من كثير يقوم ويسعى النادي لتحقيقه..

نسأل الله أن يوفق نادي الجسر لجهوده...

علي محمد صادق

جريدة الخليج اليوم 10 /5/ 1987

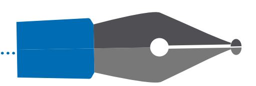
وقفـــة!

النشـاط الثقـافي والفكـري، الـذي يقـف وراءه بـكل همـة ونشـاط، نـادي الجـسرة الثقـافي، يسـتحق منـا التقديـر، والاحـترام، فهـو دليـل وعـي بمـا يجـب أن يقـدم للنـاس في مجـال مـن أهـم المجـالات تتصـل بحياتهـم، وتعمـل عـلى إثرائهـا، وتـؤدي إلى فائدتهـم الملحوظـة، والمؤكدة في كل النواحـي، والـذي يثلـج الصـدر حقـاً أن يسـتضيف النـادي كل هـذه الشـخصيات ذات الثقـل الفكـري في كل النواحـي. والـذي يفـرح أكـثر وأكـثر، أن يـدور النقـاش، طويـلاً، وحيـاً، بـين هـذه الشـخصيات، وبـين جمهـور الحاضريـن، مـما يـؤدي إلى الإثـراء الفكـري المطلـوب، وكشـف الكثـير مـن أبعـاد القضايـا المطروحـة عـلى السـاحة الفكريـة والثقافية.والـذي يضاعـف مـن السـعادة حقـاً أن تلقـى هـذه الحقائـق الحيويـة، الإقبـال مـن الجمهـور، الـذي ظلمنـاه، ونظلمـه دائمـاً، وقلنـا إنـه يتجـه فقـط، إلى الخفيـف، والـذي لا يضيـف ولا يؤثـر.

إن هـذه الظاهـرة الأخـيرة بالـذات تؤكـد أن النـاس بخـير، وأن العيـب ليـس فيهـم، بقـدر مـا هـو في « الإنتـاج « الـذي يقـدم لهـم، فقـد تركنـا « تجـار الأدب « والفـن والفكـر، يصـدرون إلى النـاس مـا يكسـبون مـن ورائـه الآلاف أو الملايـين، دون أي اهتـمام بأثـره الضـار والمـؤلم والخطـير، عـلى العقـول والنفـوس، في الحـاضر والمسـتقبل.. فليحمنـا اللـه منهـم ومـن أخطارهـم.

ناقد

*جريدة الخليج اليوم القطرية 24 /2/ 1987



الموضوع: محمود رياض

والواقع العربي الراهن

وقفـــة!

بالأمس، تحدث شاهد على التاريخ، وقام بتحليل الوضع العربي الراهن في محاضرة شاملة جامعة، استمع إليها الكثيرون من طالبي المعرفة والراغبين في استيضاح بعض الحقائق، والوقوف على حقيقة الكثير من المواقف والتوجهات. بالأمس تحدث محمود رياض، وحلل الوضع العربي الراهن، من خلال رؤية وموضوعية، اقترب صاحبها من الأحداث سنوات طويلة وعاصر أبطالها جنباً إلى جنب. وهذا الحديث من خلال المحاضرة القيمة دليل حي على أن الكلمة الصادقة والأمينة تصل إلى الناس، بل ويجب أن تصل إلى الناس. وهذا هو أهم ما في الموضوع، ولذلك فإن ما يبذله نادي الجسرة الثقافي في هذا الصدد يستحق التقدير والتشجيع أيضاً، فإن موسمه الثقافي الحافل بكل ما هو مضيء، وبناؤه علامة بارزة على أن النشاط الهادف لا يضيع سدى، بل هو يثري ويفيد ويضيء، ويضيف أيضاً، وكل هذا لا بد أن ينعكس على الفكر والثقافة وعلى العقول، كما يدفع إلى التفكير السليم والمنظم، ويوجه الشباب بالذات إلى النافع والمفيد. ولقد ثبت من خلال هذه المحاضرة ومن غيرها ومن نشاطات النادي الثقافي والفكري أن الناس فعلاً تقبل على المفيد والنافع، وشبابنا بخير وسيظلون بخير مهما تعددت في مواجهته، وسائل الترغيب، نحو «السهل»، و«الخفيف»، و«التافه»!!

ناقد

*جريدة الخليج اليوم القطرية 23 /2 /1987

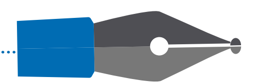
من الواقع
عبد الله حجي السليطي

نادي الجسرة الثقافي

أعجبت بالخطوات الحثيثة التي يقوم بها عدد من المسؤولين في نادي الجسرة الثقافي والاجتماعي لإحضار نخبة من المثقفين والساسة العرب لإلقاء محاضرات وندوات تتعلق بشؤون وهموم الثقافة والسياسة في الوطن العربي.

هذه الخطوات تدل على أن هناك إحساساً بأهمية الثقافة ونشرها، وتدعيم مسيرة الوعي الحضاري في هذا الوطن، فضلاً عن أهمية التواصل العربي في مجال الثقافي التي تشكل عنصراً مهماً من عناصر البناء والتقدم الإنساني والحضاري.. فتحية مخلصة لكم.

جريدة الراية القطرية 5/ 2/ 1987



نادي الجسرة.. إضاءة ثقافية

ومـن المؤسسـات الثقافيـة الأخـرى قـام الوفـد بزيـارة إلى نـادي الجـسرة الثقـافي الاجتماعـي واجتمعـوا هنـاك بعـدد مـن المثقفـين وأسـاتذة الجامعـة بحـوار مفتـوح، وحقيقـة أن مثـل هـذه الحـوارات تـأتي ضمـن أهـداف النـادي لنـشر الوعـي الثقـافي والاجتماعـي، إلى جانـب أدواره الأخـرى في بنـاء التنميـة مـن خـلال اسـتثمار المواهـب الشـبابية بالتضامـن مـع أجهـزة ورعايـة الشـباب والإعـلام والتعليـم، وغيرهـا مـن الأجهـزة المسـؤولة في الدولـة وصـولاً إلى جيـل جديـد مـن الشـباب القطـري المتفتـح عـلى آفـاق الثقافـة المعـاصرة.

لقـد بـدا واضحـاً للوفـد خـلال زيارتـه هـذه لنـادي الجـسرة مـدى الاهتـمام الجـاد بالتطويـر والكـوادر البشريـة القطريـة التـي تولـت بنفسـها مهمـة التنميـة بشـكل مبـاشر. وقـد كان الشـباب القطـري الذيـن التقـي بهـم الوفـد شـديدي الحـماس لهـذه الفكـرة، ويتطلعـون لتنفيذهـا بحـماس شـديد، ولعـل سـمو الأمـير الشـيخ خليفـة بـن حمـد قـد عـبر عـن هـذا خـلال لقائـه بالوفـد « نحـن فخـورون بمـا تحقـق في قطـر ولكنـه رغـم كل شيء لا يمثـل كل طموحاتنـا البعيـدة التـي سـنعمل بحـول اللـه عـلى تحقيقهـا».

من زيارة الوفد السعودي للنادي

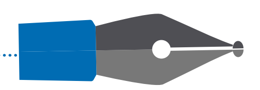
مجلة اليمامة السعودية – 4 مارس 1978.

ليالي ثقافية وأدبية مصرية في قطر

على مدى شهر كامل عاشت الدوحة ثراء أدبياً وفكرياً وثقافياً وذلك بمناسبة الموسم الثقافي الأدبي والفني الذي بدأ في قطر، حيث وجه نادي الجسرة الثقافي الدعوة على التوالي لكل من الأديب والكاتب الصحفي فتحي غانم، والسيد محمود رياض الأمين العام السابق لجامعة الدول العربية، والكاتب الصحفي أحمد بهاء الدين، حيث عقدت في الدوحة عدة ندوات سياسية وأدبية حضرها الوزراء وكبار المسؤولين والعديد من العرب وأساتذة جامعة قطر، ورجال الإعلام والصحافة، وجمع غفير من المواطنين.

وقد تحولت هذه الندوات إلى مظاهرة ثقافية بفضل المناقشات الجادة التي تتسم بالعمق والحرية الكاملة والتي كانت تستمر حتى مطلع الفجر.

*مجلة أكتوبر المصرية 1987



أحمد بهاء الدين في محاضرة نادي الجسرة الثقافي والاجتماعي

الأمة العربية مطالبة بمواجهة متغيرات العصر

الأقمار الصناعية ترصد أسرار المجتمعات الضعيفة

إذا لم تترابط وتتكامل الدول العربية ستصبح دولاً تابعة.

لا يزال نادي الجسرة الثقافي في قمة نشاطاته وفعالياته يقدم لنا النموذج الأمثل في إقامة الندوات والمحاضرات لكبار الأدباء والمفكرين في عالمنا العربي، وتأتي محاضرة الأستاذ أحمد بهاء الدين « نحن في عالم متغير » تتويجاً رائعاً للجهود التي تبذلها إدارة نادي الجسرة الثقافي والاجتماعي لإنعاش الحركة الثقافية والفكرية في البلاد.

وقد شهد محاضرة الأستاذ أحمد بهاء الدين جمهور غفير امتلأت به قاعات المجلس بالشيراتون، وقد تابع حشد كبير منهم أحداث المحاضرة وقوفاً على مدى ساعتين تقريباً بعد أن امتلأت كراسي القاعة الواسعة عن آخرها.

العرب 3 /3/ 1987

فـــلاش

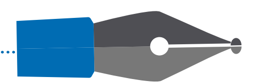
أيـام الصيـف تهـل علينـا، ومعهـا تتـلاشى كل الأنشـطة الثقافيـة والفنيـة.. ونظـل طـوال شـهور الصيـف ننتظـر ميـلاد عمـل فنـي جديـد، والكلمـة لنـادي الجـسرة الثقـافي الـذي أمتعنـا خـلال الأشـهر الماضيـة بالعديـد مـن المحـاضرات والنـدوات الثقافيـة. أقـول لنـادي الجـسرة نرجـوك باسـم كل المثقفـين والمحبـين للفـن والثقافـة أن تجعـل مـن صيفنـا هـذا العـام جنـة، وجنتنـا ألا تواصـل نشـاطك الثقـافي داخـل جـدران النـادي فحسـب، بـل في الدوحـة كلهـا، كـما فعلـت مـع محـاضرات أحمـد بهـاء الديـن وجـمال الغيطـاني ومحمـود ريـاض وفتحـي غانـم، وباسـم المثقفـين كلهـم نقصـدك ألا تتركـه فريسـة لحـر الصيـف دون بقعـة ظـل ثقافيـة ترطـب عقولنـا.

إننـا نناشـد نـادي الجـسرة الثقـافي أن ينقذنـا مـن براثـن الانتظـار الثقـافي الطويـل الـذي تجعلنـا في إدارة الثقافـة والفنـون طـوال أيـام الصيـف.. وعـلى فكـرة الصيـف أيضـاً النـاس تريـد أن تتثقـف وليـس في الشـتاء فقـط.

الأمل معقود على نادي الجسرة أن يكون الصيف جحيماً أو نعيماً ولكم الأمر.

م. ط

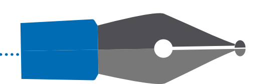
*جريدة العرب بتاريخ 18/ 4/ 1987



شكراً لنادي الجسرة

كعادتـه الطيبـة في توجيـه الدعـوات لكبـار مفكـري ومسـؤولي الأمـة العربيـة، كانـت دعوتـه هـذه المـرة لحضـور المحـاضرة القيمـة التـي ألقاهـا الأسـتاذ محمـود ريـاض الأمـين الأمـين العـام السـابق لجامعـة الـدول العربيـة. وقـد حـاول الضيـف الجليـل أن يقـدم لهـذا الجمـع الغفـير مـن الحضـور تلخيصـاً لمرئياتـه في عـدد مـن القضايـا العربيـة الهامـة في ضـوء خبرتـه الطويلـة في العمـل السـياسي الـذي امتـدت إلى أكـثر مـن نصـف قـرن، كان خلالهـا دائمـاً في مواقـع المسـؤولية وسـط الأحـداث السـاخنة التـي شـهدته السـاحة العربيـة منـذ قبـل بـدء الحـرب العالميـة الثانيـة حتـى الآن.

*الخليج اليوم 28 /2/ 1987



الفهرس

كلمة النادي 5
يوسف درويش

كلمة النادي 7
إبراهيم خليل الجيدة

الشباب والطلاق في المجتمع القطري: 9
فضيلة الشيخ /عبد القادر محمد العماري

شبابنا والنشاط الثقافي: 25
د. عبد العزيز المغيصيب

دور الشباب في بناء المجتمع: 35
د. علي السالوس

إدارة التنمية في الوطن العربي: 49
د. أحمد رشيد

الإيدز هذا الخطر الزاحف: 65
د. عبد الله الباكر

الرقابة على المصنفات الفنية: 77
السيدة / نعيمة حمدي

واقع الأمة العربية بين الأمس واليوم: 87
الأستاذ / محمود رياض

نحن في عالم متغير: 115
الأستاذ / أحمد بهاء الدين

قضايا الأدب العربي المعاصر: 135
الأستاذ / فتحي غانم

تأصيل الرواية العربية: 149
الأستاذ / جمال الغيطاني

من تعليقات الصحف 172

رقم الايداع بدار الكتب القطرية

14 لسنة 1988

قضايا ثقافية

